This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء السادس

الممالك الأهلية

حياتها المادية والفكرية والروحية

الرباط، 2007

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ

شمال أفريقيا القديم

تأليف

اصْطيفان اگْصيل

ترجمة

محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء السادس

الممالك الأهلية

حياتها المادية والفكرية والروحية

الرباط، 2007

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم : عبد اللطيف بربيش

أمين السر المساعد : عبد اللطيف بنعبد الجليل

مدير الجلسات : إدريس خليل

مدير الشؤون العلمية : أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : alacademia@iam.net.ma : **E-mail**

فاكس 75.51.01 (037)

اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اگْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/2385

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-059-1 (الجزء السادس)

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڭْصيل

الجزء الأول : – ظروف النماء التاريخي ـ الأزمنة البدائية
– الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الجزء الثاني : – الدولة القرطاجية

الجزء الثالث : – التاريخ العسكري لقرطاجة

الجزء الرابع : – الحضارة القرطاجية

الجزء الخامس : – الممالك الأهلية : نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الجزء السادس : – الممالك الأهلية : حياتها المادية والفكرية والروحية

الجزء السابع : – الجمهورية الرومانية والملوك الأهالي

الجزء الثامن : – يوليوس قيْصر وأفريقيا ـ نهاية الممالك الأهلية

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الكتـاب الأول

الحياة المادية

الفصل الأول

الطعام – العناية بالأبدان – الملابس

1

قيل إن سكان بلاد البربر في الأعصر القديمة أو العتيقة Antiquité كانوا كثيري العدد، وكان لذلك سببان اثنان، هما : ولادة قوية جدا، وأعمار طويلة بصفة استثنائية. وكان الأطفال كثيرين خصوصا في الأسر ذات الزوجات المتعددات، ولكن حتى في غير هذه، كان الأطفال يقتبلون بفرح.

كان الأفارقة يعتبرون قوما أصحاء الأبدان جدا، كانوا «أقوى جميع الرجال» كما يقول هيرودُت. وسالوسْت كتب بدوره قائلا : «إنهم جنس رجال لهم أبدان سليمة، رشيقة وتقاوم التعب. وأكثرهم يموت بالشيخوخة، إلا من قضى نحبه بحد السلاح، أو بالوحوش. إذ يقل أن يقضي عليهم المرض». في هذا الكلام مغالاة بالطبع. وقد شده الأجانب من قوتهم وجلد من أتيحت لهم فرصة مقابلتهم. فكانوا يعجبون من حالات الحياة الطويلة التي تشهد بها شواهد قبور العهد الروماني. وهي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

حالات كانت كثيرة الوقوع في الأزمنة الماضية، كما لا تزال إلى اليوم. ولكنهم لم ينتبهوا إلى أن ذوي البنية الشديدة هم الذين كانوا هكذا يتحملون الحياة الشاقة، وأن الموت كان يحصد في الآخرين حصدا. وأن ما كان يعطى للمرضى من عناية، قليلا ما كان يشفيهم، إذ لاشك أن الطب كان يستخدم الطرق السحرية أكثر مما يستخدم الأدوية، وهذه نفسها كانت في العادة سخيفة، ولم تكن هناك طريقة أخرى لحفظ الصحة غير الحياة السلمية في الهواء الطلق. ويكاد الأهالي جميعا يكونون نِحافاً ضامرين. وليست قناعتهم في الأكل فضيلة يأتونها عن رضى، وإنما يلزمهم الرضى بالآكال الثخينة، وغالبا ما يحدث لهم أن لا يشبعوا من جوع.

والمظنون أن اعتقادات خرافية منعتهم – من عهد باكر – من النيل من جميع المأكولات التي تسنح لهم. ونحن نعرف – عن طريق هيرودُت – أن الليبيين الشرقين لم يكونوا يأكلون لحم البقر ولا الحلّوف. ولربما أنهم كانوا يمتنعون كذلك عن حليب الأبقار. ويبدو أن منع الحلوف قد فرض أيضا على الليبيين الغربيين. أما الحلوف الوحشي، الخنزير، فلربما أنه لم يكن ممنوعا بتشدد. ونحن نجهل إلى أي عهد يرجع البدء في امتناع بعض الأقوام عن أكل السمك، والطيور والبيض وغير ذلك. أما الامتناع عن لحم الفرس فعامّ بينهم، والمظنون أنه كان دائما ممنوعا.

أما البحث عن المنتجات النباتية الطبيعية، وعن بعض الدويبات، وعن الحيوانات الصغيرة الأخرى، فإنه عمل قد مكث – ولزمن طويل بعد أعصر ما قبل التاريخ – إحدى الثروات الغذائية للكثير من الأفارقة. فقد كانوا يقتاتون بجذور النبات، وفواكه الأشجار البرية، بالبلوط الحلو

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
لاشك. وكان سكان الأطلس المغربي يأكلون كميات كبيرة من العنب. وفي منطقة السدرتين كانوا يقطفون ثمرات شجيرة شائكة، قال پْلين الشيخ Pline l'Ancien إن اسمها الإفريقي هو كِلْثيس Celthis، كان الإغريق يسمونها لوتس Lutos، بل إنهم أطلقوا اسم لوتُفاج Lotophages (أي اسم آكلي ثمرة اللوتس) على عشيرة تسكن الساحل وتعيش، حسب زعم هيرودُت، على هذه الفاكهة وحدها. وحسب المعلومات التي نجدها عند مختلف الكتاب مثل هيرودُت، وفي الرحلة المعْزُوة لسيلَكْس Scylax وكذلك عند ثِيُوفْراسْت Théophraste، پوليب Polybe، وسترابون Strabon وپْلين Pline، فإن اللوتُس أمكن التعرف عليه بأنه عناب برى Jujubier sauvage، واسع الإنتشار في بلاد البربر. وثماره في حجم ثمار الكرز الصغيرة، لها لون يميل للصهبة، وطعمها غير لذيذ، وتنضج في جقبة غشت شتنبر(1). أما المليلوتُس Mélilotos الشجرة المثمرة التي كانت حسب قول سترابون تنبت في أرض الماسيسيليين (موسطة الجزائر وغربها) فإنها على ما يبدو تنتمي إلى لوتس السدرتَيْن.

إننا نعلم إلى أي حد تكثر قواقع الحلزون في مواقع ما قبل التاريخ، وعلى الخصوص منها التي بها الصناعات الحجرية التي تذكرنا كثيرا بالصناعات الأورنياسية Aurignacien بفرنسا. ولاشك أن الأهالي هم الذين علّموا الرومانيين فيما بعد أن يستطيبوا حلزون إفريقيا، ففي أوائل عهد الميلاد كانت هذه الرخْويات محلا لتربية حقيقية تصدّر لما وراء البحار. ويحتمل أن العظايا Lézards، وكذلك بعض الزواحف الأخرى لم تكن تهمل. وعندما يأتي الجراد من الصحراء فإنه يصاد بمنطقة السدرتين أكثر مما بغيرها من المناطق. فقد كان النصَمونيون Nasamons وهم عشيرة تسكن بساحل سدرة الكبرى، يجففون الجراد في الشمس،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

حسب قول هيرودُت، ثم يسحقونه، ويأكلون هذا العجين بعد أن يسقوه باللبن.

أما المأكولات النباتية فقد كثرت بصفة كبيرة بسبب الزراعة. وليس لدينا معلومات عن الخضراوات. ولعلها كانت من طعام أهل المدن خصوصا، لأن بساتين البقليات المحدثة عند أسوار المدن كانت تساعد على سد الاحتياجات، وكذلك الحال بالنسبة للحدائق التي لم تكن تمتد أبدا إلى أبعد من ضواحي المدن. ومع ذلك فإن الاستهلاك المحلي لم يكن كافيا ليستنفد ما تنتجه مغارس الزيتون التي كانت تحيط ببعض المدن، وعلى الخصوص منها لِبْتيس الكبرى Leptis la Grande، ويسوغ الاعتقاد أن بعضا من الأهالي كانوا يقتنون الزيت للمطبخ وللاستنارة. أما التمر الذي كان يجنى في الواحات الصحراوية، فإنه كان ضروريا للأثيوبيين الذين كانوا يعيشون بهذه الأمكنة. والراجح أن هذا التمر لم يكن يبعث به كثيرا إلى الليبيين، ومع ذلك فالنَّصَمونيون كانوا يذهبون لأخذه إلى أوجيلا Augila، بجنوب سرنيكا (منطقة برقة). أما واحات ساحل سدرة التي كانت جزءاً من المملكة النوميدية فلم تكن تنتج سوى تمر رديء، غير صالح لأن يباع بعيدا.

أما الحبوب فكانت لها قيمة اقتصادية أخرى، لأنها لم تكن تقوت الذين يحصدونها فحسب، بل ومعهم سكان المدن أيضا، والكثير من الرحّل كذلك. والنصوص لا تذكر سوى الشعير و القمح.

وربما أن الناس كانوا في الغالب يكتفون بتحميص الحبوب، ولكن عادة سحقها ترجع لعهد عهيد. وقد بقيت بعض الطرائق البدائية في ذلك محفوظة لدى البربر خلال القرون. فتارة تسحق الحبوب بمدق في

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مهراس مستدير، وهاتان الأداتان تكونان من حجر أو من خشب. وتارة تسحق على حجر عريضة بيضوية الشكل، سطحها مقعر قليلا، ويستخدم في ذلك حجر آخر تحمله اليد، ويكون عبارة عن مدقة لها جانب منبسط كذلك، وغالبا ما تكون المدقة أسطوانية الشكل. لكن في العادة تُستخدم رحى صغيرة يمكن حملها، وقطرها متراوح ما بين 0,20 إلى 0,40 سنتمترا. وهي تتكون من قُرصَيْن حَجَرِيّيْن متراكبين. فالرحى السفلى تكون ثابتة، وبها محور عمودي من معدن تدخل فيه الرحى العليا التي لها مقبض يمكن أن تدار به، كما بها منفد تصب فيه الحبوب، وباحتكاك القرصين تتكون عملية الطحن. وقد عرفت هذه الرحى حول البحر الابيض المتوسط منذ عهود بالغة في القدم.

بهذه الوسائل يقع الحصول على طحين غليظ، يتم إعداده للأكل بطرق مختلفة. فالرّوِينة Rouina مثلا طعام واسع الانتشار بين الفقراء، وهو من طحين الشعير، يملح ويؤكل من غير أن يطبخ في النار، وإنما يكتفى ببله بالماء أو الحليب ليتكون منه عجين ثخين[(2)]. ولصنع العصيدة يستخدم الزيت أو الحليب والزبدة. والكسكس – يسمى بالعربية الطعام، لأنه الأكل الذي له كامل الاعتبار – هو الأكلة المفضلة عند البربر. ويصنع من طحين الشعير، وعند الأغنياء من طحين القمح. تمر عليه راحات الأيدي حتى يلتحم ويتكور على شكل حبيبات، ويطبخ في بخار الماء. ولا يبدو أنه جاء من المشرق، لأنه في اتجاه الشرق غير معروف فيما وراء منطقة طرابلس Tripolitaine. وفوق ذلك فإننا نجهل متى بدأ استعماله. وأكيدا فإنه ليس العصيدة البونيقية Pulspunica التي عرّفنا كاتون الشيخ Caton l'Ancien بكيفية صنعها. ولاشك أن الخبز لم يكن يصنع إلا في المدن. ولكن الأهالي من سكان البوادي كانوا – ولا

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يزالون حتى اليوم – يصنعون رقاقاً Galettes، يطبخ في العادة طبخاً غير كاف، وفي بعض الجهات يدهنونه بالزيت.

أما الرعاة، فإن حليب قطعانهم، وعلى الخصوص منه حليب النعاج والعناز، كان طعامهم الأساسي[3]. ويصنع منه جبن طري أو محفوظ. أما الحيوانات نفسها فلم تكن تذبح عن رضى، لأنها كانت تشكل رأس مال، بل هي في الغالب الثروة الوحيدة لمالكيها الذين كانوا يدخرونها أكثر ما يمكن. والصيد على الخصوص، باعتباره متعة وضرورة، كان هو الذي يزود الناس باللحم الذي يأكلونه، بلحم الأنواع المختلفة من الحيوانات، بحيث أن بعض القبائل كانت تستطيب أكل القرود، على أن الحيوانات المؤنسة من كباش وماعز وثيران، كانت تذبح في القرابين التي كانت في الأكثر تشتمل على مأدبة عشاء. ولابد أن بعض الأعياد وحفلات استقبال الضيوف، كانت أيضا مناسبات لمأدبات لا تغيب عنها (لحوم) هذه الحيوانات. كما كان لابد من أكلها حينما لا يجد المرء ما يتبلغ به. وعلى النقيض من ذلك، إذا توفر اللحم، إما بسبب كون الصيد قد أمكن أو لأي سبب آخر، وكان اللحم أكثر مما يستطاع التهامه في نفس الحين، فمن الممكن تدخين قسم من هذا اللحم، والاحتفاظ به ليتناول بعد ذلك، وبعد سحقه ودهنه بالشحم، كما لا يزال يفعله الرحّل بالجنوب.

وكان القرطاجيون يأكلون الكلاب، بل يقال إن الملك دَرْيوس Darius دعاهم للتخلي عن هذه العادة. والراجح أنهم أخذوها من بعض الأفارقة، إذ لا يصدق أنهم هم الذين أعطوها لهم، لأن أكل الكلاب Cynophagie كان معمولا به لدى الگوانش في جزيرة كناريا الكبرى،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

التي لم يعثر فيها على أي أثر بونيقي[4]. وقد استمرت هذه العادة إلى عهد قريب منا جدا، أو إنها لا تزال مستمرة في جنوب بلاد البربر وفي بعض الواحات الصحراوية.

والدجاج يكثر وجوده اليوم تقريبا بكل مكان، ولكننا لم نعثر في شأن هذه الطيور على أية إشارة، لا عند النوميديين، ولا عند الموريين. كما أن البربر على وجه العموم لا يستجيدون السمك، والمظنون أن معامل تمليح السمك الفينيقية المقامة على الساحل لم تكن لتروّج منتجاتها لدى القبائل.

أما العسل الذي يلتهمه الأهالي بنَهَم، والذي يقوم لهم مقام السكر، فلا يبدو أنه كان نادر الوجود، على الأقل بمنطقة التل. ويقول سالُسْت Salluste إن سكان الأراضي الداخلية ليسوا مطمئنين إلى أنهم قادرون على ري ظمئهم، لذلك لا يتناولون الملح ولا التوابل الأخرى التي قد تنكئ حلوقهم. وعلى النقيض من ذلك، فإن ذريتهم اليوم تحب جدا الأطعمة المتبلة كثيرا.

إن أكثرية الأفارقة كانوا شرابين للماء. كما كانوا يشربون حليب قطعانهم. وكما هو شأنهم اليوم كانوا لاشك يشربون الحليب الحامض، بدلا عن الحليب الحلو الذي هو أقل تبريدا. أما الخمر فإن الفرص لم تكن تعن لهم كثيرا ليشربوها، أو ليكثروا منها. وفي منطقة السدرتين، وكذلك عند الماسيسيليين كانت ثمرة اللوتس تستخدم في صنع نوع من الخمر الحلوة التي لا تحفظ سوى لبضعة أيام.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

2

ليس لدينا أي حجة لنفترض أن أجداد البربر كانوا يزاولون عادة الختان. والفينيقيون أنفسهم الذين كانوا يرضخون لها في وطنهم، قد تخلوا عنها في إفريقيا على ما يبدو.

وعلى غرار ما كان في أوربا، فإن عادة صبغ الأبدان قد كانت قديمة جدا بهذه المنطقة، والراجح أنها كانت من الطقوس التي لها مزية الوقاية من الأمراض وتطهير الأبدان، فبعض مواقع ما قبل التاريخ، توجد بها مدقات أو أحجار عليها آثار لمواد ملوّنة كانت قد سحقتها، كالمغرة الحمراء، وعلى قلة منها المغرة الصفراء ويمكن قبول أن هذه الألوان لم تكن تطلى بها أشياء من الأمتعة فحسب، بل وبشرة الإنسان أيضا، وسنرى أن هذه العهود البعيدة، وما تلاها بعد إلى أعصر قريبة من عهد الميلاد، كانت جُثَتُ الموتى فيها، وعلى ما يحتمل، قد صبغت بالأحمر. والساحل الشرقي للقطر التونسي، هو إحدى النواحي التي عثر فيها على علامات لوجود هذه العادة، وقد كان بعض الأحياء يخضعون لها أيضا. ففي القرن الخامس قبل الميلاد كانت العشائر المقيمة بهذا الساحل وهي المكْسو Maxyes والـگوزَنْطيون Gyzantes ولربّما حتى الزاويك Zaucès يصبغون أبدانهم بمادة الزنجفر Vermillon وهذا التلطيخ قد أقلع عنه الليبيون فيما بعد، وذلك بالنسبة للأحياء قبل الأموات. ولم يتحدث عنه بعد هيرودُت أي نص قديم، كما أنه غير مستعمل عند البربر اليوم. على أننا يمكن أن نتسائل عن هذه التصبيغات بالحنّاء التي تدخل ضمن الطقوس، وتستعمل في عدة من الحفلات كالختان والزواج وغير ذلك، ألا تكون ذكرى وتلطيفا لهذه الصبغات البدنية، فتكون مادة نباتية قد حلت محل المغرة ؟

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

أما عادة تحلية البشرة بالرسوم فإنها ثبتت. ومنذ عهد ما قبل التاريخ، فإن المواد الملونة التي عثر على بقاياها قد استخدمت في آن واحد في رسم أشكال مفصولة، وفي نشر الطلاء بسعة. هذه الأشكال هي التي تبدو على أبدان بعض الرؤساء الليبيين، المرسومين على بعض الآثار المصرية في الألف الثانية قبل الميلاد، وهي عبارة عن بعض الوشمات الهندسية البسيطة، ورمز الآلهة «نيت» Nit. فهل كانت مجرّد طلاء فوق البشرة ؟ أو كانت وشما لا يحوّل، بلون أدخل تحت البشرة بواسطة أداة حادة الرأس ؟ لا نستطيع الجواب. ولكن الگوانش في كناريا الكبرى كانوا يتزينون بالأصباغ، لا بالوشوم. والأصباغ كانت تنطبع على البشرة بواسطة أختام (مراشم) من الخشب أو الطين المشوي. وكان اللون المستعمل هو الأحمر والأصفر والأخضر. أما الوشمات فكانت أشكالا هندسية. وفي المغرب وغيره من بلاد البربر، لا يزال بعض النساء يرسمن بالأسود خطوطا وشباكا على وجوههن.

وقد ظن البعض أنه عثر عند الشاعر البيزنطي كوريبوس Corippus على إشارة عن أشكال مرسومة على جباه نساء الأهالي. ولكن هذا ليس مؤكدا. وحتى إذا قبلنا هذا التأويل، فلن نستطيع القول بأن ذلك كان رسما سطحيا أو كان وشما. وهناك فقرة لا تحتمل أي شك، وهي الواردة إلينا من كاسْيوس فيلكْس Cassius Félix الكاتب الإفريقي الذي عاش في القرن الميلادي الخامس. وفيها ذكرٌ للعلامات التي ترى على أوجه النساء عند الموريين. (اسم الموريين كان آنذاك يطلق على جميع الأهالي ببلاد البربر). فالألفاظ التي استعملها كاسيوس، أي Stigmata (علامات تحدث بالحديد المحمي) وCharactères (ميسم الحيوانات، أو وسم بالحديد)، وكذلك الطرائق التي يذكرها لإزالة هذه العلامات، كل ذلك يبرهن على أنها كانت وشما حقيقيا.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وفي أيامنا هذه، لا يزال الوشم منتشرا جدا في إفريقيا الشمالية، برغم أن النبي محمدا (ﷺ) قد حرّمه. فهو مستعمل عند البرابرة الخلص، كما عند العرب والبرابرة المستعربة. فلا معنى إذن للاعتقاد بأنه انتشر منذ الفتح الإسلامي، وفوق ذلك، فإن نص كاسْيوس يكفي لدحض هذا الرأي.

من الوشم ما يمكن ان تكون له سمة سلالية، فيكون علامات مشتركة لمجموعة من السكان، للناس الذين يكونون قبيلة. وإني لأشك مع ذلك في وجود مثل هذه العلامات حقيقة ببلاد البربر. وإذا كانت بعض الرسوم يكثر وجودها في جهة دون أخرى، فليس ذلك برهان على أن النساء اللواتي خططن هذه الرسوم كن يعتبرنها أشكالا تنتمي على وجه التحقيق إلى مجموعتهن، ولها وظيفة التمييز بين الأفراد وضمان الحماية الخاصة لهم.

أما أن للوشم - بصفة عامة - أو كان له في الأصل مزية الوقاية، فذلك ما لا يبدو مشكوكا فيه. إن الوشم تمائم دائمة تقي وتشفي في آن واحد من الشرور المادية ومن التأثيرات المؤذية. والطابع السحري للوشم يفسر لماذا حرمه النبي ووصفه بأنه كتابة الشيطان[5]. وهناك علامة صغيرة على شكل صليب، كثيرا ما يخطها البربر على جباه أطفالهم، واسمها العياشة Ayyacha (أي ما يُحْيي)، وفي ذلك برهان على الدور الوقائي الذي يجعلونه لها حتى اليوم، وهو بالتأكيد دور ليس له أيه علاقة بالمسيحية.

ولكن أكثرية الوشوم تحولت خلال القرون وأصبحت زينة معمولا بها إلى حدما في البوادي أكثر مما في المدن، ولدى النساء أكثر من

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الرجال، بحيث يوجد أقوام من البربر يمتنعون عنها، وآخرون يستعملونها على نطاق ضيق جدا، يتخلى فيه الرجال للنساء عن هذا النوع من الزينة. فالرسوم على الوجه تكون محتشمة وبسيطة، وتقع على الجبهة. وبالنسبة للنساء كثيرا ما تقع أيضا على الخدين وعلى الذقن وعلى الأنف في بعض الأحيان. وقد تُخط وشوم أخرى على الأذرع، والمعاصم، والأيدي، والسيقان، والكعوب، والأرجل، وعلى حلوق النساء. وقليلا جدا في غير هذه الأمكنة.

ويحسن التمييز بكامل الاستطاعة بين الوشوم التي تنجز في القبيلة على النساء اللواتي لهن مجموعة أشكال تراثية محصورة، وبين الوشوم التي هي من عمل المحترفين من أوربيين وتُرك وغَجرٍ Tziganes وغيرهم، يشتغلون بالمدن أو يقومون بجولات. إن لهؤلاء الناس مطامح فنية، ويستعملون في الغالب وشمات عصرية وغير إفريقية. أما النساء الأهالي اللواتي يجرين عمليات الوشم، فيوافقن أحيانا على إجراء بعض التجديد، ولكنهن في العادة يحافظن على التقاليد المحلية التي تفرض لمختلف أعضاء الجسم مجموعات مختلفة من الرسوم. وكما في باقي الزخرف البربري، فإن الوشمات الأكثر ورودا هي الأشكال الهندسية البسيطة جدا، كالنقط، والدوائر، والتشكيلات ذات الخطوط المستقيمة، والصلبان والزوايا الحادة، والمثلثات، والمعينات والأمشاط. من المحتمل أن يكون بعض هذه الرسوم قد استعير في البداية من عالم النباتات أو عالم الحيوانات. لكن، حتى النساء اللواتي ينجزن هذه الرسوم بصفة آلية، ويركبنها بطرق مختلفة، لا يعرفن شيئا عنها، وذلك لعمق التحريف والتغيير الذي لحق بها.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ثم إننا في هذا لا نجد أي علامة للتأريخ. وفي بعض الوشوم التونسية توهّم البعض وجود الشعار المسمّى بشعار «تانيت» Le signe de Tannit، الرمز البونيقي للآلهة. ولكن هذا كان وهما لاشك، لأن نجوما محبوسة في هلال يمكن أن توحي بأنها مستقاة من القرطاجيين، بينما لا يراها المرء إلا فيما ينجزه المحترفون. فهي على ما يظهر ذات أصل تركي. وختاما إذا كان القسم الكبير من الوشوم البربرية يرجع دون شك لتاريخ موغل في القدم، فإن هذا التاريخ – في الحالة الراهنة لمعلوماتنا – لا يستطاع التدليل عليه.

3

إن الليبيين كما هم على الآثار المصرية منذ عهد عهيد، وعلى الخصوص منذ النصف الثاني للألف الثانية ق.م، يُعْرَفون بإحدى الخاصيات في ترتيب شعرهم. فقد كانت لهم خصلة شعر طويلة وسميكة إلى حدما، أو لهم ضفيرة تنزل على الكتف، مارة أمام الأذن. وقليلا ما تمر فوقها أو خلفها. وحيث إن رسومهم جانبية، فلا يمكننا القول إن لهم خصلة أو ضفيرة واحدة فحسب، أو لهم الإثنان، بحيث تنزل الواحدة منهما على اليمين والأخرى على اليسار. ويمكن الاعتقاد بأن هذه الحالة الثانية هي التي كانت كثيرة الوقوع، لأن بعض الليبيين الذين نرى جانبهم الأيسر في الرسم، نجد لهم الخصلة، كما نجدها على الذين نرى جانبهم الأيمن. وأحيانا تتدلى الخصلتان من جانب واحد.

وعند المصريين في الأعصر التاريخية، فإن الضفيرة الجانبية الوحيدة، لم تكن تجعل إلا للأطفال – وقبل كل شيء للإله الطفل هَرْبُقْراط Harpocrate، فتكون لأمراء الأسر الملكية ولبعض الكهنة الذين هم من

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
درجة رفيعة. هذه على ما يحتمل من بقايا ممارسات كانت فيما مضى واسعة الانتشار. وكان الليبيون الشرقيون أشد تشبثا بها من جيرانهم أهل وادي النيل.

وليس لدينا – فيما يخص أعصر التاريخ القديم – أي برهان على أن الليبيين الغربيين قد اتخذوا هذه الممارسات. ولكن الأمر محتمل، لأن أراض البربر هذه، حيث اعتاد الناس ان يحلقوا رؤوسهم كشطا، نلاحظ فيها حتى اليوم وجود بعض العادات في الشعر، عادات تذكرنا بالخصلة وبالضفيرة الجانبية عند الأفارقة القدماء. وفي المغرب يحتفظ أهل «زايان» وأهل «زَمّور» بخصلة طويلة متموجة. الأولون يحتفظون بها فوق إحدى الأذنين، والآخرون من فوق الأذنين معا. والمتأنقون منهم يدهنونها ويضفرونها. والكثير من أهل البرابر Brâber وأهل «الريف» يحتفظون على الجانب الايمن لرأسهم، من فوق الأذن أو من ورائها، إما بخصلة شعر أشعث وإما بضفيرة تنزل حتى الكتف. بينما في بعض القبائل المغربية الأخرى، فإن الأطفال وحدهم، هم الذين لهم الخصلة أو الضفيرة الجانبية المدلاة. وتقص لهم وتنزع حين تبلغ أعمارهم حول السنة العاشرة. وعند الكثير من البربر، سواء في المغرب أو الجزائر أو تونس، فإن هذه الزائدة الشعرية تصير كأنها ذيل، وتشغل أعلى الرأس، لا جانبيه، ولشدة إسلامهم، فإنهم يزعمون أنها تمكن الملاك جبرائيل من أخذهم بكل سهولة إلى السماء يوم الحساب الأخير. ولربما أنهم إنما يتبعون نهجا قديما جدا، ثبت وجوده بجوار مصر منذ خمسة آلاف سنة.

في القرن الخامس ق.م ذكر هيرودُت كيفية ترتيب الشعر عند بعض القبائل بالسدرتين. فالماصِيون Maces كانوا يحافظون على عرف على صمة رأسهم ويحلقون الباقي حلقا كليا، والمخْلوس Machlyes كانوا

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يتركون شعرهم ينمو في مؤخرة الرأس، والأوْصِيون Les Auses يتركونه ينمو في مقدم الرأس، والمكسو Maxyes على الجانب الأيمن ويحلقون الجانب الأيسر. وقد استمر وجود طرائق مماثلة لهذه بشمال إفريقيا، ولا تزال موجودة بها حتى اليوم. ويخبرنا ترِتولْيانوس Tertullien أن بعض النوميديين يحلقون رؤوسهم حتى يصلوا للبشرة، باستثناء قمة الرأس، وفيها كانوا لاشك يعلقون ذيل الفرس الذي كان يدخل ضمن زينة الرأس عندهم. ولا يزال عرف الشعر هذا، يزين رؤوس الأطفال عند مختلف القبائل بالمغرب. أما الطوارق فيحتفظون بعرف يسير من الجبهة إلى القفا، وينظمونه على شكل ضفائر صغيرة معقودة جميعا، وباقي الرأس يحلق. ومن المغاربة من لا يَدَعون شعرهم ينمو إلا على الجانب الخلفي للرأس، أو على الجانب الأيسر منه.

أما النقود التي سُكّت في نوميديا وموريطانيا، من نهاية القرن الثالث إلى ما حول عهد الميلاد، فلم تكن تظهر عليها هذه الترتيبات الغريبة في الشعر. ففي بعضها تظهر الشعور قصيرة غير مجعدة، وطويلة مضطربة في بعض آخر. وأحيانا تنزل كثيفة على شكل قضبان، وأحيانا تكون معقوصة. وللملِكين سيفكْس Syphax ومَسنيسّا Masinissa خصل غزيرة ولكنها قصيرة. والتشبيكة الشعرية الوحيدة المثيرة للانتباه هي ما كان كأنه قلنسوة، تتكون حول قمة الرأس من خصلات متوازية على شكل حلزونات تمتد في خط واحد، أو يركب بعضها بعضا في عدة طبقات. وكانت هذه الطريقة الأخيرة هي تشبيكة شعر يوبا الأول، الذي كان سيسرْون Cicéron يمدح - بسخرية - شعره الجميل.

وتذكر نصوص أخرى أن الأهالي كانت لهم شعور طويلة، وأنهم لم يكونوا يكتفون بالعناية بها وتنظيفها. يقول سترابون Strabon «يبدي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الموروسيون حبهم للزينة في طريقتهم في ضفر شعورهم، والعناية بلحاهم، وفي الحلى التي يتحلون بها، واهتمامهم بتنظيف أسنانهم وقص أظافرهم، وهم حين يتفسحون، قليلا ما تراهم يقترب بعضهم من بعض خشية حدوث اصطدام يفسد انتظام شعورهم» أما سيليوس إيطاليكوس Silius Italicus فيقدم لنا رئيسا من المسيليين Massyles، ينزل شعره من قمة رأسه فيكون ضفائر. وهذا وصف مختصر يمكن انطباقه على التشبيكة الحلزونية المتقابلة. وكذلك الشأن بالنسبة للشعور المفتولة التي قال عنها مرسيال Martial إنها خاصية تميز الموريين.

على أن هذه التشبيكة المكونة من خصلات شعر ملولبة متقابلة ومتدرجة في الغالب، هي قديمة جدا عند أهالي إفريقيا. حيث إننا نراها على المآثر المصرية تصاحب الخصلة الطويلة أو الضفيرة النازلة عند الليبيين. ونجدها كذلك في سِرْنيكا (منطقة بَرْقة) الإغريقية منذ القرن الخامس ق.م، وعلى الخصوص في نحيتة تمثل ليبيا مشخصة ذاتيا، الأمر الذي يؤكد ذيوع هذه التشبيكة بين الأهالي. ففي نوميديا وبموريطانيا، وفي العالم الروماني كانت تعزى بسهولة إلى أفريكا Africa، وكانت هي تشبيكة شعر ديامورا Dea Maura، الإلهة الحامية لمدينة ثِفيسْت Theveste (تبسّة)، والذات المشخصة لأهل إفريقية، وغير ذلك. وفي بداية القرن الميلادي الثاني نجد فرسانا موريين منقوشين على عمود تْراجان Trajan ولهم شعور منظمة في خصلات ملولبة متدرجة، وتلك هي بالضبط التشبيكة التي كان الملك يوبا الأول يصفف بها شعره قبل ذلك التاريخ بقرن ونصف من الزمان. وكما تشهد بذلك الأمثلة التي سقناها من قبل فإنها كانت مستعملة عند النساء والرجال.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وفوق هذا، فإنها لم تكن مطلقا خاصة بأهل شمال إفريقيا. فهي لا تزال إلى اليوم حية عند أقوام بإفريقيا الشرقية والجنوبية من نوبيين وحبشية ودَناقِل وزولو وغيرهم.

وبالنسبة للأعصر القديمة، فإن هذه التشبيكة الشعرية قد ثبت وجودها بإسبانيا، ولكنها كانت منفصلة على الخصوص بالقارتين الإفريقية والأسيوية، أي في مصر، حيث كان الناس يستعملون غالبا شعرا مستعارا ليزيدوا تشكيل الخصلات الملولبة تعقيدا، وعند الأثيوبيين، على الأقل عند من تساعدهم شعورهم على ذلك. وأحيانا في سوريا. وأخيرا بالهند، بحيث إن بعض رؤوس تماثيل (باخوس الهندي) تكاد تعتبر صُوَراً ليوبا النوميدي.

هناك مثل مغربي يقول : إن الذقن المحلوق ليس ذقنا بربريا. وأحيانا يوجد أشخاص غير ملتحين - وفي سن الرجولية على ما يبدو - من بين الليبيين الذين قدمهم لنا الفن المصري. ولكن هؤلاء الرجال على العموم لهم لحى، وكذلك مسِنيسّا وسيفَكْس والمحاربون المرسومون على الأنصاب في بلاد القبائل الكبرى، والفرسان الموريون Maures الذين عملوا في داكيا Dacie تحت قيادة تْراجان. وغالبا ما تقص هذه اللحية على شكل سنان. وقد تحدّث سترابون ذاكرا العناية الكبيرة التي يوليها الموروسيون لها ولشعورهم، وذلك ما تؤكده نحائت عمود تراجان الذي ظهر فيه الموريون بلحى كثيرة التجعيد، وتؤكده كذلك عملات يوبا الأول التي تظهر فيها اللحية الملكية مشبكة في خصلات متوازية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

4

إن بعض المباني الأثرية المصرية – التي يرجع تاريخ أحدثها عهدا إلى نهاية الألف الثانية ق.م – تُرينا الليبيين الشرقيين، وأعضاؤهم التناسلية مستورة ومصونة في ظرف من جلد لاشك. ومن المحتمل أن غلاف القضيب Etui phallique كان مستعملا أيضا عند الأجداد الأقدمين للبربر. ويبدو أنه يظهر ممثلا ضمن النقوش الصخرية بالجنوب الوَهْراني. أما عن الحقبة التاريخية فليس لدينا أية إشارة ولا رسم. فيكون النوميديون والموريون قد تخلوا عنه.

وكان جلد الحيوان يشكل الملبس البسيط الذي لبسه الليبيون الغربيون وجيران وادي النيل. فبأحد النقوش الصخرية بناحية بِسْكرة، نرى عدة أشخاص متدثرين بهذه الطريقة، بحيث يبدو أن الجلد مربوط على الكتف اليسرى، ويغطي أعلى الصدر، ثم يرتمي على الكتف الأخرى لينزل على الظهر بطوله.

وبعد ذلك بزمن كثير، ذكر بعض الكتاب الإغريق واللاتانيين أن كثيرا من الأهالي قد حافظوا على هذه العادة التي هي مشتركة بين الرجال والنساء. وكانوا يستعملون إما جلود الحيوانات المتوحشة مثل الأسود، والنمور، والدببة، وتيوس الجبل. وإما جلود الحيوانات المتأنسة مثل الكباش، والماعز على الخصوص.

وكانوا يربطونها بمشبك كما يقول سْترابون، وبدون شك على أحد الكتفين. وكان لابد للجلود أن تحتفظ أكثر ما يمكن بوبرها أو بصوفها. ولكن ورد أيضا ذكر لملابس من الجلد المجهز. ويصف هيرودوت أردية النساء، المصنوعة من جلد الماعز الذي تزال عنه أوباره، وتجعل له

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الحواشي بجوانبه ويصبغ عادة بالأحمر. وهذا يذكرنا بالفيلالي Filali، الذي هو جلد الماعز المصبوغ عموما بهذا اللون، ونسميه نحن باسم المروكان (المغربي) شهادة له بأصله الإفريقي.

ومن الناس من لم يكن بؤسهم بالغا، فعوضوا عن هذه الجلود بنسيج من الصوف. وكان بعض الرؤساء يعيشون في ليبيا الشرقية، بين القرن الرابع عشر والقرن الثاني عشر، ويدثرون برداء طويل، مربوط إما على الكتف اليسرى وإما على اليمنى، وينفتح من أمامه كلية، كما يترك الذراعين عاريتين. هذه القطعة من الثوب التي كان النساء أيضا يرتدينها، كانت مزينة بتطريزات مبرقشة، تمثل وشمات نباتية. ويحتمل أنها لم تكن من صنع ليبي. ولربما أن عادة استعمال الرداء الصوفي بأرض البربر لم تدخل إليها إلا في عهد متأخر جدا. وعلى كل فإن عددا من الأهالي اتخذوا هذا الرداء في عهد الحروب البونيقية، وبقي اللباس مع ذلك بسيطا جدا، حتى عند ذوي المرتبة العالية. وعلى قطعة من نقود سيفَكْس Syphax نشاهد على ظهر فارس رداء، هو نوع من الخلميد Chlamyda الرداء الذي يخفق مع الريح. وبُمْبونْيوس مِيلاَ Pomponius Méla ينقل عن أحد الكتاب المتقدمين على عهد الميلاد، ويقول : «مطلق الرجال في الداخل يتدثرون بجلود الحيوانات المتوحشة أو الأليفة، ولكن الرؤساء يدثرون بالأردية». (وقد استعمل الكاتب مِيلاَ هنا لفظة Sagum التي تحولت إلى : Saie رداء). وفي القرن الرابع للميلاد كان هذا اللباس أكثر انتشارا. ونقرأ عند بركبيوس قوله : أيا ما كان الفصل الزماني، فإن الأهالي يرتدون رداء سميكا. أما كوربوس Corippus وهو شاعر من نفس العهد، فيحدّث عن الغطاء الخشن (horrida stragula) الذي كان الموريون يتدثرون به.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ومن الراجح أن هذه الأردية كان لها طابع مميز مشترك هو أن تكون من صوف، وأن تكون قطعة واحدة تحتفظ بالشكل الرباعي المستطيل الذي اكتسبته من نول النساج، أي أن تكون ثوباً يلفّ على الجسد وليس له أكمام.

وبدون شك كان هناك تعدد في الأشكال والأنواع على حسب البلدان، وعلى حسب المراتب الاجتماعية. كما أن نقشا لاتانيا، هو عبارة عن تسعيرة للمُكوس من عهد سيبْتموس سِيفَروس Septime Sévère، يذكر أردية إفريقية مختلفة، من جملتها Iodices (أَغطية).

ومن جملتها أيضا Saga purpur (e) (أردية الأرجوان) بحيث إن هذه الأردية الأرجوانية قد كانت آنذاك بضاعة معتادة. وعند الحديث عن أزمنة سابقة، ذُكرت أردية الأرجوان التي كانت ملابس ملكية، وشعارات للقيادة العليا، وملابس للرفاهية. وفي القرون الميلادية الأولى وكذلك حتى في العهد البيزنطي، كانت تولية الرؤساء الأهالي تتم بإعطائهم رداء أبيض مشدودا – كما يقول بْروكُبْيوس Procope – على الكتف اليمنى بمشد ذهبي كما هو الشأن في الخَلْميد الثيسالية Chlamide Thessalienne.

كما كان هذا لباسا للأبّهة، غير أن طريقة شد الأغطية العادية، كانت هي هي نفسها على ما يبدو، فمزية هذه الطريقة هي أنها كانت تترك الساعد الأيمن في كامل الحرية، كما أن الساگوم Sagum عند الجنود الرومانيين كان يثبت بهذه الطريقة. وعلى النقيض من ذلك الغطاء الأسود عند الأسبانيين، فقد كان يشد إلى أعلى الصدر، ويغطي الكتفين نتيجة لذلك.

وكذلك الشأن اليوم في السلْهام أو البرْنوس، أي برنوس الأهالي بشمال إفريقيا، مع اختلاف هو أن الغطاء الأسباني Saie كان يثبت

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

بواسطة مشبك متحرك، بينما البرنوس يثبته التخييط. ولكن، هل كان البربر حوالي عهد الميلاد يلبسون هذا الرداء الفضفاض، الذي هو من صوف أبيض، وقليلا ما يكون ملوناً، والذي يُرمى بأحد جناحَيْه على الكتف، وله غطاء للرأس ؟ إننا نجهل ذلك. على أن القول بأن لفظ برنوس مشتق من اللاتاني بيروس Birrus (أو بوروس Burrus) قول يبدو مقبولا جدا، غير أن هذا لا يؤكد حتما أن البرنوس مأخوذ عن اللاتانيين. فالرداء المسمى بيروس Birrus، الذي كان في العهد الإمبراطوري الروماني مستعملا في الولايات الإفريقية كما في غيرها، قد كان - وفي الأصل على الأقل - لونه أصهب، لأن اسمه مأخوذ من الإغريقي Ttuppo"s أي بوروس : أصهب. ولسنا ندري هل كان الشأن كذلك في أول الأمر بالنسبة للبرنوس. ومنذ أربعة قرون كان لفظ برنوس يطلق خصوصا على الأردية السوداء لليهود.

وبدون شك، فإن عهود التاريخ القديم قد كان بها أردية تُلبس من غير أن تُشدّ مطلقا، فكانت تحجز تحت أحد الإبطين، وبعدما تلف البدن بدقة، ترمى على أحد الكتفين. هذه الملابس كان الأنسب أن يطلق عليها لفظان هما Lodix و Stagula المستعملان في بعض النصوص الإفريقية وكما يقول كوريبوس هي أكسية تتدلى ملازمة الأعضاء ونازلة عن الكتفين.

وكان جلد الحيوان أو الرداء يمكن أن يكون اللباس الوحيد تارة، أو اللباس الفوقي تارة. فالليبيون المرسومون على المآثر المصرية، ليس لهم تحت أكسيتهم سوى غلاف القضيب التناسلي، أو شملة Pagne (هي من ضمن ما يلبسه النساء وما يلبسه الرجال). والرومانيون أنفسهم قبل أن يتخذوا الشملة، اكتفوا أمدا طويلا بسروال صغير يتسترون به تحت

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
لباس الطاق Toge. ولا يفرض طقس إفريقيا جلد الحيوان أو الرداء طوال السنة كلها. فالرجال والنساء الممثلون في الرسوم الصخرية يبدون عادة مجرين عن هذه الجلود والأردية. وبقدر ما تسمح لنا خشونة هذه الرسوم بإصدار حكم، فإنهم يبدون عراة تماما، أو لابسين لباسا خفيفا جدا، أي حزاما ومئزرا مشدودا على الوَرِكَيْن، أو يبدو أحيانا أنه يصعد حتى الإبطين بل ولربما أنه رداء قصير.

إن عادة استعمال الرداء أصبحت عامة في الأزمنة المتقدمة على عهد الميلاد. فهيرودُت يذكر أن الليبين، كان لهم تحت أرديتهم الجلدية لباس آخر. وترينا قطعة من نقود سيفَكْس فارساً يلبس رداء تحت جلد حيوان أو تحت كساء. وذلك ما تؤكده شهادات هي أحدث عهدا. وبالطبع فإن الرداء يمكن أن يبدو كافيا في الدار أو حتى خارجها إذا كانت حالة الطقس أو الأعمال المزاولة تجعل اللباس الفوقي عديم الجدوى أو يحدث مضايقة. والفرسان الموريون الذين يقدمهم لنا عمود تْراجان Trajan وهم يقومون بإحدى الحملات، لا يرتدون سوى الرداء.

وعلى غرار الشملات فإن الأردية كان لابد لها أن تكون من الصوف، المادة التي يمكن الحصول عليها بسهولة في كل مكان، والتي كان لها دائما الأفضلية في اللباس البربري. وليس لدينا برهان على أن النوميديين والموريين زرعوا الكتان.

وقد كانت الأردية عريضة، ولكن قصيرة، بحيث لا تنزل إلى أسفل من الفخد. ولم تكن لها أكمام. وليس صحيحا أنها كانت من طراز وحيد. فالتي نشاهدها على عمود تراجان، تظهر وكأنها مصنوعة من قطعتين، إحداهما للظهر والأخرى للصدر، خيطتا في جانبهما الأسفل تحت كل

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

إبط، ويبقى الإبط عاريا، وتتصل القطعتان فوق الكتف اليمني بواسطة مشبك على ما يحتمل، ولاشك أن الأمر كان كذلك على الكتف الأخرى التي لا تظهر في الرسوم، وكان اللباس يمر من الرأس كالقميص.

وتذكر عدة نصوص أنه كان يلبس دون حزام. ولكن نقود سيفَكْس وعمود تْراجان تبرهن مع ذلك على أن الأمر لم يكن دائما كذلك. فهي تقدم أردية مشدودة على البدن بحبل أو بحزام. وعلى عمود تراجان نشاهد الثوب منتفخا فوق هذا الحزام، الذي أدخل فيه أسفل الثوب – على الأقل من جانب واحد – بحيث تبقى الفخذ عارية. ويقول سترابون إن الأردية المورية كان عليها شريط عريض. وكان الشريط متميزا بلونه طبعا، ونجهل كيف كان الشريط موضوعا عليها، وربما أنه كان عموديا ومن أمام. وفي القرن السادس كان لبعض الأهالي أردية حمراء، مزينة بألوان مختلفة، أي بتطريزات مرقشة لاشك. وكان الرداء الأبيض، المزين بالتطريزات هو الذي يناله الرؤساء مع إشارات أخرى ينالونها بمناسبة توليتهم أيام كانت رومة، والونداليون وأيام كان أباطرة القسطنطينية سادة على إفريقيا.

ويمكن مقارنة رداء النوميديين والموريين بالـگَنْدورة La gandoura وهي قميص بلا أكمام، وتكون من صوف أو من قطن، ولا يزال الكثير من ذريتهم يرتدونها حتى اليوم ولكننا لم نعثر على أية إشارة أكيدة عن الحايك Haïk، الذي هو أيضا واسع الانتشار بأرض البربر (غالبا ما يطلق عليه اسم الكْسا Ksa، أي الملبس المعتبر) وهو قطعة نسيج رباعية مستطيلة الشكل، من صوف وليس بها خياطة، طولها متراوح بين 3.50 و4 أمتار، وعرضها بين متر واحد و1.30 ، وعلى العموم يلبس على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

البشرة نفسها، وذلك بأن يشتمل به فيحيط بالبدن مرتين، وعادة ما يغطي الرأس أيضا، ويثبت دون مشبك مثل الهيماتيون Himation عند الإغريق ومثل الطاق Toge الروماني. أما أصل الحايك وتاريخ اتخاذ البربر له، فذلك لا يزال غامضا(6).

ولا نعرف شيئًا عن لباس – أو رداء – النساء الليبيات. ولكن من المحتمل أن طريقتين اثنتين، مستعملتين في أيامنا هذه عند عدة من القبائل، من المحتمل أن ترجعا إلى عهود بعيدة، إذ نجدهما عند شعوب أخرى من شعوب التاريخ القديم، وعند الإغريق على الخصوص. ويتعلق الأمر تارة بقطعة وحيدة من الثوب، ذات شكل رباعي مستطيل، مصبوغة غالبا بالأزرق أو الأحمر، تنعطف عموديا على طول أحد جانبي البدن، وتكون لها في الأعلى فتحة لمرور الذراع، بينما على طول الجانب الآخر يلتقي الطرفان من غير خياطة بينهما. ويثبت اللباس على الكتفين بِمشبكين، ويبقى الذراعان عاريين. ويقوم بشدّ اللباس حزام أو حبل أو حاشية من جلد أو شريط من الصوف الذي يحافظ في الجهة المفتوحة على تماسك الطرفين عند الموركين على الأقل، لأن البدن عندما يرى من الجانب، وعلى الخصوص عندما يتحرك في السير، فإن الكشح والفخذ يبدوان عاريين بقدر كبير.

وتارة أخرى – وهذه الحالة أكثر حدوثا – يتكون اللباس من قطعتين رباعيتين مستطيلتين. إحداهما من أمام والأخرى من الخلف. وفي الأعلى تحيط هذه الخلفية بالقفا ويمر طرفاها على الكتفين وفوق العضدين ثم ينزلان على القطعة الأمامية أطول مما يتطلبه قوام المرأة، فيثنى الطرف الأعلى ويعطف على الصدر، على غرار البِبْلوس Peplos

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

عند الدوريين الإغريق. وعند الوركين يشد حزام على القطعتين اللتين تنتفخان من فوقه. ولا ينزل اللباس حتى القدمين، بل يقف عادة عند منتصف الساقين[7]. واليوم يتعمل في صنع هذه الأردية القطن أكثر مما يستعمل الصوف، ولا شك أن هذا التغيير حديث نسبيا.

إن أكثر الناس في البوادي بالمغرب يتركون رؤوسهم عارية. أما في تونس والجزائر فتغطية الرأس أمر لازم. ولكنها ليست قديمة جدا. ذلك أن أهل القبائل Kabyles الذين يغطون رؤوسهم اليوم بالشاشية في أراضيهم على الأقل، لم يكونوا يغطونها إبان الفتح الفرنسي. ومنذ خمسة قرون قال المؤرخ ابن خلدون عن البربر: «في الغالب يسيرون ورؤوسهم عارية». وقد كان هذه هي عادة أجدادهم، كما تدل على ذلك بعض الصور. ومن بينهما نقود سيفَكْس، والأنصاب التي عثر عليها في أرض القبائل Kabylie، والنقوش البارزة التي بعمود تراجان وتمثل الموريين. ويقول سيسرون Cicéron : «لا المطر ولا البرد بقادرين على جعل مسِنيسّا يغطي رأسه».

في الرسوم الصخرية بجنوب وَهْران يبدو أناس وعلى رؤوسهم تيجان من الريش، كما يبدو شخص آخر وكأنه يتزين بريشتين قائمتين. وكثيرا ما ترينا الآثار المصرية بعض الرؤساء الليبيين، وقد أثبتوا في شعر رؤوسهم اثنتين من ريش النعام (أحيانا ريشة واحدة، أو ثلاث) كشعار لفخامتهم. وقد استمرت هذه الزينة أمدا طويلا. فحسب شهادة ديِون كْريسوسْتوم Dion Chrysostome كان النَّصَمونيون Nasamons يثبتون الريش على رؤوسهم، وهي عادة اقتبسها منهم - لاشك - الگَرَمَنْطيون Garamantes الذين كانوا يعيشون في قلب الصحراء، عند الجنوب الغربي لأرض النصمونيين، ويشير تِرْتولْيانوس إلى الريش الذي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
يُعرفون به. وفي القرن السادس أطلق كوريبوس Corippus صفة Pinnatus أي Emplumé، أي «مَريش» على الكثير من رؤساء البربر، ويبين بوضوح أن ذلك علامة تميز ذوي المزايا عن عامة الناس. والحق أننا لا ندري هل هذه الشارة كانت بريشة واحدة أو بريشتين منتصبتين، أو بقنزعة كثيفة، بل نجهل هل كانت من ريش الطير حقيقة، ولم تكن تقليدا، لأن السردانيين Sardes كانوا قبل ذلك ببضعة قرون يتخذون ريشات من ذهب وفضة، وقد عثر على بعض منها في المدافن.

في عهد كوريبوس أقلع بعض الأهالي عن السير برأس عار، واتخذوا غطاء للرأس، سماه الشاعر باسم «بالا» Palla، وهو عبارة عن قطعة ثوب من الكتان، تغطي الرأس وتحيط به ملتفة، وتمسكها عقدة شديدة. وذلك هو مالا يمكّننا من معرفة ما كانت عليه حقيقة. أي هل كانت موضوعة على شكل عمامة، أو كان رباطها متكونا من حبل مستقل عن الثوب وملتويا حولها، أو كان الرباط عقدة من هذا الثوب تعقد تحت الذقن أو في مكان آخر.

وبعض الأهالي كانوا يلبسون رؤوسهم القلنسوات. فعلى نَحيتَةٍ من عهد متأخر (القرن الرابع ؟)، أخذت من ضريح غِرْزة Ghirza بمقاطعة طرابلس وحملت إلى القسْطنْطينية، نشاهد شخصين على رأسيهما قلنسوتان بشكل مخروطي، يحتمل أنه متوارث عن الفينيقيين[8]. ويذكر بروكوبيوس أن من بين الشارات التي تسلم إلى رؤساء القبائل عند تنصيبهم، طاقيات من الفضة. ولم تكن تغطي كل الرأس، ولكن شرائط صغيرة، من الفضة كذلك كانت تثبتها من كل جانب، وكأنها تاج. فهذا إذن لم يكن غطاء للرأس عملي الاعتياد. وليس لدينا أي برهان على أن عهود التاريخ القديم قد استعملت فيها هذه القبعات ذات الجوانب

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

العريضة، المصنوعة من ألياف الدوم المضفورة، والتي تستعمل اليوم للتوقي من وهج شمس الصيف.

وعلى أثر مصري يرجع لأواخر الألف الثانية، نشاهد ليبيَّةً وقد غطت رأسها بطاقية صغيرة مستديرة، بينما الليبيون الشرقيون في نفس العهد كانت رؤوسهم عارية. وليس لدينا معلومات عن أغطية الرؤوس التي كانت تلبسها النساء النوميديات والموريات إن كن يلبسنها.

والطوارق – الرجال لا النساء – يغطون وجوههم، ما عدا الأعين، بنقاب أسود أو أزرق غامق، هو اللثام Litam عندهم. والراجح أن هناك خطأ في اعتبار هذا النقاب وسيلة لصون الأعين عن الإشعاع، وصون مسالك التنفس عن غبار الرمل. إن الأمر لاشك يتعلق – أو كان فيما مضى يتعلق – بوقاية المنخرين والفم (أبواب النفس أي الروح) من التأثيرات السيئة. ونحن نعلم أن اللثام كان مستعملا عند برابرة الصحراء في القرن الحادي عشر للميلاد، حين خرج المرابطون، هؤلاء المحاربون الملثمون، وغادروا الصحراء في زحفهم على أرض المغارب. فهل نقل أجدادهم اللثام من أرض البربر ؟ ذلك ما يستحيل قوله. وعلى كل حال فإن اللثام لم يُذكر ولم يُرسم في أي مكان في عهود التاريخ القديم. وفي الصحراء، عدا الطوارق، فإن التيبو Tibbou وهم من السود، من الأثيوبيين يتنقبون. فهل اقتبسوا الثام عن البربر؟ أو هم أعطوه لهم ؟

كثير من الأهالي يسيرون حتى اليوم حفاة الأقدام. وكثيرا غيرهم لم يتخذوا النعال الأوربية Sandales أو الأحذية الأوربية Souliers كذلك إلا حديثا. أما الأحذية البربرية حقيقة، فهي في الغالب بسيطة جدا. تتكون من نعل مستطيل تقريبا، زواياه منتصبة، قد أثبتت فيها سُيور تتقاطع

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
فيما بينها، ثم تعقد عند الكعبين. فهي قطعة من جلد الثور او الماعز تغلق القدم، ويكون شعرها للخارج وتثبت بالسور.

والموريون الذين على عمود تراجان، هم حفاة، ولكن النعال للفرسان يمكن أن تبدو وكأنها زائدة. والأفارقة الذين وَصَفَ لباسَهم كوريبوس باختصار، لهم تحت مشط القدم نعل من جلد خشن. كما أن نصا آخر أقدم من الأول بكثير يذكر أن الليبيين لهم نعال من جلد الماعز. أما الأحذية المذهبة التي كان الرؤساء في القرون الأولى للميلاد ينالونها عند تنصيبهم، فإنها كانت طبعا أشياء من الكماليات.

في البوادي، كان الناس رجالا ونساء يتقون الأفاعي والنباتات الشائكة بإحاطة سيقانهم بقطعة من جلد تثبت من أمام بإبزيم، أو بلبس حبائك الصوف[9]. ويحدثنا استْرابون أن الفلاحين الماسيسيليين كانوا يستعملون للشغل ما سماه باسم كْنيميد Cnémides ويحتمل أنه الران Guêtres أي غطاء الساق من جلد أو شعر. وفي هيكل هَدْرِيان Hadrien برومة رسم لعشيرة إفريقية تلبس أيضا الرانات التي تثبتها السيور.

أما أدوات التزيين التي كانت في الأصل، ولا تزال في الغالب، تمائم وجالبات للحظ، فيقع العثور عليها بكثرة في مواقع ما قبل التاريخ، مثل بقايا القلادات المصنوعة من أقراص ومن قطع أخرى من قشور بيض النعام، وأقراط مكونة من القواقع، ومن الأحجار، وأسنان الخنزير ومن قطع من قشرة السلحفاة. والأشخاص الماثلة رسومهم على الصخور، لهم على ما يبدو قلائد في أعناقهم وأسورة في الأذرع. وبعد ذلك فإن المدافن الأهلية من دُلْمينات ورجام Tumulus ضمّت موتى متزينين بزينات مماثلة لزينات أجدادهم من عهد الحجارة، وأحيانا يضاف لذلك زينات من قطع الزجاج البسيط، وأدوات أخرى للزينة لم

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
تبق مع الزمان لاشك لأنها كانت من جلد. فهيرودت يحكي أن الجَنْدانيين Gindanes بنواحي سَدْرة، كان نساؤهم يجعلن حلقات الجلد في كعوبهن، ويضيف أن هذا العمل كان لهن علامات تذكّر كلَّ واحدة منها بمغامرة غرامية.

ولكن كانت هناك أيضا الحلى المعدنية. بحيث أن الحلى التي كان النساء الليبيات من رعايا قرطاجة يملكنها، وأعطينها في أواسط القرن الثالث ق م لمساعدة جيوش ثائرة، قد كانت بدون شك حلى من مادة ثمينة، من ذهب أو فضة. ويشير سْترابون إلى حب الموريين للحلي الذهبية. ولا تضم المدافن الأهلية ذهبا، كما أن الفضة فيها بالغة في القلة، الأمر الذي يمكن تفسيره إما بفقر الموتى، وإما بطبيعة الاقتصاد لدى الأحياء، وإما حبا من هؤلاء في عدم إغراء السارقين. والحلي التي نجمعها هي من الحديد أو النحاس أو البرنز، والتحليلات القليلة التي أجريت عليها قد أوضحت فعلا أنه تارة نحاس خالص تقريبا، وتارة أنه برنز خليط من النحاس والقصدير.

والرجال كالنساء لم يكونوا يستنكفون من التزين بالحلي. وقد رأينا من قبل أن الموريين كانوا يحبون التزين بالحلي. وكان الأهالي على غرار القرطاجيين يستعملون الأقراط في أذانهم. وهي عادة قديمة جدا، نراها على رسوم الليبيين الشرقيين في الألف الثانية، واستمرت حية هنا وهناك إلى أيامنا. ولما انتصر مَرْيوس، حمل يوغرطة إلى السجن الذي مات فيه، ويقول بلوتارك Plutarque عن ذلك : «... فبعضهم مزقوا له رداءه، والآخرون نزعوا له شحمة أذنه مع القرط الذهبي الذي كان معلقا بها». والكاتب الإغريقي يتحدث هنا عن قرط واحد، لا عن اثنين. ولعل

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
لذلك سببا هو أن كثيرا من الأفارقة في العهود القديمة - واليوم - كانوا يكتفون بقرط واحد يكون عادة في الأذن اليمنى.

أما الحلى العادية التي مكّنتنا منها المدافن المؤرخة بالقرون الأخيرة قبل الميلا والقرون الأولى بعده، فهي الأسورة، والخلاخيل Anneaux de pied، والخواتم، والأقراط، وبقايا القلائد. فالأسورة والخلاخيل والخواتم تكون قصباتها إما أسطوانية وإما مسطحة وتتكون منها دائرة كاملة (أي أن طرفي القصبة المثنية يتصلان ملتحمتين)، أو تتكون منها في الغالب دوائر مفتحة. وغالبا ما يطول الطرفان ويمتدان إلى حدما خارج الدائرة، ويسايرانها (يعرف هذا الشكل باسم جالب الحظ)، بل غالبا ما تراكب عدة من الدوائر على شكل إهليليجي. كما أن كويرات (لآليء) وإهليليجات صغيرة من النحاس قد كانت جزءاً من القلادات. وكذلك، فإن أهلّة غليظة من وسطها ورقيقة الأطراف، هي أشناف (أقراط) للآذان.

كثير من النساء البربريات يمسكن ملابسهن بإبزيمات، أو على الأصح بمشابك Broches حلقية الشكل، ومزودة بلسان طويل. وهذا النوع مشبك كان مستعملا في إسبانيا في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وليس لدينا برهان على أنه كان معروفا بشمال إفريقيا منذ ذلك الزمان، لكن نظرا لقرب المنطقتين فإن الأمر يبدو قريبا من الصحة.

This document is c

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الفصل الثاني

الأسلحة والآثـاث

1

كان سلاح الأهـالي يسـتجيب لضـرورتين، هـمـا الصـيد والـحـرب. وبصفة عامة، فإن وسائل الهجوم والدفاع كانت في البداية ولا تزال هي نفس الوسائل ضد الحيوان وضد الإنسان.

وللهجوم استُعملت في كل زمان أسلحة المبارزة التي يحتفظ بها في اليد، وأسلحة القذف التي ترمي إلى حدما من بعيد على العدو.

وأكثر أسلحة المبارزة بساطة هي الهراوة والعصا. وبالتأكيد فإن الليبيين الشرقيين والغربيين استخدموا الهراوة منذ عهد بعيد جدا. ولا يزال الكثير من البربر يستخدمونها استخداما مخيفا.

وقد وقع الانتباه لاشك من عهد باكر إلى أن الهراوات العريضة الرؤوس كانت أكثر نجاعة في تكسير الرؤوس، فتحولت العصا إلى دبّوس، ثم صارت حربة أو مزراقاً بجعل الرأس حادا ثم صلبا بالنار.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ومنذ العهد الحجري القديم وُجدت الحراب المصنوعة من قطعتين هما القناة من عود، والقرنة التي هي حجرة مقطوعة لها سيلان تشد منه إلى القناة. ثم اختفى السيلان عقب ذلك. ولكن لاشك أن قسما من قرنات حجر الظر - التي عثر عليها في مواقع أحدث عهدا - قد كانت مثبتة في أنصبة من عود. وبعد ذلك، في الألف الأولى قبل الميلاد، اتخذت قرنات (أسنة) الحديد.

إن الرمح ذات القناة القوية جدا، والتي تتمسك بها اليد، قد مكثت سلاحا ضروريا للصيد. بهذا مثلا كانت تجرى المبارزة مع الخنزير. أما في الحرب، فكانت تستعمل على قلة أثناء القرون السابقة لعهد الميلاد، وكذلك أثناء التالية له، لأن الأهالي كانوا يتحاشون المجابهة جسما لجسم. وفي ضريح قريب من سرْتا، أقيم حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد بالمكان المعروف اليوم باسم الخْروب Kharoub، عثر بقايا رماح، عددها أربعة على ما يبدو. ويجب القول بأن الأسلحة التي وضعت بقبر هذا الأمير قد كان أغلبها من أصل أجنبي. غير أن السنان الحديدي الذي عثر عليه بالمغرب الشرقي، والأنصاب التي عليها كتابة ليبية ورسوم لمحاربين يحملون الرماح، إن كل هذا يبرهن على أن هذا السلاح (الرمح) لم يتخل عنه لا النوميديون ولا الموريون، وكذلك الأمر بالنسبة لنقش غائر Bas - relief، ببلاد القبائل Kabylie، خشن الصنع، وعليه رسوم مماثلة ومصحوبة بتكريس باللغة اللاتانية لأحد الآلهة، الذي هو مسِنيسّا، وقد نال التأليه على ما يحتمل. وعدا هذا، فإذا كانت القصيدة اليوحانية Yohannide، وهي ملحمة كتبها الإفريقي كوريبوس Corippus في العهد البيزنطي، تضم عدة إشارات للحِراب التي يمسك بها الأهالي بين أيديهم، فإننا لا نعثر بها إلا على إشارة واحدة للرماح، وإن كانت إشارة غير أكيدة مع ذلك.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
في خرائب رومانية مختلفة بالقطرين التونسي والجزائري، وقع العثور على عدة أدوات من البرنز، ولها شكل رباعي مستطيل. ومعدل طولها 13 سنتمترا، وعرضها تسعة سنتمترات، كما أن سُمكها يبلغ خمسة سنتمترات. وهي مفرغة من الداخل، وكأنها صندوقة أو غلاف يدخل فيه نصاب عريض. وعلى الوجهين الخارجيين لهذه الأدوات عدة مواخز، وكثيرا ما قيل إنها رؤوس للدبابيس، استعملتها جيوش أجنبية، أو استعملها الأهالي[10]. ولكن لم يتأكد مطلقا أنها أسلحة. وحتى إذا كانت دبابيس، فإن العهد المتأخر نسبيا الذي ظهرت فيه هذه الأدوات، يمكن أن يدفع إلى الشك في أننا أمام أسلحة إفريقية على وجه التحقيق.

أهل العهد الحجري الجديد، عرفوا في بلاد البربر، كما في غيرها من الجهات، الفؤوسَ الحجريةَ المصقولة المركبة على نصاب. وتوجد إحدى هذه الأدوات مرسومة بوضوح في رسم صخري بالجنوب الوهْراني. لكن في العهد التاريخي فإن الفأس ذات الحد المعدني القاطع، لا توجد ضمن أسلحة الأهالي، اللهم إلا إذا اعتبرنا بيتين شِعْريين لسِيلْيوس إيطاليكوس Silius Italicus يذكران الفأس ذات الجانحتين Bipenne.

منذ أقدم الأزمة، كان الرجال الذين يخوضون المعارك ضد الحيوانات أو ضد غيرهم من الرجال يستعملون أسلحة حجرية تضرب برأسها بشدة، وهي أسلحة تحملها اليد المباشرة أو تركّب على نصاب قصير جدا. أما ذريتهم فاتخذوا الخناجر أو السكاكين ذات الشفرات الحديدة التي تصلح للحرب كما تصلح للصيد. بل عادة ما كان هذا هو سلاحهم الوحيد في القتال عن قرب – وهو ما سبق أن قلنا عنه إنهم لا يفعلونه عن رضى – كما كان سلاحهم على الخصوص للإجهاز على عدوّ

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مغلوب. أما سكين الليبيين الرحّل فقد ذكرها هيلانيكوس Hellanicos في القرن الخامس، كما ذكر سْترابون سكّين الفُرسان الموريين. على أنهم لم يكونوا جميعا يحملون السكاكين، فالفرسان الممثَّلون على عمود تْراجان ليس لهم سكاكين. وفي القرن السادس كان الأهالي يحملون سلاحا سماه كوريبوس باسم Gladius أي النصل، وكان يدخل في غمد ولا يشد على الجانب، وإنما كان يعلق في حلقة لاشك أنها من جلد وتدخل فيها الذراع. ومرة أخرى فإن الطوارق يحملون الخنجر على هذه الصفة. وبالطبع فإن النصل الذي يتحدث عنه كوريبوس لا يمكن أن يكون سيفا، لأن تعليقه بهذا المكان يكون متعبا جدا، فهو إذن خنجر أو سكين.

ولم يكن السيف الحقيقي سلاحا إفريقيا. وعلى قول ديودور الصقلي أن الليبيين الذين كانوا يسكنون الصحراء بين مصر والسدرتَيْن لم تكن لهم سيوف. وهناك حكاية مشكوك فيه جدا، رواها تيت ليف، ولكنها تبرهن على الأقل بأن السيف لم يكن من الأسلحة المعتادة عند الفرسان النوميديين في عهد الحروب البونيقية. كما أن كْلوديان Claudien يؤكد بعد ذلك بخمسة قرون أن الأهالي لا يحملون سيوفا.

ومع ذلك فإن البعض منهم قلد الأجانب فاتخذ هذا السلاح. فالأدِرْماشيون Adyrmachides الليبيون الذين كانوا يعيشون خارج بلاد البربر، بعيدا عن سرنيكا (بَرْقة) كانوا على قول سيليوس إيطاليكوس يستخدمون سيفا محدبّاً، أي ياطغان Yatagan، يمكن الافتراض بأن أصله إغريقي. وقد انتشر هذا السيف في جنوب أسبانيا أيضا. ولكن ليس لنا داع للاعتقاد بأن الموريين والنوميديين قد استخدموه. ومع ذلك فإن الحُسام لدى هذين الشعبين قد كان يستعمله بعض الرؤساء. وقد عثر على واحد بين الأسلحة الموضوعة بجانب بقايا أحد الأمراء في

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
مدفن الخروّب. وهو سيف قصير جداً، صالح للضرب به بالشفرة وبالجلد، شبيه بالمنصل Glaive المستقيم، العريض، الحادّ الرأس الذي كان الأسبانيون يستخدمونه، واقتبسه منهم الرومانيون عند نهاية القرن الثالث أو في بداية القرن الثاني. لهذا فإن منصل الخرّوب أمكن استجلابه إما من الهضبة الإيبيرية وإما من إيطاليا. ومثل ذلك يقال عن المنصل الذي شهره يوغَرْطة في إحدى المعارك، وقتل به بعض الأعداء وتباهى بأنه قتل مَرْيوس، وبالطبع فإن الأمر هنا لا يتعلق بخنجر أو سكين، إذ نعلم أن الملك النوميدي، كان في شبابه قد حارب في أسبانيا بجانب الجيوش الرومانية، فلربما أنه بدأ آنذاك في استخدام المنصل الإسباني.

ولكن بعد ذلك بكثير، أي في القرن الميلادي السادس، نجد عند الأهالي السيف مستعملا على نطاق واسع. فهناك نصوص من بْروكبْيوس ومن كوريبوس تَذْكُر Enses، التي يبدو في الواقع أنها تعني سيوفا حقيقية، ولا تعني الخناجر التي تعلق في الذراع، والتي لا يناسبها الإسمان السابقان. فبسيْف عَضْب يَضرب بالحد وبالشفرة، على قول كوريبوس، شق الزعيم الموري أنْطَلاس Antalas عدوّه شقّين، وخرق أبدان ثلاثة آخرين. وللطوارق، زيادة على مزاريقهم وخناجرهم، سيف على شكل صليب شفرته المستقيمة توقع الضربان بحدها. فهل نرى في هذه الشفرة إرثا عن عهود التاريخ القديم ؟ إني أميل للقول بأنها سلاح من أسلحة العصور الوسطى، انتقل على ما يحتمل من إسبانيا في القرن الميلادي الحادي عشر على يد المرابطين المحاربين الصحراويين الملثمين.

ولننظر الآن في أسلحة القذف. كثيرا ما يقع العثور في مواقع ما قبل التاريخ على أحجار تناولها العمل فجعل لها جوانب قاطعة أو ذات

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

شظايا، بحيث تستخدم للقذف. ومن المسلّم به - فوق هذا - أن الأحجار قد استخدمت أيضا على خشونتها من دون أن تتناولها الصناعة. وفي العهود التاريخية كان يتم التراشق بالأحجار بشدة في المعارك الشعائرية. ويرينا ديودور الصقلي بعض الليبيين من سكان الصحراء الشرقية، وقد ذهبوا في إحدى الحملات، وهم يحملون مزاريقهم، كما يحملون كيسا من الجلد مليء بالأحجار. ويضيف هذا الكاتب قائلا إنهم يرمون هذه الأحجار بكثير من المهارة. أما كوريبوس فيتحدث عن «الأحجار المرعبة» التي يرميها أهالي سَدْرة الكبرى «وكأنها الصواعق».

هذه النصوص لا تشير إلى استعمال المقاليع Frondes، غير أن الجنود المقلاعيين (الرماة بالمقاليع) قد ذكر وجودهم من بين الجيوش التي قدم بها يوغرطة لمساعدة الجيش الروماني في إسبانيا لمحاربة نومنصا Numance. ولعل القرطاجيين - مالم يكن غيرهم - قد جعلوا الأفارقة يعجبون بالمقلاع، ذلك أن آلاف القذائف من الطين المشوي قد عثر عليها في خرائب مدينتهم. وذلك برهان على ما كانوا يستعملونها فيه. وهو - على أقل تقدير - الدفاع عن أسوارهم. وغالبا ما يكون لصغار الرعاة الأهالي مقاليع بها يوجهون قطعانهم. على أن المقلاع لم يكن في عهود التاريخ القديم، وكأنه السلاح الوطني عند الليبيين، مثلما كان عند سكان جزر الباليار. وذلك لأنه لم يُذكر سوى في نص واحد.

لقد استخدم أقدم المصريين والليبيين الشرقيين تلك الشفرات الخشبية المعقوفة، أي البومران Boumerangs، التي لا تزال إلى اليوم أسلحة للقذف في أستراليا وفي الهند وفي موسطة إفريقيا. وبالنسبة لبلاد البربر، فالأغلب على الظن أن البومران يوجد ممثلا ضمن الرسوم الصخرية. ولربما أنه استمر مستعملا هنا وهناك إلى قلب العصر

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
التاريخي. فعلى قول سيلْيوس إيطاليكوس، إن الماصيين Maces، وهم عشيرة كانت تعيش بين السدرتَيْن، كانوا يحملون في أيديهم سلاحا محدّباً، سماه الشاعر باسم كاطييا Cateia، لكن الكاطييا التي كانت مستعملة عند الكلْتِيين Celtiques كانت تُرمى كما يُرمى البومران. ولربما أن بعضا من أهالي ناحية سَدْرة كانوا في القرن السادس لا يزالون يحملون البومران، وهذا افتراض يساعدنا على القول به بيتُ شعري لكوريبوس.

وفي أعصر ما قبل التاريخ فإن بعض سكان شمال إفريقيا كان لهم قسي يستعملونها، إذ يعثر على رؤوس السهام في محطات أقدم تاريخا. وفي الجنوب الوهراني في تيوت Tyout نجد رسوما صخرية تمثل قَوّاسين يصيدون. وإلى غاية نهاية الألف الثانية، كان الليبيون الشرقيون يستعملون القوس في حروبهم ضد المصريين. لأن القوس في تخوم دنيا البربر كانت هي السلاح الأهم لدى سادة الصحراء. ولاشك أن رؤوس السهام من حجر الظر قد استمر العمل بها عند الأثيوبيين بالصحراء، كما عند الأثيوبيين بوادي النيل. وقد كان ذلك لأمد طويل بعدما اختفت الصناعات الحجرية من البلدان المجاورة للبحر الأبيض المتوسط. وعلى كل حال فإنهم قد ظلوا قَوّاسين.

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليبيين الغربيين. فهناك فقرتان من أبْيان Appien – وهو كاتب غير موثوق به جدا – تذكر أولاهما القَوّاسين الموريين في جيش حنيبَعْل بمعركة زاما Zama، وتذكر الثانية قواسين آخرين من بين الجيوش التي قادها ضد نومَنْصا Numance الأمير النوميدي يوغرطة، كما أن نَحيتَة بنقش غائر Bas-relief كانت تزين هيكل هَدْرِيان برومة، عليها رسم لعشيرة تحمل كنانة سهام. ومع أنها تبدو

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

إفريقية حقيقة، فلا يظهر من تقاسيم خلقتها الشخص الأثيوبي. إذن فأرض البربر كان لا يزال بها آنذاك قَوّاسون. ولكن لابد أن عددهم لم يكن كثيرا جدا، لأن روايات الحروب بإفريقيا، التي خلفها لنا پوليب Polybe وتيت ليف Tite-Live وسالُسْت Salluste ويوميات حملة قيصر وتاسيت Tacite وأمْيان مَرْسُلان Amien Marcelin وبْروكوبْيوس Procope وكوريبوس Corippus وغيرهم لم تشر لهم مطلقا.

لقد كان المزراق هو السلاح الحقيقي للأهالي. وبالتأكيد فإنه استعمل من عهد باكر جدا. وعلى غرار ما عرف من بعد عند بعض العشائر المتأخرة، فقد كان يمكن الاكتفاء بعود يحدّد من أحد رأسيه، ويُحمى بالنار ليكتسب الصلابة، كما يمكن أن تركب على قناة قرنة Pointe من عظم أو من حجر الظر. ثم استعملت من بعد أسنّة الحديد التي كانت عريضة وذات رؤوس دقيقة. فكما وصفها سترابون وكوريبوس، وكما هي مرسومة على أنصاب بلاد القبائل Kabylie، وكذلك أيضا تلك التي وجدت بضريح الخْروب، فإنها كانت تدخل في القناة من كمها الطويل. والقنوات كانت قصيرة ولكنها قوية. وكل رجل كان يحمل مزراقين أو ثلاثة. ولا يبدو أن الأسنة كانت مسممة. ولم يستعمل في بلاد البربر ذلك السير الجلدي الذي سماه اللاتانيون باسم Ammentum، والذي كان يركّب على قناة المزراق فيكسبه كثيرا من الدقة في الإصابة والبعد في المدى. والمسافات التي كانت المقذوفات تقطعها هي على أكثر تقدير نحو من أربعين مترا. غير أن الأفارقة كانوا يرمونها بنفس الحذق الذي كان للفَرْطِيين Les Parthes وللفُرْس في رمي سهامهم. وعندما يتسارع الفرسان العديدون قاصدين العدوّ، وهم يرسلون عليهم القذائف في طلقة عامة، فإن الأثر يمكن أن يكون مفجعا حتى على من لم يصابوا بجروح، فيعتريهم الهلع من وابل القذائف.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وهناك نصوص تُعدّ بالعشرات، وترجع إلى حقبة تمتد من القرن الثالث قبل الميلاد وتستمر حتى العهد البيزنطي، وكلها تذكر استعمال المزاريق عند الليبيين النوميديين والموريين والجيتوليين من فرسان ومشاة في الصيد والحرب. كما أن أنصابا وقع اكتشافها في بلاد القبائل Kabylie وعليها كتابات ليبية، تُرينا رجالاً ممسكين بمزراقين أو ثلاثة. ونرى صوراً مماثلة لها مرسومة على الصخور، رسمت على الحاشية الصحراوية. وفي الصحراء نفسها، حول نهاية أعصر التاريخ القديم أو في العصر الوسيط، حين تراجع البربر إلى الصحراء. ونشاهد على نقود سُكّت في نوميديا وبموريطانيا مزراقين (أو مزراقا واحدا) كرمز ملازم لرأس إفريقيا، وكذلك هناك مزراقان على النقود الإمبراطورية تمسك بهما موريطانيا.

والخلاصة هي أن أكثرية الأهالي لم يكن لهم في أعصر التاريخ القديم سوى سلاح هجومي واحد هو المزراق. ولنضف إليه الخنجر أو السكين الذي هو للذبح أكثر مما هو للمعركة.

وأكثرهم لم يكن يحمل أي سلاح دفاعي. وإنما كانوا يجتهدون في اتقاء الضربات بجنح ردائهم. ومع ذلك فإن التروس قد عرفت في بلاد البربر من عهد باكر. فعلى رسمين صخريين، أحدهما في بِسْكرة والآخر بالجنوب الوهْراني نشاهد الترس وعليه تقويران جانبيان، على غرار الترس المعروفة باسم الترس البيوتية Béotien، وقد كان هذا الشكل هو الذي يعطيه جلد بهيمة منشور على تشبيكة من خشب، كما أن رسما آخر بالجنوب الوهراني يمثل ترسا بيضوية الشكل، أما الرابعة فلعلها أن تكون ترسا صغيرة مستديرة.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

هذه الترس المستديرة (الدرقة Rondache) هي التي كان الأفارقة يستخدمونها في العهد التاريخي، بحيث إنها كانت مستعملة على السواء عند المشاة وعند الفرسان. وقد ذكرها الكتاب القدماء كثيرا، منذ الحروب البونيقية حتى القرن الميلادي السادس. وكانوا يطلقون عليها عدة أسماء إغريقية ولاتانية، وسموها أيضا باسم Caetra أو Cetra ولعله لفظ إسباني لأن الإيبيريين كانوا في الواقع يستعملون نفس الترس. ولدينا عن ذلك بعض الصور. وعلى أنصاب في بلاد القبائل الكبرى نشاهد المحاربين يحملون درقهم Caetra في اليد اليسرى مع مجموعة من المزاريق. وعلى عمود تْراجان يحملها الفرسان الموريون بنفس اليد، وذلك أمر طبيعي في المعركة، لأن اليد الأخرى (اليمنى) تتهيأ لرمي المزراق. وهذه الترس هي التي تظهر كثيرا في الرسوم الصخرية بالجنوب الوهراني وبالصحراء المعروفة باسم الرسوم الليبية البربرية. وأقدم هذه الرسوم ليس متقدما على القرون الأخيرة من أعصر التاريخ القديم. ولاتزال هذه الترس مستعملة عند بعض الأفارقة، لا في بلاد البربر، ولا بالصحراء فحسب، ولكن في الشمال الشرقي للقارة عند البجة Bedja، وعند الأحباش والصوماليين.

كان مقياس قطر الترس يبلغ على أكثر تقدير خمسين سنتمترا. وكانت من جلد، وكان الأفضل استعمال جلد الفيل لأنه سميك جدا. وكانت الترس محاطة بحاشية، ومنتفخة قليلا إلى الخارج، ولكنها على ما يبدو لم تكن مزودة بهذه الحدبة المستديرة التي كان اللاتانيون يسمونها باسم Umbo، والتي كانت تقع وسط وجه الترس فتحيد بالضربات نظرا لذلك. وفي باطن الترس شدّ سيران متوازيان على شكل مقبضين، فيدخل الساعد في أحدهما وتمسك اليد بالثاني، وربما كانت

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
هذه التروس المستديرة تُطلى بلون واحد أو بألوان مختلفة. وميزة هذه التروس هي أنها كانت خفيفة الوزن سواء أثناء المعركة أو أثناء الطريق عند حملها على الظهر أو تعليقها على الجانب. وهي لم تكن تَرنّ، فلا يمكن أن تشي في الكمائن التي يتقنها الأهالي. غير أنها إذا ابتلت بالمطر، فإنها ترتخي وتثقل ولا تكون سوى عرقلة، وإذا استعملت في المعركة بسرعة وحذق فإنها تمكن من التوقي من القذائف أو الأحجار التي ترى آتية، أما إذا وجبت المواجهة جسما لجسم فهي سلاح غير كاف في الدفاع. ومع ذلك فإن البربر حافظوا على هذه التروس طوال قرون عديدة. أما الترس الكبيرة المتطاولة الشكل، التي هي من جلد الظبي، فيحتمل أن الطوارق لم يتخذوها إلا في العصور الوسطى. ولا تزال حتى اليوم مستعملة عندهم.

لم يتعود الأفارقة في أعصر التاريخ القديم على لبس الخوذات، ففي الحرب كما في غيرها كانت رؤوس أكثرهم تبقى عارية. وإذا صح أن بعضا من أهل سدرة الصغرى - في الحفلة السنوية التي يتحدث عنها هيرودُت - كانوا يزينون بنتاً شابة بخوذة وبشكة سلاح كاملة، ويطوفون بها فوق عربة، وهي تشخيص لإحدى الآلهات، فإن التجهيز على هذا النحو له أصل أجنبي، ثم إن هيرودُت يذكر ذلك. ومن الخارج أيضا اقتبس بعض الرؤساء الخوذة التي كانوا يلبسونها كأداة للرفاهية أو كسلاح للدفاع. وعلى ما يقال فإن قطعة من نقود سيفَكْس تُرينا رسما لفارس وعلى رأسه خوذة. وضريح الخْروب، وهو مدفن لأحد معاصري مسنيسّا، إن لم يكن لمسنيسّا نفسه، كانت به خوذة من حديد لها شكل الكمّثري، صالحة لتصون بطريقة فعالة الرأس ومعه القفا والوجنتين. وقد تحدث مرة كوريبوس - مرة واحدة إذا لم أخطئ - عن خوذة Galea وضعها أحد الأهالي من فوق قطعة ثوب Palla كانت تغطي رأسه(11).

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ولم تكن الدروع Cuirasses مستعملة. فالزرد الحديدي (الذي يغطي الرداء الجلدي) والذي كان بمدفن الخروب، قد كان شيئا مستجلبا من الخارج. ليس من أرض الإغريق، لأن الإغريق لم يكونوا يستخدمون هذه الدروع. لكن كانت الدروع من أصل إيطالي لاشك، إذ أننا نعلم عن طريق پوليب Polybe أن أكثر الرومانيين ثروة كانوا في الجيش يلبسون الزرود، وهي من اختراع الغاليين على قول ڤارون Varron.

أما الأفارقة فقد كان بعضهم يغطون أعلى الصدر بصدرية Plastron من جلد. وقد كانت هذه – على ما يقول سترابون – هي عادة الفرسان الموريين، ولربما أنها لم تكن واسعة الانتشار كما يظن، إذ ليس لدينا فعلا أية إشارة أخرى عن هذه الصدريات.

فنحن نرى إلى أي حد كان وبقي بسيطا، سلاح النوميديين والموريين. ولاحظنا في عدة مناسبات إدخال الأسلحة الأجنبية. ولكن كان الكبراء وحدهم، كالأمراء والرؤساء، هم الذين يتخذونها. وقد كان القرطاجيون يستعملون الخوذة والدزع والترس الكبيرة، والسيف والرمح، أما الأهالي الذين كانت لهم معهم علاقات متواصلة فقد عرفوا هذه الأسلحة، وأعجب بها البعض منهم. كما أن درعا بديعة من البرنز مصنوعة في إيطاليا الجنوبية في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد قد عثر عليها في مقبرة بقُصور السّاف، غير بعيد عن المهْدية بالقطر التونسي. ولربما يكون أحد الأهالي هو الذي لبسها، ذلك ما قد يسوغ افتراضه بالنظر لطريقة الدفن. وقد حصل مسِنيسّا وملوك أفارقة غيره من الشعب الروماني على هدايا، كانت الأسلحة من بينها. فأپْيان Appien يذكر شكة سلاح، وتيتْ ليڤ يذكر كذلك شكتين من أسلحة الفرسان مع دروع. وقد أعاد إلينا ضريح الخروب العتاد الحربي لأحد الأمراء

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

المتوفى حول أواسط القرن الثاني، غير أن أكثر هذا العتاد سلاح أجنبي كالخوذة، والزرد، والرمح والسيف. وقد سبق أن قلنا إن منصل يوغرطة يمكن أن يكون رومانيا أو أسبانيا. أما عامة الناس فمكثوا أوفياء لأسلحة آبائهم، إما بحكم العادة التي لا يتخلى عنها البربر عن رضى، وإما لأنهم لم يكونوا من الثروة بحيث يستطيعون تجهيز أنفسهم بصفة أحسن.

2

كان الأثاث عند الرحّل يقتصر على الضروريات اللازمة، كما أنه لم يكن أكثر عند المستقرين الذين لا يسكنون المدن.

فالقِراب التي من جلد الماعز، كانت تطلى من الباطن بالقار لجعلها غير نافذة، وتستعمل أوعية للسوائل، وللماء بالخصوص أما استخدام الفخار فلم يكن أمرا عمليا إلا عند أولئك الذين لم يكونوا يتنقلون كثيرا. ومع ذلك فحتى عند الآخرين، كان لابد على الأقل من وجود قدور من طين يبعث بها للنار، إذ لاشك أن الأواني المعدنية كانت تعدّ ترفاً. وكذلك العود الذي تصنع منه الآن أيضا صحون كبيرة تقوم على قدم أو بدونها، فإنه كان يمكّن من صنع أوان تتحمل الصدمات، وهذا سالُسْت يشير إلى أوعية العود التي توجد في أكواخ النوميديين، ويذكر بُمْبونْيوس مِيلا لأهالي الداخل أوعية من عود أو من لحاف الشجر أما الأطعمة الصلبة، فيحتمل أنها استخدمت لها سلال مضفورة من الديس والحلفاء ومن الأسل وسعف النخيل. ذلك أن القوم الذين كانوا منذ العهد الحجري يضغطون التراب في قوالب من سلال لصنع الفخار، لابد أنهم لم يتأخروا عن استعمال ضفائر الحلفاء لصنع أوعية حقيقية، هي في آن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

واحد خفيفة وغير سهلة المكسر. ولسحق الحبوب استعملت المهاريس وأيديها، أو استعملت هذه الأرحية البدائية التي تحدثنا عنها من قبل.

وكما يفعل البربر اليوم، فإن أجدادهم كانوا يستغنون عن الموائد والكراسي. وإنما كانوا يحلقون حول الصحن الموضوع على الأرض. وعلى الأرض كذلك كان ينام أكثرهم. كانوا على قول سْترابون يتدثرون بالجلود التي يستعملونها ملابس. وحسب بروكوبيوس فإن الأغنياء وحدهم هم الذين كانوا يفترشون جزة من صوف. أما عند النوم بالليل وللاستراحة بالنهار، فيسوغ مع ذلك الاعتقاد بأن الحصر في فصل الصيف وزرابي الصوف إبان الشتاء لم تكن أشياء مجهولة، وكذلك البطانيات في الأراضي التي يكون فيها البرد قاسيا. وعلى العموم إذا لم يكن هناك فراش فإن مصطبة مليئة أي مبنية، ومتكئة على أحد جدران القاعة، يمكن إلى حدما أن تعوض عن الفراش عند الأهالي المستقرين. وهو أمر كثير الوجود اليوم. والمهود كانت ضرورية للأطفال في سنّهم الأول، وبالخصوص عند الرحّل. على أن بعض النصوص تذكر الأفرشة حتى للكبار البالغين، وليس فحسب للأغنياء الذين يقلدون الأمثلة الأجنبية. ويقول إيلْيان Elien إن الأهالي كانوا يجتهدون في تلافي لسعات العقارب بالنوم على أفرشة عالية جدا كانوا يبعدونها عن الجدران ويجعلون قوائمها في جرات مليئة بالماء. ولنفس الأسباب كان الماسيسيليون – على قول سترابون – الذين يعيشون في البادية يحكون الثوم في قوائم فُرُشهم، ويحيطونها بأغصان شائكة. وفي هذا الصدد يمكن ذكر ملاحظة وهي أن الفراش عند المستقرين الصحراويين أكثر استعمالا منه عند سكان بلاد البربر، لأنه في الصيف أكثر طراوة من أرضية السطوح التي يقضى الليل عليها. وعلى غرار الفُرُش القديمة،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

فإنه يصون عن الأفاعي وعن العقارب، إذ الفراش كأنه قفص مصنوع من سعف النخيل.

أما الذين كانوا يسكنون في منازل ثابتة، ويتعاطون للزراعة، فكان عليهم أن يخزنوا في بيوتهم المؤونة الضرورية للاستهلاك العائلي. والفاضل من المحصول إذا لم يقع بيعه، ففي الإمكان إيداعه في المطامير أو في المخازن العامة. ولهذه الغاية يستخدمون في بلاد القبائل وفي غيرها جرات كبيرة من طين صلصالي غير مشوي، مخلوط بالتبن، تصنعها النساء فوق مصطبة بنفس المحل وبداخل دار السكنى نفسها، ويجعلن بها زخارف غالبا ما تكون عبارة عن وشمات هندسية الشكل، بسيطة وبارزة. والراجح أنها عادة بالغة في القِدَم. وكذلك الشأن في الصندوق الخشبي الكبير الذي تصان فيه الأشياء ذات القيمة. وأخيرا نول النسج، وهو إطار كبير من خشب، يتفكك، ويتكون من عمادين قائمين ومن جائزتين معترضتين. وفي هذا الإطار تمد السداة للنسج. والنصوص لا تحدثنا بشي في هذا الموضوع.

This document is created with trial vers

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الكتـاب الأول

الحياة المادية

الفصل الثالث

الحياة في البـوادي والمدن

1

إن سلسلة من التخمينات هي وحدها التي تمكننا من محاولة تصور الحياة التي كان الناس يحيونها في البوادي. ولاشك أنها لم تكن مخالفة لما كانت لاتزال عليه في عهد قريب منا. ولكننا هنا على أرض غير مكينة وتفرض الاختصار في الحديث.

إن الرجال لا يتخذون ديارهم مطلقا إلا ليتناولوا فيها طعامهم ولينامـوا بها. وتجري حياتهم في الأكثر في الهواء الطلق. وإذا لم يكونوا في حرب فإنهم يصيدون، أو يجلسون في جماعات صغيرة لتداول الأحاديث، أو يمكثون صامتين تاركين الساعات تمر في كسل. ومراقبة القطعان لا تتطلبهم جميعا، بل إنها قد تتوافق مع عدم القيام تماما بأي مجهود. وإذا لم يكن هناك خوف من أي هجوم مباغت، فأمر القطعان يرجع للأطفال، وليس للكبار. والزراعة لا تفرض العمل المجهد إلا في أوقات الحرث ورمي البذور وفي الحصاد، وهي أوقات يتوقف

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

فيها كل شيء، حتى الحروب. أما الأعياد والاحتفالات الدينية أو السحرية فتشغل بعض الأيام، بينما تمضي أيام أخرى في التردد على المباعات والأسواق.

والسوق عنصر ضروري من عناصر الحياة الاجتماعية للبربر. فبعض النصوص والنقوش تبرهن على أن السوق في عهد السيطرة الرومانية، قد كانت لها نفس القيمة التي لها اليوم. ويحتمل أنه لابد من التقهقر بعيدا في الزمن. وقد كانت السوق تنعقد في أوقات وفي أماكن ثابتة، ليس في القرى لأن الوصول إليها عسير جدا، ولأن المجال فيها قد يضيق عن الماشية، بل تنعقد في البادية. ويفضل انعقادها على تخوم أراضي عدة جموع سياسية فتكون مشتركة بينها. وفوق هذا، فإن للسوق جاذبية كبيرة إلى حد أن الناس يأتونها من بعيد، بشرط المجيء إليها والرجوع عنها في نفس اليوم. فبها تباع المنتجات الزراعية وماشية الجهات القريبة، في عمليات صغيرة بين أهل الجهة. أما الصفقات الكبرى وذات الأهمية فتجري بين تجار أو وكلا تجاريين متنقلين. وهناك أيضا يصل البائعون المتجولون الذين يتحدّون المشاق وأخطار السفر خلال بلاد بدون طرق، ومليئة بالناهبين، ويعرضون الأشياء المصنوعة بالمدن أو في الخارج. وهناك يحل الحدادون على حدة لأنهم مَهينون. ولكن لالزوم للبيع أو الشراء في التردد على السوق. فالمجيء إليها يكون للنظر وللحديث، ولتلقف الأخبار الصحيحة، والكاذبة غالبا، بل حتى للتشاور قصد تدبير ثورة أو فتنة. ومبدئيا فالسوق أرض محايدة تكاد تكون مقدسة، ومع ذلك فقد تحدث خصومات مبيتة أو غير مقصودة، فتهوي الهراوات على الرؤوس، وكم من حرب كان بدؤها من هذه الأماكن التي هي للتلاقي.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
ولا يكتفي جميع الناس بالسوق الجهوية، بل يذهب إلى المدينة من يستطيعون الذهاب، خصوصا إذا كانت بها سوق كبيرة تجذبهم إليها.

هكذا يقضي الرجال الوقت، إما في مشاغل تستأثر باهتمامهم وإما في التسكع. ويملأ الشغل المتعب لديهم أقل حيّز ممكن. وقليلا جدا ما يكلون شغلهم إلى أتباعهم. إذ ليس لدينا برهان على أن الاسترقاق كان واسع الانتشار لدى الأهالي. بل كانوا يلقون على نسائهم بكل الثقل تقريبا في عبء الحياة المادية.

والقاعدة – كما سبق أن قلنا – هي أن الجنسين يعيش كل واحد منهما حياته المتميزة، فالنساء لا يختلطن برجال من غير أسَرهن إلا إذا لم يكن بمستطاعهن غير ذلك، سواء في تنقلات الرحّل أو في الحرب أيضا. إذ في كثير من الحروب – ومن أقدم العصور حتى عهد قريب – فإن الرجال المسلحين كانوا يصحبون معهم نساءهم وأبناءهم وآباءهم الشيوخ، كما تصحبهم أيضا القطعان التي يملكونها[12]. وهذا أمر مسلم حين يتعلق بهجرة حقيقية، بالتخلي المؤقت أو النهائي عن المنطقة التي كانوا يعيشون بها. ولكن من الراجح أنه حتى في حالات أخرى فإن الرجال لا يذهبون وحدهم. وذلك ما يمكن تفسيره بأحد الأمرين: الخوف من أن يتركوا أثناء غيابهم أسَرَهم وماشيتهم عرضة لإحدى الغزوات، أو إرادة عدم التخلي عن الخدمات التي يمكن للنساء أن يؤدينها أثناء الحملة كإقامة المأوي، وتهيئة الطعام، وتنظيف السلاح، والعناية بالخيول وغير ذلك. ومع اصطحاب النساء لابد أيضا من اصطحاب الأطفال والحيوانات المؤنسة الموكولة إليهن.

ولم تكن العادة أن يشاركن في المعركة. لكن، إذا كان الزويكيون Zauèces (الزواغيون ؟)، وهم ليبيون من شرق القطر التونسي،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يستخدمون، على قول هيرودُت، نساءهم في قيادة عرباتهم الحربية، فإن هذه مجرد حالة استثنائية. ولكن الصيحات التي كن يطلقنها كانت تهيج المقاتلين. ويمكن أن نفترض أنهن – كما كانت تفعل بناتهن – قد كن يشتمن ويوقفن الهاربين، ويداوين الجرحى، ويمسكن بالأسرى ويعذبنهم.

ولسنا نرى أن النساء كان لهن ضلع كبير في زراعة الحبوب. فذلك أمر قد حدث ببعض الجهات بإسبانيا حيث كان الرجال يأنفون من القيام بهذا العمل، فيلزمون به زوجاتهم. ونلاحظ مع ذلك أن النساء، عند كثير من البربر حتى اليوم، هن اللواتي يقمن بنزع الحشائش، بينما الحرث ورمي البذور والحصاد والتذرية أعمال للرجال. ولربما أن هذا تقليد قديم جدا، يرجع إلى عهد كان فيه الحرث يقع بالمقلاب Houe وليس بالمحراث، وكان من عمل النساء.

في الأيام العادية، كان لابد للنساء من مغادرة بيوتهن للاستقاء وجمع الحطب. وبقية حياتهن يقضينها بداخل منازلهن أو في الجوار المباشر للمنازل. وهن لا يعدمن شغلا، إذ يعالجن ويحلبن الحيوانات المؤنسة، ويقمن بطحن الحبوب، ويطبخن الخبز، ويصنعن الزبدة والجبن، ويهيئن وجبة الطعام، ويربين الأطفال في سنّهم الأولي. ويضاف لهذا صنع بعض الأشياء التي لا تتطلب سوى أدوات بسيطة، فهي صناعات تعمل على ترضية حاجيات الأسرة، وعلى التقليل من المشتريات أكثر مما تعمل للبيع في الخارج. وتكون مزاولتها في أوقات الفراغ، حين تسمح المهام المنزلية المتعددة ببعض الراحة، وليس من شأنها كثرة الإنتاج.

هكذا كانت تنجز أعمال نسج الحلفاء، والسلال المضفورة باليد مباشرة، والحصر المصنوعة على النول الذي يصلح لصنع نسيج

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الصوف. وبالنسبة لهذا النسيج، فإن الخدمات الأولية من تنظيف وندافة وفتل تكون عموما مفروضة على الناسجة، وليس في الصناعة العائلية مطلقا توزيع الشغل. ويكون التصبيغ بالألوان النباتية. أما الأرجوان الذي كان مفضلا عند الفينيقيين، فلا يبدو أن البربر استخدموه. وعلى حسب ما يظهر، فإن النول ذا السدَى الأفقي قد وقع استجلابه في زمن حديث نسبيا، ليستخدمه الرجال الذين يزاولون بالمدن حرفة النساجة. وبدون شك فإنه كان غير معروف عند الأهالي في أعصر التاريخ القديم. أما نول النساء البربريات، الذي نجده عند كثير من القبائل ومن الراجح أنه دخلها منذ عهد بعيد، فهو النول ذو السدى العمودي. ونجهل من أين أتى. وهكذا يصنع النسيج للأردية وللشملات وللأغطية وللزرابي بتشبيك خيوط الطعمة على خيوط السدى. أما طريقة الدرزات المعقودة Points noués، التي تعطينا زرابي الصوف ذات الوبرات الطويلة، فلربما أن البربر لم يعرفوها إلا منذ بضعة أجيال، تقليدا لزرابي آسية الصغرى.

إن صناعة الفخار، التي لا يمكن أن تزدهر إلا عند السكان المستقرين، هي أيضا صناعة يزاولها النساء في البادية. ولا يزاولها جميع النساء، لأنها ستفيض عن الاحتياج، وإنما يزاولها نساء عاملات، تعلمن هذه الطريقة ويشتغلن بها عندما تدعو الحاجة لأهل القرية، من غير أن يتعاطين لاحتراف المهنة حقيقة، ودون البحث عادة عن زيادة أرباحهن بالبيع لغير أهل القرية. هذا الفخار البدوي النسوي، يتميز عن غيره الذي يصنع في المصانع التي يعمل فيها الرجال، بكونه لا يستخدم المخرطة ولا الفرن. فالأوعية تتشكل باليد وتُشوى بنار عارية. ومنها ما يُكتفى بتجفيفها بالشمس فحسب. وكلها طرائق بدائية تدل على تقاليد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

عريقة حوفظ عليها بإصرار، على الرغم من الخلل في المنتجات السريعة الانكسار جدا، والتي يسهل تحطيمها، ولا تحسن الإمساك بالسوائل.

هناك نوعان من الأواني الفخارية البربرية. فبعضها، وهي القدور والصحاف والصحون والزلافات والأقداح والكؤوس ذات المقبض أو بدونه، والقناديل وغيرها لها مظهر ذو لون ضارب للرمادي أو الأسمر أو الأسود. وهي بقية من الآنية التي يقع العثور على شقوفها في محطات العصر الحجري الجديد. لكن هذه الشقوف غالبا ما تكون عليها زخارف هندسية بدائية منقوشة برأس حاد. غير أن ذلك ترف وقع التخلي عنه في العصر التاريخي لأنها أشياء بلغت في ابتذالها حدا جعلها لا تحظى بأي زخرف ولو كان بسيطا، ويكتفى (ليس دائما) بصقل جوانبها. وقد زودتنا بعض المدافن الأهلية التي هي من القرون الأخيرة قبل الميلاد، بكثير من هذه الأوعية الخشنة. وهي أوعية كثيرة الشبه وإلى حد الالتباس بالأوعية التي لا تزال تصنعها بعض النساء البربريات حتى اليوم، والتي يحدث أن نشاهدها على الخصوص في الأضرحة، حيث يؤتى بها هدية للأولياء. أما الأشكال فإن أغلبيتها بالغة في البساطة، حتى ليصح أن يقال إنه فخار الأطفال.

ومع ذلك، ففي بعض الأمكنة : في مَغْراوة Magraoua بموسطة القطر التونسي، وفي الرّكنية Roknia بالقرب من قالَمة، وفي گَسْتال Gastal بالقرب من تبسّة، نرى التقليد الأعوج للأوعية الأجنبية : البونيقية، والإغريقية البونيقية التي أدخلتها التجارة - إدخالا فيه كثير من الشح - إلى بعض الحلل الأهلية. وهي على وجه المثال أطباق، وأباريق لها نطاق متناسق، وصحون في وسطها سرة، وأقداح بالمصفاة في العنق، أو بطن أنبوب صغير شبيه بالرضاعة[13]، وقناديل من النوع البونيقي. وفي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

گَسْتال Gastal، وكذلك في مقبرة أخرى بمنطقة قسنطنية توجد أوعية لها شكل العنفة Turbine أو الخذروف، وتذكرنا بالفخار المصنوع في غاليا في القرن الأول قبل الميلاد. ولستُ أدري هل يحسن قبول القول بوجود لقرابة نسب بين الفخارين الاثنين. فإذا صح هذا فكيف يمكن تفسيره.

والصنف الثاني يتكون من فخار ملون، صنعه أتقن من سابقه. يصنع في عدة قبائل. ويمكن تقسيمه حسب مصدره إلى عدة مجموعات يسهل التمييز بينها. ومع ذلك فلها خاصيات مشتركة. وهي الصنع في البادية بأيدي النساء من غير مخرطة ولا فرن. والزخرف الملون بالأسود أو بالأسمر - وبإضافة الأحمر غالبا - على السطح الذي يصقل بحجر منبسط أو بملاسة من خشب، ويطلى في الغالب بطلية ناعمة جدا من الطين الأصفر الباهت. أما الزخرف فهو عبارة عن وشمات هندسية مستقيمة الأضلاع. وقد خطت الوشامات بالمرقاش Pinceau. وليس فيها مطلقا خطوط محفوره تتممها أو تسندها. والأشكال أقل فقرا من الصنف الأول من الفخاريات البربرية. وأحيانا نشاهد بها تشعيبات تقلل من الفائدة العملية للأوعية، وإن كانت تشعيبات لها طموحات فنية، كالأقدام الرشيقة التي على شكل بوق صغير، والأعناق الممتدة طويلا، والتسنين حول شفة الوعاء، والأنابيب ذات الثقوب المتعددة، وحتى المتشابكة، والزلافات والقلَل المتصلة في مجموعات مكونة من ثلاث أو أربع منها أو أكثر، إلى غير ذلك.

وقد ثار النقاش في أصل هذا الفخار الملون، الذي لم يكن يعرف منه حتى السنين الأخيرة سوى بعض الوحدات العصرية، أو التي تكاد تكون عصرية. إذ لم يقع العثور عليه في طبقات عتيقة، في المدافن التي يمكّننا أثاثها من التوقيت له بزمن يرجع إلى قريب من بدايات العهد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الميلادي. ولكن حيث إن هذا الفخار - في تقنية صنعه وزخرفته بالوشمات المستقيمة الأضلاع - يشبه الفخاريات المصنوعة في الألف الثالث قبل الميلاد في جهات أخرى من بلاد البحر الأبيض المتوسط، وعلى الخصوص بجزيرتي قُبْرص وصقلية، فقد ظن البعض أنه يمكنه القول بأن هذا الفخار يصل أيضا وبالتقريب لهذا العهد من القدم في بلاد البربر التي لعل بعض المهاجرين أوصلوه إليها. وقد أجاب الآخرون على هذا بأن هذه المشابهات لا تستلزم القرابة في النسب بين الفخارين. ويؤكد ذلك أن فخاريات شمال إفريقيا تشبه إلى حد أكبر الفخاريات التي كان يصنعها الهنود في البيرو قبل اكتشاف أمريكا. وليس في الإمكان قبول وجود تأثير بين هاتين المنطقتين. وعلى هذا، فلعل الفخار البربري قد ولد في أرض البربر نفسها. ولا نعلم متى كان ذلك، ولربما أنه رغما عن مظهره وعن تقنيته العتيقة قد ولد في عهد حديث نسبيا، وإلا كنّا وَجدْنا أمثلة منه شاهدة على قدمه.

هذه الأمثلة الشاهدة وقع البحث عنها، وحب العثور عليها دفع إلى عقد مقارنات ليستْ على صواب، أو هي قابلة للنزاع الشديد. وهي مقارنات بين الآنية الملونة عند البربر المحدثين وبين بعض الأوعية التي صنعت بإفريقيا في العصور الوسطى أو القديمة. ولكن حسب رأيي فإن قرابة النسب مؤكدة في بعض الأشياء التي عثر عليها في قسنطينة، في الطبقات المشتملة على أشياء صنعت قبيل العهد الميلادي أو بعده بقليل. وأعتقد أن بالإمكان الرجوع إلى زمن أبعد، إذا روعيت المشابهة، وهي ليست عريضة، بين عدة أشكال بربرية وغيرها من الأشكال التي كانت موجودة في الخزف الإيجي Céramique égéenne منذ الحقب الأولى من عصر البرنز، ومع الأشكال المصرية والفينيقية والإغريقية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

فكيف ومتى حدثت هذه الاقتباسات ؟ نجهل ذلك. ولكن على الأقل بالنسبة لقسم واحد منها، وهو الفخار البونيقي الذي لا يدين له زخرف الفخار البربري بشيء، فإنه، أي الفخار البونيقي قد أمكن أن يكون واسطة وذلك في الأمفورات التي من النوع المألوف، وفي القلل العريضة البطون بمقابض السلال، والتي لها قوائم تتكون من بوقين صغيرين متقابلين، يصل بينهما قضيب خزفي غليظ، وفي الشمعدانات التي لها ساق متينة، وبها صفّ أو صفّان من القناديل الصغيرة ذات المنقار الدقيق، وفي الجفنات التي تقوم على جوانبها قصعات صغيرة، مثلما على الأوعية المعروفة باسم كِرْنُويْ Kernoi عند الإغريق.

فنحن نرى أن الفخار الأهلي الملون أو غير الملون يحافظ بإصرار على عادات قديمة جدا. على أنه إذا كان خاضعا للعادة فإنه لا يرفض رفضا قاطعا المؤثرات الأجنبية. وقد سبق أن رأينا احتمال تقليده للفخاريات البونيقية، وفي أيامنا هذه نشاهد الاقتباس من أوربا في تقليد البراريد théières وفنجانات القهوة وحمالات الشموع، وغير ذلك. ونفس الميول الضعيفة للتجديد تدخل في الزخرف بعض رسوم النباتات والأشخاص الأحياء. ولكنها جميعا استثناءات نادرة.

والخلاصة هي أن الفن البدوي البربري قلما تأثر بالشعوب التي لعبت منذ خمسة وعشرين قرنا دورا تاريخيا في شمال إفريقيا. ومن ناحية أخرى فإن هذا الفن يجهل الطبيعة. إنه لا ينظر لما حوله، ولا يحس بمشاهد الحياة. فهو يكرر الوشمات التي أوصلتها التقاليد إليه، والتي تنجز بصفة آلية ومن غير احتياج إلى نماذج.

فسواء تعلق الأمر بالفخاريات، وبالنسائج، ومصنوعات الجلد، وبالخشب المنقوش، فالزخرف هندسي، والأشكال تكاد تكون دائما

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مستقيمة الأضلاع. والوشمات الزخرفية منها أشكال خيطية متوازية، ومنها مجموعات ترقينات وزوايا حادة وتعرّجات، ومنها صلبان تتقاطع بانحراف أو بزوايا مستقيمة، كما أنها أمشاط، ومثليات، ومعينات، ومربعات مصمتة أو تضم أشكالا متماثلة صغيرة أو مليئة بخطوط زوايا متقاطعة يتكون منها تربيع وترصيف كالضامة، ومنها وشمات أخرى لا تعرف الخطوط المنحنية. أما أن يكون قد حدث في هذا تحول - ولو جزئي - إلى الانحطاط في الصوَر التي كانت فيما قبل مستعارة من الطبيعة، فذلك أمر ممكن، بل إنه أمر محتمل. فالمشط مثلا يمكن أن يكون تشويها ليد بأصابعها مفتوحة. ومجموعة الزوايا الحادة المتراكبة، ورؤوسها إلى أسفل، يمكن أن تمثل غصنا بأوراق متناسقة. على أن الشك في بعض الأحيان يكون لا داعي له، لأن ساقا نباتية ترسم، وتنضد عليها هذه الأوراق الجانبية المائلة، وقد أحيلت إلى خطوط. غير أن كل هذا قد تحول إلى أشكال هندسية.

وبدون شك، فإن الفن البربري قد أضاع منذ أمد بعيد كل اتصال مع الطبيعة، فوقع هكذا في الرسم ذي الخطوط المستقيمة. فقد عثر في موسطة القطر الجزائري على أنصاب تُقدّم، بجانب الكتابات الليبية، رسوما لأمشاط يبدو أنها بمنزلة الأيدي الواقية. ومنذ الألف الثانية قبل الميلاد، كان الوشم عند الليبيين الشرقيين، عبارة عن وشمات هندسية. وكذلك مكثت على العموم بشمال إفريقيا.

إن أشكال هذه القائمة الفقيرة جدا، تتجاور وتتجمع في تنوع، ولكنها دائما شرائط أو نطاقات متوازية، ولا تكون منبتة حول وشمة مركزية. أما التنسيق في النسيج، فغالبا ما يكون متلائما، فيرضي النظر بوضوح التشكيل وحسن توزيع الأجزاء المزخرفة والفراغات. وتشهد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

بعض الفخاريات بالمزايا نفسها في التنسيق. لكن غيرها الكثير يكون مزعجا بفقدانه للتناسق وبوحْشيته المرهقة، الأمر الذي يجعله وثائق إثنوغرافية أكثر مما هو قطع فنية.

أما الألوان فعادة ما تكون بسيطة جدا، بل تقتصر في الغالب على لون واحد يظهر على سطح متناسق، وبهذا يقع تلافي عيب تعدد الألوان الصارخة. لكن المظهر في جملته غالبا ما يكون مُمِلاً وحزينا. على أن بعض الثياب البربرية لها في بساطتها الشديدة مظهر ليس فيه تصنع، ولا يعدم جمالا.

إن أهم مزايا هذا الفن، هو أنه فن شعبي عريق، وليس هو بذخا يحترف بعض النبهاء حرفة اقتنائه للأغنياء، بل إنه حلية تبدو ضرورية في الأشياء الأكثر استعمالا، فهو الأثر الفني والفرحة لدى عامة الناس.

كان الليبيون يحبون الغناء والرقص والموسيقى، وقد كان النساء، في الحفلات الدينية وفي أحوال أخرى غيرها دون شك، يطلقن صيحات متموجة، كان هيرودُت قد سمعها. وهي الزغاريد (الْيويو You - You) الحادة والطويلة النفس، التي لا تزال بناتهن يطلقنها حتى اليوم. والاحتفالات المفرحة التي تستحسن إقامتها بالليل، كانت تشتمل على الرقص والغناء. وكانت بعض الجماعات القليلة العدد تقضي الوقت في رواية أشعار الغرام والاستماع لها. ويمكن مسايرة الإيقاع إما بالتصفيق بالأيدي، الأمر الذي لم يختف حتى اليوم من بلاد البربر ومن أسبانيا، وإما بالضرب على الطبل، لأن الليبيين لابد أنهم استعملوا هذه الآلهة التي كان الـگوانش أهل كناريا يعرفونها، والتي انتشرت منذ القرن الخامس قبل الميلاد بين السُّود في إفريقيا الغربية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وكان دوريس Douris وهو كاتب عاش في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، قد ذكر أحد الليبيين الرحّل وهو سيرِتيس Seirites، وعزا إليه اختراع الناي flûte أو على الأصح الشبابة Chalumeau، وأن سيرتيس هذا قد أسمعها في بعض الحفلات الدينية. كما أن نصوصا أخرى تشهد بشهرة الشبابات الليبية(14). وكان يستخدم لصنعها عود اللوتس Lotus (الزفزوف أي العناب : jujubier) أو عود الدِّفْلَى. ولو يكن الرجال وحدهم هم الذين تأسرهم النبرات الحادة لهذه الشبابات – سواء صحبها الرقص والغناء أو لا – بل اشتهر عن الخيول أنها كانت تتأثر بها تأثيرا عجيبا.

هكذا كانت الحياة المادية للناس في البوادي، بقدرما نستطيع أن نعرفها أو نَحزَرها. ويذكر سْترابون أن نمط الحياة عند الموريين مشابه جدا لنمط الماسيسيلين، وبصفة عامة لطريقة الحياة لدى جميع الليبيين. إذن فإن حضارة متماثلة كانت بالفعل منتشرة في جميع الشمال الإفريقي، أيّاً ما كانت الأصول المختلفة للسكان وللدول التي كانت تضمهم. وكانت هذه الحضارة تضعف من الشمال للجنوب ومن البحر للداخل، بحيث إن الجيتوليين قد كانوا أشد همجية من النوميديين والموريين جيران البحر الأبيض المتوسط.

كثير من الأهالي الأفارقة أصابوا بعض التقدم بفضل مسنيسّا الذي دفعهم دفعا قويا. لكن، في هذه المنطقة كما في غيرها، يكون التغير في العادات في البوادي أقل سرعة مما في المدن. ففي الصفحات السابقة، لاحظنا أكثر من مرة، أن حياة الفلاحين والرحّل فيها العديد من الأشياء التي تخطت القرون حتى وصلت إلينا دون أن تصاب بتغيرات عميقة. فإذا كانت الأمثلة القرطاجية، قبل الأمثلة الرومانية، قد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
أحدثت بعض التأثير على بعض هؤلاء الأقوام، فإن تلك الأمثلة لم تغيرهم. والخطوط الأساسية لحضارة البربر البدويين قد تكونت لاشك في أناة كبيرة وبمشقة عظيمة، وكان ذلك في ماض لا يمكننا أن نصعد إليه. أما الأجيال التي تتابعت منذ تلك العهود، فإن فعل التطبع (الروتين Routine) فيها قد كان في العادة أقوى من الأمثلة الخارجية لديها ومن حبها لتحول أكثر رفاهية.

2

إن المدن هي التي اتسعت فيها الحضارة في بلاد البربر في الأعصر التاريخية. وهي حضارة مستعارة ولامعة أكثر مما هي وطيدة، لها أطوار بونيقية، فَرومانية فإسلامية. ولم تنتشر مطلقا خارج المدن. ومن هنا كان التناقض - العنيف أحيانا - بين سكان المدن وسكان البوادي، بين أخلاق متحضرة إلى حدما وبين الهمجية أو ما يشبهها وتكاد لا تتغير. هذا التعارض هو إحدى الخاصيات لتاريخ شمال إفريقيا.

في العهد الذي ندرسه كانت الحضارة البونيقية هي المسيطرة في المدن. ولم يكن بالمستطاع غير ذلك في المستوطنات القديمة الفينيقية والقرطاجية بالساحل. وإذا كان الذين أصولهم أهلية بهذه المدن ذوي عدد كثير، أو كانوا ربما أكثر عددا من ذرية المستوطنين (المعمّرين)، فإنهم اتخذوا العادات الأجنبية، وحافظوا عليها حتى عندما حلت سلطة الملوك محل حكم قرطاجة. وفوق ذلك، فإن الحياة المشتركة، والزوجات بالخصوص، قد صهرت شيئا فشيئا العناصر المتنوعة التي كانت تشكل السكان في هذه المدن.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ومع ذلك فإن بعض السمات تكشف لنا وجود تقاليد أو تأثيرات إفريقية. من ذلك التحريفاتُ الحاصلة في اللغة البونيقية التي كان الجميع يتحدث بها، واندماج المعبودات المشرقية والآلهة الأهلية، وهنا وهناك نجد طقوسا جنائزية لم تكن فينيقية، ولكنها مستعملة منذ أمد بعيد عند الأهالي. ولاشك أن مثل ذلك كان واقعا في الحياة المادية في الملبس والطعام والأثاث.

على أن مدنا أخرى لم يساهم الفينيقيون والقرطاجيون في تأسيسها، قد تفتحت هي أيضا للحضارة البونيقية، خصوصا في نوميديا الشرقية. ولم ينقطع الناس فيها عن التحدث باللغة الأهلية، غير أن اللغة البونيقية قد ترسخت قَدَمُها فيها، واستعملت في العلاقات التجارية، بل أصبحت فيها لغة رسمية، إما بجانب الليبية كما في ثُگّة Thugga (دقة)، وإما وحدها على ما يحتمل في سِرْتا Cirta. أما بالنسبة للأولى من هاتين المدينتين، فإن الأسماء الفينيقية تبدو قليلة العدد أمام الأسماء الليبية على النقوش البونيقية والليبية التي ترجع للعهد الملكي. وبالنسبة للمدينة الثانية فتكاد الأسماء الفينيقية تظهر وحدها على النقوش البونيقية، مما يؤكد أنه، إذا لم يكن الشعب نفسه، فعلى الأقل إن البورْجوازية التي أمرت بصنع هذه النذور كانت قد اتخذت اللغة القرطاجية على نطاق واسع. ونفس الأنصاب الحجرية تشهد أنها اتخذت كذلك أهم آلهة قرطاجية. فهناك ما يدعو للاعتقاد إذن – حتى مع غياب البراهين المباشرة – أن الحضارة البونيقية قد كان لها مقام مهم في مجالات أخرى بالحياة الحضرية.

هذه المدن التي أقيمت بها مبان عمومية ومساكن مريحة، كان لابد فيها أن تزدهر صناعات البناء. فنص التكريس الليبي البونيقي لأحد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الأضرحة بمدينة دُقَّة Dougga، ذكَر ثلاثة من الرجال كانوا على ما يلوح قد أشرفوا على الخدمات. وذكر بعدهم مساعديهم (في الحيطان الضخمة ؟) وعددهم ثلاثة، ثم ذكر اثنين من النجارين، ثم ذكر اثنين يصهران الحديد. *فالضريح الذي* وقع الآن ترميمه، ويشاهَد *بهذا المكان*، وكذلك ضريح الخْروب بالقرب من قسنطينة، قد بُنيا بناءً متيناً، وهما يشرّفان البنائين (المعلمين) الذين بنوهما في تُكّة Thugga وفي سرِتْا.

وكانت هناك صناعات أخرى تصنع قطع الأثاث. ويبدو أنها كانت أقل ازدهارا هنا من أرض غاليا المستقلة، حيث كانت تجد أسواقا أوسع بخارج المدن. وكان النساء – كما سبق أن رأينا – يتكفلن بصنع قسم كبير من الأشياء الضرورية لأسَرِهن. على أن بعض الصناعات كانت تستلزم تجهيزا وأدوات ومعارف تقنية وانتظاما وتتابعا يفوق نطاق وقابليات الشغل بالمنزل. مثال ذلك صُنعُ الأسلحة، وأدوات المعدن، وصناعة الحلي وخزف المخرطة والفرن. فقد كان يزاولها الرجال الذين يحترفونها، ويشتغلون بالمدينة في المصانع متجمعين لاشك بحسب الحِرَف وطبقا لعرف متواتر منذ أعصر التاريخ القديم إلى أيامنا. ومع ذلك فيحتمل أن يكون قد وُجد آنذاك – كما فيما بعد – بإفريقيا حدادون وصانعون للحلي متنقلون يطوفون في البوادي، وعلى الخصوص في أسواق البادية. كما يحتمل أيضا أن صانعين للفخار يكونون أقاموا مباشرة بجوار طبقات الطين التي كانت تزودهم بمادتهم الأولية. ولكن الصناعة – على العموم – كانت من شغل أهل المدينة.

وهناك مسألة نجهلها جهلا كليا. فالصدفة عرفتنا أن مدينة شولو Chullu (Collo أي مدينة القالة) على الساحل الجزائري كانت تصنع بها ثياب الأرجوان الشهيرة. ويذكر نذر بونيقي صاحبَ مصهر(15). وفي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

شولو كما في كُنوكُو Gunugu عثر على فخاريات ذات أشكال خاصة، الأمر الذي يسوغ الاعتقاد بوجود مصانع محلية.

وفي النقش ذي اللغتين الذي بضريح دُقّة Dougga نجد العمال وآباءهم يحملون أسماء ليبية أو تبدو ليبية، باستثناء اسم أحد العاملين الصاهرين للحديد. فاسمه شافوت Shafot وهو اسم فينيقي. وكان لسباك سِرْتا وابنه اسمان فينيقيان. غير أنه، إذا كان من النادر أن يحمل أشخاص من أصل فينيقي أسماء ليبية، فالمتأكد أن أسماء فينيقية قد تَسمّى بها ليبيون. ونستطيع أن نفترض أن أغلب العمال كانوا من الأهالي. بل، حيث إن هؤلاء الرجال كانوا يعيشون في المدن ذات الحضارة الفينيقية، فلابد أنهم تلامذة - بصفة مباشرة أو غير مباشرة - في الصناعة البونيقية. ولدينا عن الفخارين وحدهم البراهين بهذا الشأن. ذلك أن المقابر التي ترجع لهذا العهد، والتي نقبت في كولو Collo، وكُورايا Gouraya، وباجَة وطبُرْسُق، ودُقّة، وبولاريجْيا Bulla regia، وقُسّنطينة وغيرها، كانت تضم فخاريات خشنة شديدة الشبه بتلك التي وجدت بالمقابر الأحدث عهدا في قرطاجة الأولى. فهي عبارة عن منتجات إفريقية، بَيْعها أمر معتاد، وكانت تصنع في مختلف المدن. وبعض الأشكال البونيقية قد استمرت في الوجود حتى أيامنا هذه في بعض المراكز الحضرية مثلما بقي البعض منها في الفخار البربري في البوادي.

باستثناء هذه البقايا العديمة القيمة، فإننا لا نلاحظ وجود اقتباس عن الفينيقيين والقرطاجيين في الصناعات التي يزاولها الصناع اليوم، ولا في الصناعات الأسْرَوية. فبالنسبة لهذه، كانت المؤثرات البونيقية ضعيفة جدا، أو منعدمة تقريبا. وبالنسبة لتلك، فإن هذه المؤثرات حل

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

محلها غيرها، لأن الحضارة البدوية إذا كانت لا تتغير أبدا، فحضارة المدن تمتثل بخضوع للنماذج التي ترد عليها متعاقبة من الخارج. وهكذا نجد فيما يخص الحلي والنسيج والخزفيات، أن اقتباسات كثيرة قد أخذت عن الفنون الإسلامية الإسبانية والمشرقية، وكذلك من فنون أوربا المسيحية. بل إن الفنون البدوية البربرية لم تخل من تأثير لها على الفن الحضري.

ومع ذلك فيحتمل أن بعض الصناعات التي يزاولها بعض المحترفين، تكون قد نشأت منذ عهد بعيد جدا، حتى قبل دخول الحضارة البونيقية عند البربر، واستمرت تتابع حياتها المستقلة. هكذا يمكن أن يكون الأمر بالنسبة للصانع الحداد. وإننا لنجهل أصول الشغل في الحديد بشمال إفريقيا. وليس أكيدا أن اللفظ البربري أزّلْ Azzel أو أوزّل Ouzzel الدالّ على هذا المعدن، يكون مشتقا من اللفظ السامي بَرْزِل Barzel الذي كان مستعملا عند الفينيقيين والعبرانيين. والحدادون في كثير من النواحي، قد كوّنوا إلى عهد قريب ما يشبه أن يكون طبقة محقورة تتزوج فيما بينها، وعلاقاتها مع غيرها من الناس قليلة، ويتوارثون طريقة صناعتهم جيلا فجيل. أما عن الفخار فقد سبق لنا القول بأنه كانت توجد مصانع تصنع فيها الفخاريات من النوع البونيقي، تبعا للطرائق البونيقية طبعا. غير أن هذه الطرائق كانت أكثر تعقيدا من هذه التي لا يزال يستخدمها الخزافون الأهالي الذين يعيشون بالخصوص في جنوب المغرب خارج المجتمع الذي يحتقرهم كما يحتقر الحدادين. فيمكن التساؤل إذن عن هذه الصناعة : أليست صناعة بالغة في القدم ؟ وتكون استمرت في الوجود خلال القرون بجانب الفخار الوحشي الذي تصنعه النساء ؟ وبجانب الفخار الحضري ذي الطريقة المتقنة ؟ لكن هذه، بالتأكيد مجرد افتراضات واهنة جدا.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

والراجح أن الصناع كانوا في المدن يبيعون بأنفسهم ما ينتجونه، على غرار مالا يزال معمولا به في أسواق مدينتي تونس وفاس، حيث المصانع كانت في نفس الحين دكاكين. وهناك دكاكين أخرى يشغلها الباعة الذين يعرضون البضائع المستجلبة. وبهذا، فإن أهل المدن والقادمين من خارج المدن كانوا يستطيعون في كل وقت وحين أن يقوموا بمشترياتهم. لكن التجارة كانت تنشط إبان الأسواق المنعقدة في بعض المدن التي، نظرا لموقعها الجغرافي أو لأهميتها، كانت تساعد على هذه الملتقيات الكبيرة، مثل فاكا (باجة) وسيكا (الكاف) وسِرْتا (قُسّنطينة)، سِرْتا التي كان الناس يفدون عليها من جنوب المغرب(؟). وقد كانت هذه الأسواق تنعقد في تاريخ محدد، في الصيف على ما يحتمل، وهو الفصل الذي لا يخشى فيه من المطر الذي يجعل الطرق غير صالحة للاستعمال، والذي يكون فيه الفلاحون متوفرين على غلالهم التي قد حصدوها، والذي يكون الرجال أثناءه في التل مع حيواناتهم المؤنسة وعليهم أن يكونوا مؤنتهم من الحبوب. فهناك تعقد الصفقات الكبرى في القمح والشعير والصوف والماشية. وهناك أيضا يقوم الفلاحون والرعاة بمشتريات يؤدون عنها النقود التي ربحوها مما باعوه. وكانوا في ذهابهم وإيابهم يسافرون جماعات، فكانوا بهذا قادرين على الدفاع عن أنفسهم ضد قُطّاع الطرق.

أما التجارة مع الخارج فكانت تتم عن طريق المستوطنات الفينيقية أو القرطاجية، المحررة من القيود التي كانت قرطاجة تضعها على تجارتها. وصحيح أن جل هذه المستوطنات كانت موانئها سيئة، وأن القرصنة كانت تعيث في البحر الأبيض المتوسط، وأن عدم وجود الطرق في المناطق الوعرة وانعدام الأمن، كل ذلك كان يعرقل المواصلات بين الساحل ومدن الداخل.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
وكذلك، فإن التجارة بين الممالك الإفريقية وبلدان ما وراء البحر، لم تكن أقل نشاطا. ذلك ما تشهد به النقود التي وقع العثور عليها. فالنقود المورية والنوميدية كثيرة الوجود بأسبانيا، وعلى الخصوص بجنوب الهضبة. ولقد عثر عليها أيضا بفرنسا وحتى في كْرواتْيا. ففي هذه المنطقة الأخيرة عثر على كنز دفن في مازين Mazin حول سنة 80 ق.م، يضم 328 قطعة عليها صورة مسنيسّا، ومعها أكثر من خمسمائة قطعة قرطاجية. ومن ناحية أخرى، ففي الجزائر يعثر أحيانا على نقود إغريقية من أثينا، وسرنيكا (برقة) ورودس، وعلى نقود البطالمة، ونقود مرسيليا، وكثيرا ما يقع العثور على نقود من أسبانيا ومن الباليار، وكثيرا أيضا ما يعثر على دوانق Deniers من عملة الجمهورية الرومانية، وقد كانت هذه الدوانق في القرن الأول قبل الميلاد هي القطع الفضية الأكثر انتشارا في شمال إفريقيا. لقد رأينا سابقا أن الملوك الأهالي قبل يوبا الثاني سكّوا قليلا جدا من النقود من المعادن الثمينة، وأن النقود الأجنبية التي كانت تقوم مقامها، قد أدخلت لاشك في تأدية أثمان المنتجات المحلية.

لقد كانت مالَقة Malaca، على الساحل الجنوبي لأسبانيا، هي المدينة التي كان لها أوسع العلاقات مع الأفارقة. كما أن الإيطاليين، وخصوصا منهم على ما يحتمل أهل جنوب الهضبة، أي الإغريق كانت لهم مع الأفارقة علاقات تجارية. وقد أقيم في جزيرة ديلوس Délos تمثالان لمسنيسّا. أقام واحدا منهما أحد الديلوسيين الذي كان يقول إنه صديق للملك، والثاني أقامه أحد أبناء جزيرة رودس Rhodes. وبدون شك، فإن هذين الشخصين قد عقدا صفقات كبيرة مع الملك النوميدي. ويخبرنا سترابون أن مسبْسا Micipsa أسكن بعض الإغريق في عاصمته سرْتا. وقد وقع العَثور في قسنطينة على نقيشتين إغريقيتين

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

من العهد الملكي. والراجح أن قسما من هؤلاء الأجانب قد كانوا تجارا. كما أن قطعة من نقيشة إغريقية من نفس العهد قد عثر عليها في هيبوريجْيوس Hippo Regius المدنية البحرية. وفي عهد يوغرطة كان العديد من الإيطاليين يقيمون في ڤاگا Vaga (باجة) حيث كانوا يتعاطون للتجارة. وكان كذلك في سرْتا كثير من التجار الإيطاليين. وقد شاركوا في الدفاع عن المدينة التي كان يوغرطة يحاصرها. وأزيحت الأتربة في قسنطينة عن نقيشة لاتانية، هي عبارة عن نذر لشخص يدعى ييرون Ieron، ويسوغ الاعتقاد بأنه أصلا من صقلية أو من إغريقيا الكبرى. كما أن نذرا آخر قد نذره شخص يُدعى لوكْيوس بن نوميريْوس Lucius fils de Numerius، الذي كان على ما يبدو يسكن سرتا منذ زمن طويل، لأن هذا النص مكتوب باللغة البونيقية. أما مدينة زاما Zama عاصمة يوبا الأول فكان يسكنها مواطنون رومانيون.

ومعلوماتنا قليلة جدا عن البضائع التي كانت محلا لهذا النشاط التجاري. فالخمور كانت تستجلب من المشرق ومن إيطاليا. وقد عثر في ڤاگا على جرّة تحمل خاتما لاتانيا. وفي سرتا عثر على أمفورات بعلامات رودوسية Rhodiennes، وهي الأمفورات التي كانت قرطاجة تستقبل العدد الكبير منها في أواخر حياتها. لكن الخمور الأجنبية كانت ترفاً يصلح للأغنياء. ونحن نعلم أن جل الأهالي كانوا في العادة يكتفون بشرب الماء.

وهناك ما يدعو لقبول القول باستجلاب بعض أدوات التأثيث، كالأسلحة والآنية المعدنية وغير ذلك، مما لم ينتشر هو أيضا في البوادي أبدا. ففي مدافن بعض المدن بالساحل وبالداخل، عثر على قناديل من النوع الإغريقي، وعلى أوعية بطلاء أسود، تعرف بالفخار

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الكَمْباني Campanien. ولابد أن نضيف أن هذه الفخاريات لم تأت جميعها مما وراء البحار، لأن بعض المصانع الإفريقية كانت تقلد المنتجات الأجنبية مع بعض التوفيق في العمل. وقد بدأ دخول هذه المنتجات الأجنبية في الوقت الذي كانت فيه قرطاجة تحتفظ لنفسها باحتكار التجارة مع نوميديا وموريطانيا. فلما فقدت هذا الاحتكار بعد الحرب البونيقية الثانية، ولما اضمحلت هي بعد ذلك بنصف قرن، فإن السفن الإغريقية والإيطالية لاشك هي التي كانت تأتي بتلك المنتجات. وعلى كل حال، فلا شيء يدل على أن أساطيل تجارية قد تكونت في الموانئ الإفريقية، وحلت فيها محل السفن القرطاجية.

وبدون شك، كان القمح يشكل أوسع قسم في الصادرات. ذلك أن ڤاگا التي كان يتردد عليها ويسكنها العديد من التجار الإيطاليين، قد كانت دائما سوقا للحبوب. ونحن نعلم أن القمح والشعير قد أصدرا للخارج منذ عهد مسِنيساّ.

ويمكننا كذلك قبول القول بإصدار الصوف، والأُهُب والجلود، والماشية، والخيول، والعبيد. غير أن النصوص صامتة حول هذا الموضوع. وكذلك فإن عقيق أرض الماسيسيليين بنوعيه : الأحمر Escarboucles والرماني Grenat، والعاج، وخشب السِّتْروس Citrus (العرعر Thuya) كانت مطلوبة جدا. أما المرمر النوميدي الذي من سِميثو Simitthu فقد بدأت شهرته تذيع. وكانت الألعاب العمومية في رومة تطلب الحيوانات المتوحشة أو العجيبة، والموائد الأرستقراطية تطلب الطيور وغيرها من الحيوانات الإفريقية الأخرى، ذات اللحوم اللذيذة، وإن كان غلاء ثمنها يضاهي ندرة وجودها.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وبالطبع فإن كلّ هذا لم يكن يفضي إلى عمليات تجارية منتظمة. فالملوك كانوا يهبون لأصدقائهم فيما وراء البحر الوحوش، والقمح، والعاج والعرعر مجانا. غير أن هذه الأعمال التكريميّة المنجزة بحسن التأني لا يمكن أن تكون إلا أعمالا استثنائية. وبالطبع كان الملوك يفضلون الاستفادة من خيرات أراضيهم: من القمح الذي كانت تنتجه ضيعاتهم، أو الذي كان رعاياهم يدفعونه لهم في الضريبة، ومن العاج ومن الأخشاب الثمينة، والوحوش التي كانت تصاد بأمرهم في الغابة، ومن المرمر النوميدي الذي خصوا أنفسهم بملكيته واستغلاله.

فيحتمل إذن أنهم كانوا أكبر الباعة في ممالكهم. ومن عندهم لاشك كان التجار الإغريق والإيطاليون ينجزون أهم شراءاتهم. وبجانب العمليات التجارية، كان هؤلاء الأجانب بمستطاعهم أن يضيفوا مؤسسات للنقل البحري، وللبعض منهم بعض العمليات البنكية، أي العمليات الربوية. ونحن نعلم بواسطة سيِسرون Cicéron، الذي لا يدلي بإيضاحات في هذا الموضوع أن الكَمْباني ستِيوس Sittius كان له في سنة 64 ق.م دين كبير على ملك موريطانيا.

وكانت الثروات التي تتجمع في بعض المدن، كالعواصم والمراكز التجارية، تسبب فيها ازدهار الترف. وكان الأمراء الذين يسكنونها يريدون بها منازل تتناسب مع قوتهم. والنصوص تذكر القصور التي كانت لسيفَكْس ولمسِنيسّا في سِرْتا، وليوغرطة في تاهْلا، وليوبا الأول في زاما. كما كان لابد للألهة من معابد، وللموتى العظام أو من الكبراء لابد لهم من أضرحة تقام أحيانا قريبا من المدن – كضريح دُقّة – وأحيانا في انعزال مهيب، مثل صومعة الخْروب Çoumâ du Khroub،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ومثل القبرين الملكيين اللذين يُسمّى أحدهما باسم المدغاسِن Medracen والآخر باسم قبر النصرانية Tombeau de la chretienne.

إن المدينة الحضرية - كما سبق أن أوضحنا - قد انتشرت في نوميديا الغربية وفي موريطانيا بصفة أقل مما انتشرت به في نوميديا الشرقية. فهذه كانت حسب سالُسْت غنية بالعمارات. والمدن التي ازدانت بالبنايات الجميلة، يبدو أن أهمها كانت مدينة سِرْتا «التي تزودت كثيرا بكل شيء - كما يقول سْترابون - خصوصا على يد مِسِبْسا». «والمدينة الأكثر ثروة في مملكة يوبا»، كما يقول راوي قصة حملة قيصر، ومدينة زاما Zama دار الإقامة المفضلة عند هذا الملك يوبا، ومدينة ثوگة Thugga التي كانت ذات أهمية منذ القرن الرابع. ومن بين هذه البنايات التي أقيمت في الممالك الإفريقية، بقي لنا عدة أضرحة سندرسها مع المقابر الأخرى. ويجب أن يضاف لذلك أشلاء هندسية مبعثرة جمعت في جهات مختلفة. وهي بقايا غطاها العهد الروماني، أو أعاد استعمالها. ويستحيل عادة التأريخ لها بدقة. وأخيرا الرسوم التي على بعض علامات يوبا الأول وهي تمثّل معبدا على واحدة، وعلى الأخرى تمثل بناية غامضة يمكن أن تكون واجهة لأحد القصور. فيمكن أن نفترض أن الملك أمر ببناء هاتين العمارتين في زاما.

لم يكن للأهالي فن بنائي ضخم، فاقتبسوه من القرطاجيين الذين يدين الأهالي لهم بأشياء أخرى كثيرة. فكان فنا هجينا مختلطا، فيه نِسَبٌ مختلفة من الوشمات الشرقية والوشمات الهيلينية، فناً احتذائيا، ذا مظهر بال. ومن المحتمل أن المهندسين البونيقيين هم الذين وقعت دعوتهم في أول الأمر لتشييد البنايات التي كانت الحاجة تدعو إليها، فاستطاعوا أن يكونوا لهم تلاميذ من أصل نوميدي، لم يأتوا من بعد بأي جديد. فمعبد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مسنيسّا المقام في دُقّة بعد سنين قليلة من تخريب قرطاجة، قد أقامه بُناة هم حنّو ابن يَعْطونْ بَعْل Hanno fils d'Iatonbaal ابن حنيبَعْل (وهذه ثلاثة أسماء فينيقية) ونَبْتَسان Niptasan (وهذا اسم ليبي) ابن شافوت (اسم فينيقي وإن كانت قراءته غير مؤكدة). ونقش ضريح دُقّة المعاصر تقريبا للمعبد يذكر (كبناة للأحجار) شخصا باسم عبد عَريش Ab(d) arish ابن عَبْد عَشْتَرْت Abdashtart (وهذان اسمان فينيقيان) ثم أحد الليبيين، وهو الابن نفسه لمن أقيم له الضريح وأخيرا شخص يُدعى مَنْجي Mangi ابن وَرْسَكان Varsacan، وهذان اسمان ليبيان. فلعل أول هؤلاء الرجال الثلاثة، وهو قرطاجي على ما يبدو، كان هو المهندس، أما الإثنان الآخران، فقد يكونان شاركا بصفة ما في البناء، فأديا النفقات، وراقبا الأشغال وغير ذلك. ولربما أيضا أن بعض المهندسين الذين هم من أصل هيليني أتوا ليعرضوا خدماتهم على الأمراء النوميديين والموريين، ولتكوين تلامذة لهم أيضا. وكان الفن الإغريقي هو الذي نال التفوق على الفن القرطاجي في مجال هذا التنافس.

فلهذا الفن ينتمي التعطيف Gorge المصري الأصل، أي هذه الناتئة الزخرفية العريضة، على نضد البناء، والمعطوفة على شكل ربع الدائرة. وهذا التعطيف Gorge نجده في ضريح دُقّة وبالمدْغاسنْ. ولنفس الفن يرجع الساكف Linteau الذي عثر عليه في إيبا Ebba (ناحية الكاف)، وبه قرص شمسي شعاعي الشكل تقوم على جانبه أزهار اللوتس، وربما السعيفات Palmettes التي تسمى فينيقية.

ومن الزخارف الأكثر استعمالا في هذا الفن الإغريقي البونيقي، تاج الأعمدة المعروف باسم التاج الإيولي Eolique، ذي العقفتين المنتصبتين (على شكل عكازة الأسقف)، اللتين تولي إحداهما ظهرها

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
للأخرى، وعليهما في الغالب براعم اللوتس. وكان هذا التاج يجعل على رأس الأعمدة الداعمة في الزوايا. وهو موجود هنا وهناك في نوميديا، بدُقّة (في محله بالضريح، ومنه قطع مبعثرة)، وكذلك في أحواز هذا المكان، ويوجد كذلك بناحية القصور Ksour (بجنوب الكاف) وبقلعة بوعَطْفان، وهَنْشير العارية H. El Aria، وفي تِفاش Tifach (بشرق الجزائر) وفي حمّام المسْكوتين (بالقرب من قالمة) وعلى صندوق جنائزي بقسنطينة. وبقدرما نستطيع من التخمين، فإن تيجاناً من هذا الشكل هي التي تعلو الأعمدة التي في العمارتين الظاهرتين على نقود يوبا. وقد بقي التاج الأيولي مستعملا في دُقّة إلى أواسط القرن الميلادي الأول، وربما إلى ما بعد ذلك بكثير في غيرها.

وكان الفن البونيقي يستخدم التاج الأيوني Ionique، ولكن على شكل عتيق، تكون فيه الحاشية السفلى للقناة المستعرضة الواصلة بين الحلزونين Volutes مقوسة كثيرا إلى الأسفل. هذا هو التاج الأيوني الذي نجده في ضريح دُقّة مع التاج الأيولي ومع التعطيف المصري. وفي قبر النصرانية Tombeau de la chrétienne، فإن للتيجان نفس التقويس في القناة. ولكن نظرا لأن هذا الأثر ليس به أي زخرف بونيقي، ونظرا لكون هذه الأعمدة الأيونية Ioniques العتيقة قد عاشت طويلا عند بعض المدارس (الفنية) ذات الأصل الإغريقي، فلا لزوم على ما يبدو، لإدخال الفن القرطاجي هنا، وهل تنتمي لهذا الفن أو للفن الإغريقي تلك التيجان الأيونية، ذات الأشكال الخاصة، التي اكتشفت في فيليبْفيل Philippeville (سكْيكدة) وفي ناحية الكاف (بالجزة وبالقصور) ؟ لا نستطيع جوابا.

أما التاج الدوري dorique الذي استخدمه القرطاجيون على قلة، فلربما أنه أتى مباشرة من أحد البلدان الإغريقية (من صقلية ؟) إلى

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

نوميديا حيث نجده في سِرْتا، وفي صومعة الخْروب Coumâ du khroub وفي المدْغاسِن. وعلاوة على ذلك. ففي الخْروب كما في المدْغاسِن وخلافا للقواعد المعتادة فإن الأعمدة التي تعلوها هذه التيجان ليست جذوعا مخددة Cannelés. والنضد الذي يعلو التيجان في المدغاسن هو تعطيف مصري. أما ضريح الصومعة فليس به علامة تدل على أنه من الطراز الدوري. فهذا الضريح ليس سوى أثر إغريقي عاطل عن الزخارف الشرقية، بينما ضريح دُقّة المعاصر له تقريبا أثر بونيقي حقيقة، لأن كلاًّ منهما قد بُني حول أواسط القرن الثاني.

وكانت بناية إغريقية أخرى مقامة في سِيمثو Simitthu. وهي هيكل Temple، حل محله في العهد الروماني معبد آخر، لم يبق منه الآن سوى بعض الكِبسارات التي هي عبارة عن عصابة لربط الأعمدة، مع أسفل زخرف مثلث الأخاديد Triglyphes يستعمل حسب النسق الدوري لزخرفة الإفريز، كما بقي تاج لعمود مربع Pilastre فيه توريق وحلزونات، وتزينه عنقاء Griffon، وبقي منه أيضا ثلاث قطع من إفريز تظهر به تروس. وحيث إن هذه البقايا، هي من المرمر النوميدي، فإن البناية التي كانت هذه البقايا جزءاً منها، لم تكن على ما يحتمل سابقة على القرن الثاني قبل الميلاد. وبالقرب من هذا المكان، في بولاريجْيا Bulla Regia، اكتشفت قطعة من إفريز دوري، وهي بقية هيكل من الراجح أن يكون معاصرا تقريبا لهيكل سميثو. ويمكن أن نعزو لنفس الحقبة طُنُفاً من الطراز الإغريقي، من إيبا Ebba، يتراكب فيه صف من الزخارف بشكل أقراط Pirouettes وقلوب Rais de Coeur، متعاقبة مع زهيرات وتضريسات Denticules. أما البنايات التي تظهر على نقود يوبا الأول، فهي أيضا من هندسة إغريقية، ذلك أن الهيكل الذي يتقدمه رواق،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ويحيط – لاشك – به حرم Péribole، قد جعلت بأعلاه جبهة مثلثة الشكل. وواجهة القصر (؟) تظهر بأسفلها أعمدة تتعاقب مع أتلنطات[16] Atlantes، وبأعلاها تظهر ثلاثة أجنحة تقوم على جَنباتها أعمدة أيونية Ioniques. والتيجان في هاتين البنايتين تبدو حقيقة من الطراز الأيولي Eolique، وهي وحدها تذكرنا بالفن القرطاجي. وفي قيصرية عاصمة يوبا الثاني ابن يوبا الأول، فإن الهندسة الإغريقية الكلاسيكية كانت هي المسيطرة بدون منازع.

ومن المؤسف أن لا توجد نصوص ولا وثائق أثرية تساعدنا على استعادة تشكيل القصور الملكية من جديد. والراجح أن هذه القصور كانت تؤوي سكانا كثيرين من زوجات السيد وأقاربه، ومن الخَدَم والحرس الشخصي. وزيادة على المساكن والمخازن والمكاتب والثكنات والإصطبلات وغيرها، فقد اشتملت بالطبع على قاعات الأبهة اللائقة بالحفلات والأعياد التي يحافظ فيها الرعايا بدقة على مراسيم المجاملات التي يعرض فيها الملك ثرواته بكبرياء.

وقد كان هؤلاء الملوك يحرصون على أن يظهروا أنهم ليسوا همجيين. فقبل أن تضمحل قرطاجة، علمتهم ما هي الحضارة الناعمة. وقد قيل إن أشهر هؤلاء الملوك وهو مسِنيسّا قد تربى في المدينة الثرية كما أن عدة من الأمراء النوميديين تزوجوا نساء قرطاجيات، من أكبر الأسر الأرستقراطية. وقد كن يتألمن من منفاهن، لو لم يجدن فيه ما تعوّدن عليه سابقا من حياة البذخ. ونحن نعلم عن طريق پْلين الشيخ Pline l'Ancien، أن خزائن كتب قرطاجة قد وهبتها روما عند تخريبها لهذه المدينة إلى الملوك النوميديين. ولم تكن هذه الهدية غير مجدية لمن حازوها ولذريتهم. فالملك هيمْبسال Hiempsal، وهو سبْط مسِنيسّا،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

كتب باللغة البونيقية مؤلَّفاً أو أكثر[17]، وحفيد هيمْبسال، وهو يوبا الثاني، قد رجع إلى بعض الكتب البونيقية.

لكن إذا كانت الحضارة القرطاجية تعرض نفسها بنفسها - إذا صح التعبير - على هؤلاء الأمراء، فإنهم لم يكونوا يجهلون مقدار تفوق الحضارة الإغريقية عليها. فمسنِيسّا استدعى لبلاطه موسقيين من الإغريق كما أمكن لأحد الدبلوسيين أن يفتخر بصداقته. وكان ابنه مَسْتَنَبَعْل Mastanabaal، على ما قيل، مطلعا على الآداب الإغريقية، ولم يأنف من بعث خيول من إصطبلاته للسباق في أثينا، حيث نالت الجائزة. ومن بين الإغريق الذين سكنوا في سِرْتا في عهد مِسِبْسا Micipsa، أخي مستنبَعْل، بعض الفنانين على ما يحتمل. وقد سبق أن ذكرنا الكسارات من الهندسة الإغريقية التي عثر عليها بقسنطينة، فكان منهم بعض الأدباء والعلماء ومن بينهم الأطباء. وإذا صدقنا ديودور الصقلي، فإن مسِبْسا كان يعيش صحبة إغريق مثقفين، استدعاهم إلى جانبه. وكان هو يتعاطى لدراسات مختلفة، وللفلسفة على الخصوص. ولاشك أن في هذا مبالغة. ولكن الإغريق كانوا يعلمون أن بمستطاعهم أن ينالوا الاستقبال الحسن لدى الملوك الأفارقة.

عند بداية القرن الأول قبل الميلاد، كان أحد المغّامرين، وهو أودُكْس السِّيزيقي Eudoxe de Cyzique الذي ذكر بوزِدونْيوس Posidonius قصته. فقد قرر بعد رحلتين إلى الهند في البحر الأحمر، أن يصل لهذه الأرض (الهند) بالطواف حول إفريقيا. فانطلق إذن من قادس، ولكنه أرغم على وقف رحلته. فاتجه إلى ملك موريطانيا والتمس منه الوسيلة للانطلاق في الرحلة من جديد. فأبدى الأمير الموافقة، غير أن أودُكْس

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

– عن صواب أو خطأ – خشي عدم صدقه، وخاف أن يقضي عليه. ففر والتحق بإسبانيا بعد عناء طويل.

لكن إغريقاً آخرين ممن أتوا للبحث عن الثروة في إفريقيا البعيدة، قد كانوا أسعد حظا. فلعبوا دورا نافعاً، ولكنه كان محصورا، بحيث إنهم إذا لم يكونوا تجارا، فلا تكون لهم علاقات سوى مع النخبة من المجتمع الأهلي. على أن هذه النخبة نفسها كانت تبقى مرتبطة بالحضارة البونيقية، التي هي مع ذلك متشبعة بالهيلينية. ولقد كان يوبا الثاني في الحقيقة أول ملك إفريقي إغريقي التربية والثقافة. وقد أشْرِب حبّ الإغريق، ليس في إفريقيا، بل في روما أثناء منفاه الطويل.

This document is c

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الكتـاب الثاني

الحياة الفكرية والروحية

الفصل الأول

اللغـات والكتابـات

1

باستثناء البونيقية، فلا يبدو أن الناس في الممالك الأهلية قد تحدثوا بلغة أخرى غير الليبية المنقسمة إلى عدة لهجات. ولم يرتفع أي من هذه اللهجات إلى منزلة لغة الدولة. فسيفَكْس ومسِنيسّا ومن خلفوه اتخذوا البونيقية لغة رسمية، مثلما اتخذ ملوك البربر اللغةَ العربية في العصور الوسطى.

ونظرا لكون الأجانب لم يكونوا يرضون بتعلم هذه اللهجات، التي لم يكونوا ليستعملوها إلا في مجال ضيق، فلابد أن لغتهم كانت معروفة لدى الأفارقة الذين كانت لهم بهم علاقات. بل لقد حدث أن أصبحت هي اللغة الجارية بين بعض الأهالي الذين كان يصعب عليهم التفاهم بينهم بدونها.

إذن، فاللهجات الليبية بقيت منحصرة في حدود ضيقة، على أن الكثير من هذه اللهجات قد ثبت بإصرار يُحافظ عليها التفرد الذاتي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
Particularisme البربري، ويحميها - على الخصوص - النساء اللاتي لا يخرجن عن عائلاتهن أو قُراهنّ على الأقل، فينقلن إلى أبنائهن اللغة الوحيدة التي هن في حاجة لاستعمالها. فهي لهجات فلاحين غلاظ، ولا تعبّر إلا عن أفكار مبتذلة، والمفردات اللغوية التي كانت منذ الأصل غزيرة على ما يبدو كان بإمكانها أن تغتني أكثر، لأن البربر لا يأنفون من قبول الألفاظ الأجنبية، غير أن الجهاز النحوي قد بقي متخلفا. وهذه اللهجات فقيرة في الصوَر، قليلة القدرة على التكيف للتجريدات، فهي لا تطاوع على الازدهار الأدبي. والأفارقة الذين يعدّون أنفسهم مثقفين، لابد لهم من التوجه نحو لغة أخرى، كانت هي البونيقية في ذلك العهد، مثل اللاتانية فيما بعد، ثم اللغة العربية.

على أن اللغة الليبية، كانت لها كتابة خاصة، ولدينا عنها عدة شهادات. وهي شهادات لا يجب أن تطلب عند الإغريق واللاتانيين. إن فُلْگانْس Fulgence، وهو روماني من إفريقيا، عاصر السيطرة الوندالية، كان الكاتب الوحيد الذي ذكر الألفْباء الليبية المتكونة - على قوله - من ثلاثة وعشرين حرفاً. ولقد جرى جمع نحو من خمسمائة من النقوش التي سُمّيت باسم النقوش الليبية[18] والتي درسها على الخصوص، كل من دوصُلْسي De Saulcy وجوداس Judas، وهَليفي Halévy، والأب شابوت Abbé chabot، والجنرال فيديرْب Faidherbe سنة 1870، والدكتور رُبود Reboud ما بين 1870-1887 ونشروا عن هذه النقوش مجموعات من النصوص.

إننا نعرف بسهولة الحروف الليبية، فهي عبارة عن خطوط مستقيمة تكون منفردة أو متجمعة في تركيبات بسيطة جدا، فتشبه الأشكال الهندسية. وبعض هذه الحروف تكون على شكلين : أحدهما متصلب، وله

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
زوايا. والآخر تنثني فيه الخطوط وتستدير الزوايا، ونتيجة لذلك فالمربع، ونصف المربع والمثلثان المتماسان من قمتهما يعوّض عنهما بدائرة، وبنصف دائرة وبحلقتين على شكل 8. واتجاه الكتابة ليس هو نفس الاتجاه دائما. ففي نقوش من دُقّة، ومن بينها اثنان باللغتين الليبية والبونيقية، نجد النص يتجه في خطوط أفقية بعضها فوق بعض، وتقرأ من اليمين إلى اليسار، تقليدا لاشك للكتابة البونيقية. وبغيرها نجد الكتابة موزعة على خطوط عمودية تُقرأ من الأسفل إلى الأعلى، وتكون البداية في الغالب من أسفل العمود الأيسر.

والنقوش الليبية منتشرة انتشارا غير متساو. فهي لم تكتشف بالمغرب، لأن المغرب لم تقع به حتى الآن تنقيبات هامة، وهذا مجرد نقص ربما سيتمم. ولكن لا يحتمل أن الأمر سيكون كذلك بالنسبة لشرق القطر التونسي، حيث تنعدم النقوش الليبية. إنها تكثر على الخصوص بالشمال الشرقي للقطر الجزائري، وفي الجهات التونسية المجاورة للقطر الجزائري، أي بين عنّابة والقالَة شمالاً، وبين قالَمة وشميتو جنوباً، وبالخصوص بين سوق أهْراس والْقالة. وتوجد بعدد لابأس به في الهضبة الوسطى التونسية، وفيما يحيط بقسنطينة وميلة. أما بعيدا إلى الجنوب فإن النقوش الليبية قليلة الوجود في بلاد البربر الشرقية. وباستثناء بلاد القبائل الكبرى، فإن ولاية مدينة الجزائر لم تزودنا إلا بعدد قليل منها، بينما ولاية وهْران هي أشد فقرا.

أما خارج بلاد البربر، فقد وقعت الإشارة إلى نقش ليبي في جبل سيناء[19]، والراجح أنه نقش خطّته يد مسافر أو منفي. كما أن نقوشا صخرية اكتشفت من اثنتين من جزر كناريا، تعرض مجموعة من

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الحروف التي تبدو ذات قرابة بحروف الكتابة الليبية. ولا يمكن القول، ولو على وجه التقريب، متى وقع نقشها.

ومن بين النقوش الليبية بأرض البربر، والتي يمكن التأريخ لها، فإن أقدمها هو واحد من النقشين باللغتَيْن اللذين وُجدا بدُقّة Dougga. فهو تكريس لمعبد أقيم لمسِنيسّا في السنة العاشرة من حكم ابنه مسِبْسا. وذلك هو ما يطابق سنة 139 قبل الميلاد. أما النقش الثاني ذو اللغتين فهو تكريس للضريح الشهير ذي الطراز البونيقي، وكذلك النصوص الليبية التي بدُقّة، والمنظمة على شكل سطور أفقية، فلاشك أنها ترجع لنفس العهد على وجه التقريب.

وهناك نقوش أخرى بلُغَتيْن، عُثر عليها بتونس وفي ولاية قُسّنطينة ويظهر عليها بجانب النص الليبي، نص مكتوب إما بالبونيقية الجديدة (النيوبونيقية Néopunique)، وإما باللاتانية، ويرجع تاريخها لعهد السيطرة الرومانية. ولنفس العهد تنتمي الأنصاب الحجرية التي عليها نقوش ليبية لا غير، ولكنها أقيمت بجوار النقوش السابقة، والتي لها نفس المظهر العام وتحتوي على نفس مجموعات الحروف. وكذلك التي تختلط في المقبرات بشواهد قبور كتبت باللاتانية، وتقدم أحيانا أسماء الأعلام باللاتانية، كما تقدم نحائت غائرة Bas-Reliefs يدل أسلوبها على القرون الثلاثة الأولى للميلاد. فهي إذن متأخرة عن العهد الذي ندرس هنا تاريخه.

وفي بلاد القبائل الكبرى أنصاب حجرية عليها متحاربون يقفون على أقدامهم، أو يركبون الفرس في الغالب، وهي نقوش تصحبها كتابات ليبية قصيرة. وقد خطت هذه الرسوم الخشنة الصنع على شكل نتوء

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
منبسط جدا، غير مستعمل في الأوساط الرومانية بالقرون الميلادية الأولى، فيمكن أن يعزى إما إلى عهد سابق وإما إلى عهد متأخر جدا. وهذا، ما لم يكن من عمل بعض الصنّاع الأهالي الذين يستطيعون أن يبقوا محافظين على التقاليد القديمة. وبنفس الناحية، في «إفْري نَدْلال» Ifri-n-Della بالقرب من إفيرا Ifira يوجد عدد كبير من الكتابات الليبية المرسومة على جدران إحدى الفجوات الطبيعية، التي ربما كانت مستعملة للعبادة. ولايمكن التأريخ لشيء من هذا.

ولم تغب الكتابة الليبية عن الوجود مع انتهاء أعصر التاريخ القديم. ففي جنوب ولاية وهْران والجنوب المغربي، كما في ولايتي طرابلس وسرنيكا، وكذلك في عدة أماكن بالصحراء توجد كتابات على الصخور تعرف بأنها ليبية بربرية، وهي منقوشة عادة بطريقة التنقيط Pointillé. وغالبا ما تكون مصاحبة لصور الجمال التي لم يقع رسمها مطلقا قبل القرن الثالث أو الرابع، فلاشك أنها على العموم أحدث عهدا.

وهذه الألفْباء قد حوفظ عليها إلى أيامنا هذه بالصحراء عند الطوارق. ذلك أن التيفِناغ tifinagh – وهذا هو الاسم الذي يطلق على الحروف – معروفة بالخصوص عند النساء إذ هنّ أكثر تعلما عند هؤلاء الأهالي مما عند البربر الآخرين. واستعمال هذه الحروف ضيق، فهو عبارة عن كتابات قصيرة باللون أو بالحفر على الصخور، أو مخطوطة على أساور من حجر الحيّة Serpentine أو على تروس من جلد، فكانت بطاقات مقتضبة يتواصل بها الجمّالون فيما بينهم. ولم يحدث مطلقا أن استخدمت حروف التيفناغ في كتابة الكتب. وقد نسيت الألفباء الليبية في جميع أرض المغارب منذ عهد بعيد، والكتب القليلة العدد التي أُلِّفتْ باللغة البربرية قد كانت كتابتها بالحروف العربية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ومع أن كتابة الطوارق مشتقة من الكتابة الليبية القديمة، فإنها لوحدها لا يمكن أن تعطينا مفتاحها. بحيث يمكننا أن نلاحظ أن بعض حروف التيفناغ لا تمثل نفس الصوت الذي لبعض الحروف الليبية التي لها نفس الشكل والصورة، والبعض الآخر لم يعد موجودا في الكتابة القديمة (على الأقل كما نعرفها)، كما أن بعضا من حروف هذه الكتابة لا توجد في كتابة الطوارق. إذن فلعل أجداد البربر لم تكن لهم أبجدية واحدة تكون قد استعملت لمختلف اللهجات، ودون أن تعتريها تغيرات أثناء القرون. فالنقوش المخطوطة في سطور أفقية بدُقّة Dougga، التي يرجع منها نقش واحد بدون شك إلى القرن الثاني قبل الميلاد، تشتمل على عدة حروف لا نلاقيها في النقوش التونسية والقُسَّنطينية ذات السطور العمودية، والتي هي من العهد الروماني. وكذلك نقوش موسطة القطر الجزائري وغربه، فهذه أيضا لها حروف خاصة بها. وهذا صحيح على الخصوص بالنسبة لنصوص فجوة إيفيرا Ifira. وقد أمكن تغير عدد الحروف المستعملة كذلك، فلقد سبق أن رأينا أن فُلْگانْس Fulgence يذكر للأبجدية الليبية 23 حرفا، كما عددنا نحن أيضا 23 حرفا في النصوص الأفقية بدُقّة Dougga ، و22 في مجموعة الكتابات التي بناحية سوق أهْراس.

فينتج عن هذه الملاحظات أن قيمة الحروف لا يمكن تحديدها إلا في المجموعات التي تضع بين أيدينا نصوصا بلغتين. لأن هذه النصوص تشتمل على أسماء الأعلام التي كانت تنقل كما هي من لغة إلى أخرى ولا تترجم.

بهذا أمكن الوصول للتعرف تقريبا على قيمة جميع الحروف التي بالكتابات الأفقية بدُقّة Dougga، والكتابات العمودية التي بالشمال

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الشرقي للقطر الجزائري، وبالشمال الغربي وموسطة القطر التونسي[20].

وهذه النتيجة الأولى ساعدت على قراءة الكثير من أسماء الأعلام المعروفة من قبل، التي بعضها بونيقي، وبعضها كان ذا مظهر ليبي، بل وبعضها من أصل لاتاني. ومن بين أسماء الأشخاص التي قرئت بيقين وقع العثور على اللفظ الليبي : «أُو Ou» الدالّ على معنى «ابن» كما في البربرية. وفي دُقّة Dougga، فالنصوص ذات اللغتين، التي يكون فيها النصان الليبي والبونيقي ترجمة صحيحة لأحدهما عن الآخر قد زودتنا بمجموعة من الحروف التي تعبر عن ألفاظ ذات معنى في القسم البونيقي. ونتيجة لذلك فلابد أن يكون لها نفس المعنى، وأحد هذه المجموعات هو گ ل د GLD ومعناه هو (رئيس، ملِك). ونجده اليوم في اللهجات البربرية بصيغة أَگَلّيد guellid.

والذين نقشوا في دُقّة الكتابات الأفقية، قد التزموا الفصل بين الكلمات بالنقط. وليس الأمر كذلك بالمواقع الأخرى. فيحدث شعور بالحيرة عند ضم مجموعات الحروف التي تفضي إلى ألفاظ. وحتى في سلسلة من ثلاثة أحرف، أو أربعة أو خمسة منها، هل يجب دائما البحث عن اللفظ الذي لعلها قد كونت عناصره ؟ ففي نقوش ناحية سوق أهْراس، وفي نقوش أخرى بموسطة القطر الجزائري تظهر الحروف في الغالب مصفوفة في نسق متماثل. فلا يصح أن تكون أسماء أعلام، إذ لا يكون هناك معنى لكثرة ورودها. ويمكن أن تطابق بعض الألفاظ التي تجد محلها على هذه الأنصاب مثل كلمة قبر. كما يمكن أن تكون اختزالا لتعابير معتادة تشبه DMS (Dis Manibus Sacrum : هذا القبر المقدّس) و HSE (Hic situs est : هنا يرقد...) التي نجدها على الكثير من الشواهد اللاتانية. وهناك صعوبة أخرى تصطدم بها القراءة. ذلك أنه على غرار

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الكتابة البونيقية، فإن الألفاظ، حتى ولو لم تكن مختزلة، لا يكتب منها سوى هياكل حروفها، أما الحركات فتهمل كتابتها.

إذن فلم نستفد فائدة كبرى من النقائش الليبية. وربما فلا يكون هناك داع للأسف الكبير على ذلك. فباستثناء بعض النقوش التي بدُقّة ومجموعة إفيرا Ifira، فإن جل هذه النصوص شواهد قبور لرجال لا أهمية لهم. ولاشك أنهم، باستثناء أسمائهم، لم يكن لهم شيء مفيد يخبروننا به.

2

ما هو أصل هذه الكتابة التي نتقفى تاريخها منذ واحد وعشرين قرنا ؟ بحيث إنها على أبعد تقدير قد كانت مكتملة منذ مائة وأربعين سنة قبل الميلاد. لقد كانت بالتدقيق كتابة صوتية، لا مقطعية مثل غيرها من كتابات عصور التاريخ القديم، بل كانت أبجدية حقيقية لا تشتمل إلا على عدد صغير من الحروف، من الصوامت فحسب.

وقبل اتخاذها، هل سبق للأهالي أن استعملوا طريقة الكتابة التصويرية التي تمثل فيها الصورة، بصفة حسنة أو شائنة، الأشخاص والأشياء ؟ وهل هذه الصور تكون قد تحولت فأصبحت رموزا صوتية ؟ وهل تكون هذه، بسبب التشويه أو التيسير، قد اتخذت فيما بعد مظهرا صَفّيا Linéaire ؟ لاشيء يدل على أن الأمور جرت على هذا النحو.

كما أن أشكالا بسيطة شبيهة بحروف الألفباء الليبية، تظهر مختلطة بالحيوانات في الرسوم الصخرية. ولا يعرف لها تاريخ، غير أنها بالتأكيد أقدم من الألف الأولى قبل الميلاد. وقد ذكر وجودها في كهف

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
المكْتوبة Kef el -Mektouba بالجنوب الوهراني، وفي خنقة الحجر khangue el -hajar، غير بعيد عن قالمة، وفي الشعبة النائمة chaba Naïma بالجنوب الغربي لبِسْكرة. وهذه الأشكال تكون تارة منفردة، وتارة تشكل مجموعات من عنصرين اثنين، أو من أربعة أو خمسة عناصر متحاذية أو متراكبة. وبالنظر لزنجارها Patine وللمكان الذي تشغله، فلابد أن تكون معاصرة للصور التي تصاحبها.

ولماذا رسمت ؟ ذلك ما يصعب قوله. وهل البعض منها علامات على التملك ؟ مثل تلك التي تُرى على كتف حيوان غامض من ذوات الأربع في خَنْقة الحجَر ؟، ومثل المجموعة التي من أربعة أحرف على شيء كأنه جُلّ Housse ومثل مجموعة الخمسة على عنق ثور آخر في الشعبة النائمة ؟ ولنلاحظ مع ذلك لاشك أن مجموعة من خمس علامات لا تكون ضرورية للمرء ليعرف الحيوان الذي يملكه. ولكن ليس لنا أي سبب وجيه لتأكيد أن هذه الرسوم قد كانت في حقيقة الأمر عناصر للكتابة، أي حروفا تمثل أصواتا. وبعد زمن طويل نعثر على أشباه لها في شمال إفريقيا وفي بلدان أخرى غيرها، إذ نجدها من بين علامات المحجرات أو مراكز الشغل منقوشة على الحجر المنجور، وحتى في أيامنا هذه نجدها من بين علامات التملك التي يخطها أهالي الصحراء على قطع الأثاث أو على الحيوانات، وبالخصوص على جِمالهم.

وهناك علامات صَفّية Linéaires مماثلة أو مطابقة لتلك التي تظهر على هذه الرسوم الإفريقية، ويعثر عليها في بلدان أخرى وترجع لعهد بالغ في القدم، بحيث نجدها مثلا على بعض العظام التي عولجت في العهد المجْدَلاني Magdalénien، وعلى أحجار صبغت حول نهاية العهد الحجري القديم، وعلى بعض الدُّلْمينات Dolmens. وفي مصر نجدها على بعض

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الفخاريات المعاصرة للأسرة الأولى، بل ولأقدم من ذلك[21]. هذه الرسوم بسيطة إلى حد أنها أمكن رسمها في مناطق مختلفة، بأيدي رجال لم يكن بينهم أي اتصال، ولعلها كانت لها دلالات مختلفة جدا، نجهلها نحن.

وأياً ما كانت الدلالة المعطاة للعلامات القديمة لشمال إفريقيا، فيمكن الافتراض بأن عددا قليلا منها قد استخدم - دون اقتباس من الخارج - في تكوين كتابة ليبية خاصة. وكل علامة وقع الاختيار عليها فقد أعطيت لها القيمة الصوتية التي للحرف الصامت، أما الحركات فهي ملغاة[22]. غير أن هذا الافتراض لا يكون مقبولا، لأنه يكرّم الأفارقة بفكر ذي تجريد وتبسيط منهجي لم يقدّموا براهين أخرى على وجوده، ثم إنه زيادة على ذلك لا يفسر التشابه الثابت للكتابة الليبية مع كتابات صفّية Linéaires أخرى، كانت مستعملة في العالم القديم، مثل جزيرة اقْريطِش Crète، وأرض الإغريق القديمة، وكاريا Carie، وفينيقيا، ومثل بلاد العرب [23] وإسبانيا[24]. فكثير من الحروف يظهر عليها التشابه، أو هي متطابقة تماما. والحق أن ذلك لا يمكن أن يعتبر برهانا قاطعا على وجود القرابة، إذا كانت الخروف لها نفس الشكل ولها قيم مختلفة، وهذا هو الواقع بالنسبة للبعض منها. ولكن بالنسبة لكثير غيرها، مما يقابل الحروف : g، و i (المقصود i الحرف أي الْياء لا الحركة)، و s الصافرة وحرف t، فإننا نلاحظ وجود التوافق الصوتي في الحروف المماثلة سواء في الألفباء الليبية من جهة، وفي الفِبْاءات أخرى، وهي الإغريقية العتيقة، والفنيقية، والكارية، والعربية والإيبيرية[25].

فألقي السؤال إذن عن الكتابة التي استعملها الليبيون، ألم تُستجلب إليهم من الخارج ؟ وذُكرت عدة افتراضات، منها الكتابة الإيجية والإغريقية، والكتابة العربية، والفينيقية[26].

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
غير أن ما نعرفه الآن عن الكتابات الإيجية، إنما يمكننا فحسب من ملاحظة الشبه الموجود فيها بين بعض الأحرف التي نجهل قيمتها الصوتية وبين بعض الأحرف الليبية. وهذا غير كاف لإثبات قرابة النسب. إن هذه الكتابات التي كانت علاماتها أكثر عددا مما في الليبية، قد كانت بدون شك كتابات مقطعية Syllabaires مثل الكتابة القبرصية المنحدرة من إحداهن، بينما الكتابة الليبية، هي كتابة ألفبائية. وكان التغيير يلزم الأفارقة مجهودا، يحتمل أنه يفوق ملكاتهم الفكرية.

أما الكتابات الإغريقية العتيقة، فإنها حقيقة ألفباءات، ونجد بها كما قلنا سابقا عدة حروف بنفس الشكل والصوت اللذين نجدهما بالحروف الليبية، غير أن الحروف المغايرة أكثر من الأخرى. على أن هذه الكتابات الإغريقية تتكون ليس من حرف صامت فحسب بل ومن حركات زيادة على ذلك. إذن، فإذا كان الأفارقة اتخذوا إحدى هذه الكتابات، فلماذا ألغوا الحركات ؟

وبين الألفباء الليبية والألفباءات العربية القديمة فإن التشابه في الشكل والصوت ينحصر كذلك في بضعة من الحروف. وعلاوة على ذلك فكيف أمكن حدوث الاقتباس ؟ إذ لم توجد أراض يجهل بعضها بعضا أكثر من أرض البربر وأرض العرب. وافتراض هجمة عربية واقعة قبل عهد الميلاد قول لا يعتمد على أية حجة جادة، وهو بعيد جدا عن الصواب. فتبقى الألفباء الفينيقية. ولنبدأ بتنحية حجة لا قيمة لها.

لقد رأينا من قبل أن أحرف الألفباء عند الطوارق تُسمّى تيفِناغْ Tifinagh، وهي في المفرد تافينق Tafinek. وقد افترح هانوتو Hanoteau أن يعطي لهذا اللفظ (الـ (حرف) فينيقي) فتقوم بهذا الحجة الملموسة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

على الأصل الفينيقي للألفباء الليبية. غير أن هذا الاشتقاق - مهما بلغت حصافته - فلابد أن يُنحَّى جانبا، لأن الفينيقيين، إذا كان اسمهم Phoinike عند الإغريق، فإن هذا اللفظ لا يبدو أنه يمثل الإسم الذي كانوا يسمّون به أنفسهم، ويسميهم به الأهالي اقتداء بهم.

وهناك براهين أجسن يمكن ذكرها: إن طريقة الكتابة التي اتخذها الأفارقة هي بالضبط نفس طريقة الفينيقيين. فهي عبارة عن ألفباء، لها عدد قليل من الحروف التي إنما هي حروف صامتة Consonnes ومع ذلك فإن اقتباسا مجردا، ليس أمرا مقبولا، إذا أردنا أن نجعل وقوعه (الاقتباس) حدث في عهد قريب من العهد الذي ترجع إليه أقدم النقوش الليبية المعروفة اليوم. فألفباء النقوش القرطاجية تظهر بمظهر مخالف جدا للألفباء الليبية. غير أن علاقات متتابعة قد تكونت بين الفينيقيين والأفارقة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بل وقبل ذلك من غير شك. فالكتابة الليبية لها قرابة بأقدم النقوش الفينيقية[27]، ذات الحروف بزوايا. وبعض الحروف التي لها نفس الصوت، لها نفس الشكل بالضبط. ومع ذلك، فهنا أيضا نجد الحروف المغايرة أكثر عددا من الحروف المتماثلة، فلابد من الافتراض إذن، بأن الأفارقة بعد اقتباسهم الألفباء الفينيقية، فإنهم يكونون قد غيروا فيها تغييرا كبيرا، ولم يحتفظوا منها سوى ببعض الحروف.

وهناك افتراضان آخران يمكن عرضهما، وهما :

1- إن الألفباء الليبية لا تنحدر مباشرة من الألفباء الفينيقية، بل إن الاثنتين معا تكونان متولدتين عن ألفْباء أكثر قدما، وتكون أعطت أيضا كتابات أخرى. وهذا هو ما يفسر المشابهة العامة في المظهر والتطابق

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
المادي والصوتي لبعض الحروف. أما الاختلافات فتكون ناتجة عن تبديلات واختيارات متنوعة حسب البلدان، فهي عمل امتد على عدة قرون. هذه النظرية قال بها ودافع عنها فَلَنْدرس بيتري Flinders Petrie وهي لاتأتي بالبرهان على وجود هذه الكتابة الأم، وتواجهها اعتراضات قوية، يطول شرحها هنا[28].

2- إن الأفارقة قد يكونون اتخذوا طريقة الكتابة عند الفينيقيين، التي هي عبارة عن استخدام عدد صغير من العلامات البسيطة جدا لتدوين تلفظ الحروف الصامتة، ولكنهم لا يكونون اتخذوا شكل الحروف الفينيقية، باستثناء أربعة أو خمسة من الأشكال المماثلة بالضبط للرموز أو العلامات التي كانوا يستخدمونها منذ عهد طويل. وفيما يخص الأحرف الأخرى التي لهم في الألفباء، فيكونون أخذوها من مجموعة هذه الرموز أو العلامات. وتنتمي الأحرف المقتبسة عن الفينيقيين إلى الأفباء القديمة لهذا الشعب، لا إلى التي كانت مستعملة في قرطاجة. فعلى هذا، يكون الاقتباس راجعا إلى عهد بعيد جدا، ما لم تكن هذه الألفباء قد حوفظ عليها في إحدى المستوطنات الفينيقية الأخرى بإفريقيا، حيث يكون قد عرفها مخترع الألفباء الليبية. وحسب رأيي، فإن هذا هو الافتراض الذي يحسن قبوله.

وقد ألقي سؤال عن هذا الاختراع أو هذا الاستعمال، هل لم يحدث في عهد حكم مسِنيسّا، أو بأمر مسِنيسّا الذي بذل جهودا عظيمة لتمدين رعاياه؟ إن هذا بعيد عن الصواب، لأن مسِنيسّا اتخذ البونيقية لغة رسمية، وبالطبع فإنه كان يود لها الانتشار. وإذا كان هو، رغما عن تفضيله للغة القرطاجيين، يرى فائدة في تزويد اللهجات الليبية بكتابة كانت تنقص هذه اللهجات آنذاك، فالمحتمل أنه كان يختار بكل بساطة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الألفباء البونيقية. مثلما وقع استخدام الألفباء العربية في العصور الوسطى لكتابة البربرية. والنقود ذات الغتين التي في دُقّة تبرهن على أن الألفباء الليبية وهي من 23 حرفا صامتا، لم تكن أكثر غناء ما لألفباء البونيقية وهي من 22 حرفا صامتا لنقل التلفظ باللغة الأهلية.

نحن إذن نقبل الاعتقاد بأن الألفباء الليبية قديمة جدا. ولكن نظرا لأن الأفارقة قليلا ما كانوا يشعرون بضرورة استعمالها، فذلك هو ما يفسر أن أقدم النقوش الليبية، التي لها تاريخ أكيد، لا يرجع لما قبل موسطة القرن الثاني. ولربما أن تقدم الحضارة في مملكة مسِنيسّا ومن خلفوه من بعد، قد جدد الإقبال على الحروف الأهلية. فقد اتسع استعمال الكتابة أكثر بكثير من ذي قبل. وبينما كان البعض من النوميديين، على غرار ملوكهم يتخذون اللغة والألفباء البونيقيتين، كان بعضهم بدون شك لا يريدون التنكر لميراث آبائهم. وأخيرا كان بعض آخر يقبلون اللغتين والألفباءين كما تشهد به نقوش دُقّة ذات اللغتين.

3

في المستوطنات البحرية التي كانت خاضعة لقرطاجة، كانت اللغة الفينيقية في آن واحد لغة رسمية ولغة متداولة. وفوق التراب القرطاجي أي فوق قسم كبير من القطر التونسي، كان كثير من الأهالي يفهمون لغة سادتهم ويتكلمون بها، مع قليل أو كثير من التحريف، ولم تكن تنقصهم الفرص لاستعمالها في الاتصالات الإدارية والاقتصادية، وبالخصوص في الخدمة العسكرية. وفوق هذا فالبربر يقتنون بسهولة اللغات الأجنبية.

وحين كانت قرطاجة لا تزال على قيد الحياة، فالراجح أن البونيقية بدأت تنتشر في إفريقيا، حتى خارج المدن والأراضي الخاضعة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
لقوانينها، في آن واحد على يد المرتزقة والمساعدين الذين يعملون، على غرار الرعايا الليبيين، في جيوش الجمهورية، وبفضل تأثير المستوطنات المتناثرة على سواحل السدرتَيْن، ونوميديا وموريطانيا، وبالتجارة كذلك، وخصوصا بالاقتداء بالملوك.

وهؤلاء الملوك، كان من المصلحة الكاملة لقرطاجة أن تربطهم بها، ليس بسياستها فحسب، بل وبحضارتها أيضا. فإقاماتهم بالمدينة العظيمة، وعمليات زواجهم يمكن أن تساعدهم على معرفة اللغة البونيقية. وبهذه اللغة كتب كل من سيفَكْس وابنه ورْمينا Vermina، ومسِنيسّا أسماءهم وصفاتهم الملكية على عملاتهم، وبها عبّر مسِنيسّا عن تمجيده لإحدى الإلهات المقدسة في جزيرة مالْطة.

إذن فعلى النقيض من ذلك، لم يكن هناك أي داع للتخلي عن البونيقية، لا في المستوطنات التي انتقلت إلى سلطة الملوك، ولا في أقسام التراب القرطاجي التي استولى عليها مسِنيسّا. وهناك نقود سكّتها مدن بحرية وهي تحمل كتابات بونيقية. وكانت متأخرة عن السيطرة القرطاجية، بل إن قسما كبيرا منها عاصر أوغُسْطس Auguste وثيبريوس Tibère، فهي تشهد نظرا لذلك بالاستعمال الرسمي للغة البونيقية حتى فيما بعد عهد الميلاد[29] وتتأكد حياتها في هذه الأماكن ببعض الكتابات العمومية أو الخاصة المنقوشة على الصخور. وتحدثنا نصوص قديمة أن الناس كانوا لا يزالون يتكلمونها في القرن الثاني للميلاد في مدينتي أويا Oea (طرابلس) ولِبْتيس Leptis (لَبْدة) بين السدرتين.

أما الملوك فقد لبثوا أوفياء لمثال سيفَكْس ومسِنيسّا. بحيث إن الكتابات البونيقية لم تزل تظهر – وبعد مرور قرن من الزمان بعد تخريب

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

قرطاجة – على نقود يوبا الأول وباخوس الصغير Bacchus le Jeune. ولم تكن البونيقية لغة رسمية فحسب للملوك، ولقد سبق لنا القول بأن الأدب القرطاجي لم يكن غريبا على الكثير منهم. وفي الأسر الملكية كانت الأسماء الفينيقية مثل آذَرْبَعْل Adherbal وهِيارْبَعْل Hiarbal، تختلط بالأسماء الليبية.

والأهالي، رعايا هؤلاء الملوك، كان من أراد منهم أن يخرج عن الهمجية Barbaria ويتركها، فلابد له أن يجتهد في الاقتداء بهم. ولاشك أن البونيقية انتشرت في المدن على الخصوص لأنها مراكز إشعاع حضاري تم بواسطة المدن، على غرار ما حدث من بعد مع اللاتانية والعربية. وفي المدن كانت البونيقية لغة الإدارة والتجارة، والمجتمع الراقي، ولغة هذه المعتقدات التي كانت تتجه عن رضى إلى آلهة قرطاجة. ولكون الحياة الحضرية اتسع نطاقها كثيرا في نوميديا الشرقية أكثر ما في نوميديا الغربية وموريطانيا، فإن اللغة البونيقية ترسخت فيها ترسخا قويا جدا.

ونقرأ الكتابات البونيقية على نقود المدن الداخلية، مثلما على نقود المدن البحرية. وهي نقود سِرْتا، وثَكُرَة Thagura ومواقع أخرى غير معينة. وفي ثُكّة Thugga، فإن النص البونيقي مقدم على النص الليبي في التكريس الرسمي للهيكل المقام لمسنيسّا سنة 139 قبل الميلاد. وجل النذور العديدة البونيقية التي عثر عليها بِسِرْتا، لابد أن يرجع تاريخها للقرن الثاني وللنصف الأول من القرن الموالي. كما أن كتابة في ألْثيبوروس Althiburos بجنوب الْكاف ليست أحدث عهدا على ما يحتمل. وقد سبق أن رأينا في كتابات سِرْتا، أن الذين كرّسوها يحملون جميعا – تقريبا – أسماء فينيقية، وأن هذه الأسماء لم تكن نادرة في الكتابات المعاصرة لها والمكتشفة في ثوكة Thugga.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
في العهد الإمبراطوري، كانت اللغة البونيقية منتشرة انتشارا واسعا خارج المدن، وعلى الأقل في بعض الجهات، على الخصوص في ولاية طرابلس، وفي موسطة القطر التونسي وبالشمال الغربي منه، وبالشمال الشرقي للقطر الجزائري. وليس البرهان الكافي لإثبات ذلك هو النقوش القليلة العدد – لأن الفلاحين الذين كانوا آنذاك يستعملون البونيقية، لم يكونوا قد تعلموها في المدرسة، وقليل منهم من كان يعرف كتابتها – بل إن النصوص[30] مرة أخرى، وعلى الخصوص منها ما كتبه الإفريقي القدّيس أوغسْطين، هي التي لا تترك شائبة شك في هذا المضمار. فحتى عهد الدولة السفلى، بل حتى عهد السيطرة البيزنطية، كان الناس يتحدثون بالبونيقية في بوادي مقاطعة طرابلس ونوميديا. وكثير ممن كانوا يتكلمونها لم يكونوا قد تخلوا عن اللهجة الليبية التي كانت لآبائهم، ثم إن عددا منهم كانوا يستطيعون التكلم باللاتانية[31]. على أن البونيقية لم تعد منذ عهد طويل لغة مقبولة من لدن الحكومة الرومانية في العقود العمومية، ولربما منذ عهد حكم ثيبيريوس Tibère. وعلى العموم فإن اللاتانية في المدن قد حلت محل البونيقية بعد مقاومة شديدة إلى حدما. فهي مثلا قد اختفت من الوجود من عهد باكر في سِرْتا، وقاومت بشدة في كلاما Calama، ومَكْتَريس Mactaris، وفي أوِيا Oea، ولبتيس الكبرى Leptis Magna. وختاما إنها لم تستمر موجودة سوى في البوادي.

متى وكيف استقرت بهذه البوادي ؟ نجهل ذلك. إن روما مع رفضها للاعتراف بها رسميا، لم تحاربها. وكما أن الفتح الفرنسي ساعد على انتشار العربية بين البربر، فيمكن أن نتساءل : هل الفتح الروماني لم يساعد على انتشار البونيقية بسبب التسهيل الكبير الذي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يسّر المواصلات في إفريقيا الشمالية ؟ ولكن لعل هذا الانتشار الذي انطلق من المدن، يكون قد بدأ قبل العهد الذي أخذت فيه البونيقية تخوض في المدن صراعا غير متساو ضد اللاتانية.

وهكذا، ففي عهد الملوك الأهالي، كانت لغة قرطاجة هي لغة التداول على نطاق واسع. وكان استعمالها يبدو ضروريا وسط فوضى اللهجات البربرية. ولابد أنها أعارت الكثير من مفرداتها لبعض هذه اللهجات[32]، ولو أنها لم تستطع مع ذلك أن تغير شيئا من بنية هذه اللهجات.

ولغة قرطاجة قدمت من المشرق، وتعرضت في إفريقيا للتغيرات، وحتى في عهد وجود قرطاجة التي استمرت لها علاقات متينة مع فينيقيا، فإن الأهالي الذين اتخذوا هذه اللغة قد ساهموا في تحريفها. وبالطبع فإن التحريف كثر اتساعه عندما لم تعد مستعملة في التخاطب سوى في إفريقيا، ولم يعد الناس في فينيقيا يتخاطبون سوى بالآرامية والإغريقية. وكذلك اتسع فيها التحريف لما فقدت في إفريقيا مركز القيادة. ومع ذلك فإنها كانت في عهد الملوك لا تزال لغة حضارة، بل ولغة أدبية. وفي عهد السيطرة الرومانية سقطت إلى مرتبة لغة الفلاّحين، وأصابها من التشويه ما يتعذر إصلاحه. ولا يمكن تأكيد الحجة على هذا الانهيار التدريجي إلا في بعض حالات النطق التي أوضحتها النقوش البونيقية، وفي بعض أسماء الأعلام المكتوبة بالإغريقية واللاتانية، كالإخفات في الحركات، وتليين حروف الحلق إلى حد يجعلها تكاد تلتبس، وكثرة إلغاء حرفي اللام والراء بقرب حرف صامت.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

إن الكتابة المعروفة باسم الكتابة البونيقية الجديدة (النيوبونيقية Néopunique) قد كتبتها في أول الأمر يد سريعة بواسطة مرقاش Pinceau أو رسم على المواد التي تتلقاها دون مقاومة. وهي تبسيط سريع للكتابة الفخمة المسماة بالكتابة البونيقية، وقد أخذت تختلط بهذه على استحياء في بعض النقوش الحجرية أثناء العهود الأخيرة لحياة قرطاجة. ولكن في النقش على الحجر كانت الكتابة البونيقية على العموم هي وحدها التي استمرت معمولا بها إلى أن تخربت المدينة سنة 146 ق.م.

وكذلك فإن الكتابة البونيقية هي التي نقش بها في ثوكة Thugga تكريس ضريح مسِنيسّا سنة 139 ق.م في عهد حكم مسبْسا. وعلى النقيض من ذلك، فإن تكريسا لمسِبْسا عثر عليه في شَرْشال، كان بالبونيقية الجديدة. ولكن لعل هذا التكريس يكون قد صنع بعد موت هذا الأمير بعهد طويل، إذ أن موته حدث في سنة 118 ق.م. والملوك الموتى، اللذين كانوا يعبدون كأنهم آلهة، كانوا لا يزالون ينالون التمجيد في عهد الإمبراطورية الرومانية. كما أن نقشاً على الحجر بالكتابة البونيقية الجديدة، عثر عليه في ولاية طرابلس، وهو يحمل إيضاح تاريخه بالضبط. فهو يذكر البروقُنْصُل الذي حكم ولاية إفريقيا حول سنتي 15-16 للميلاد. وفي النقوش الصخرية النوميدية، وهي نقوش باللغتين اللاتانية والبونيقية، فإن النص البونيقي، كان دائما بالكتابة البونيقية الجديدة. وكذلك فبالحروف البونيقية الجديدة كتبت النقوش البونيقية العديدة التي تحمل أسماء لاتانية. وهي آثار ترجع لعهد السيطرة الرومانية، ففي هذا العهد لم يكن النقاشون على الحجر يعرفون سوى الكتابة البونيقية الجديدة.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ونقرأ كتابات بالحروف البونيقية على نقود لسيفَكْس ولابنه ورِمْينا Vermina، ولمسنِيسّا المتوفى سنة 148ق.م[33]. لكن الألفباء البونيقية الجديدة كانت مستخدمة على نقود ملك نوميديا يوبا اللأول المتوفى سنة 46 ق.م، وكذلك على نقود ملك موريطانيا بوكوس المتوفى سنة 33 ق.م، وهذه الألفباء هي التي نجدها على النقود المعزوة لمسْتَنيسوسوس Mastanesosus الذي تولى الملك على نوميديا الغربية حول سنة 60 ق.م. وإحدى هذه القطع تظهر بها كذلك بعض الحروف التي هي من الكتابة البونيقية. أما النقود البلدية لسِرْتا، ذات الكتابات باللغة الفينيقية، فإنها متقدمة زمنا على احتلال الإيطالي سِتْيوس Sittius لهذه المدينة سنة 46ق.م، وقد استخدمت بها الألفباء البونيقية الجديدة. وكذلك الشأن على بعض النقود التي سكّتها بعض مدن السدْرَتَيْن وموريطانيا، والتي تؤرخ بأوغسْطُس وتيبِريوس. ومع ذلك فهنا وهناك تختلط فيها أيضا بعض حروف الكتابة الفخمة بالكتابة السريعة. ونفس الاختلاط نجده على قطعة نقدية من زيلي Zili بموريطانيا، متقدمة زمنا على إنشاء أوغسطس لمستوطنة بهذا المكان. وإنشاء المستوطنة يرجع لابد لما بين 33 و25ق.م.

هذه الملاحظات تتفق تقريبا مع ما يمكن أن يقال عن الجهات الأخرى. ذلك أن نقشا على الحجر بثلاث لغات، عثر عليه بهَنْشير العْوين Henchir Aouin بولاية أفريكا Africa، ويؤرخ على ما يحتمل ب 91 قبل الميلاد نجد به النص البونيقي بالكتابة الفخمة، مع بضعة حروف من الكتابة السريعة. وفي إحدى كتابات سردانية التي ترجع على وجه التقريب لما بين 80 و50 قبل الميلاد[34] نجد الكتابة البونيقية الجديدة متغلبة، ومعها عدة من الحروف القديمة. وتسيطر دون شريك في بعض النقود المضروبة في جزيرة يابسة (Ebusus, Ibiça) وفي إسبانيا في عهد تبِيريوس.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

فيمكن أن نلخص أنها بصفة عامة في مجرى القرن الأول قبل الميلاد حلت محل الكتابة الفخمة على الحجارة وعلى المعدن، باكرا على الحجر، ثم بعد ذلك على المعدن مع حقب انتقالية متفاوتة في الطول، بل وفي بعض الأماكن مع إصرار الألفباء القديمة على البقاء حتى إلى ما بعد عهد الميلاد.

ومن المحتمل أن اللغة الفينيقية، اختفت بسرعة من سِرْتا عندما أصبحت العاصمة النوميدية مستوطنة رومانية. غير أن المجموعة الغنية من النذور البونيقية التي عثر عليها في قسنطينة، تزودنا بكتابات بألِفْباء بونيقية خالصة، وكتابات أخرى تكاد جميعا تكون بالبونيقية الجديدة، وبكتابات أخرى – هي في الأخير أكثرها – تختلط فيها الكتابتان. وحسبما تقدم، فإن كتابات سِرْتا التي بالبونيقية الجديدة يمكن وضعها في تواريخ مجاورة لأواسط القرن الأول ق.م، التي بالبونيقية للقرن الثاني، والمختلطة لما بين ذلك. ونفس الأسس تستعمل للنقود التي عليها كتابات باللغة الفينيقية، لتأريخها بالتقريب وحسب شكل الحروف التي اعتراها التلف تقريبا.

أما الكتابات المخطوطة بالبونيقية الجديدة أو بالكتابة المختلطة المنقوشة على الصحون أو المرسومة على جرّات رماد الموتى، فلا يستحيل قبول تواريخ أكثر قدما، لأن لدينا براهين على أن هذه الكتابة، باعتبارها كتابة سريعة وعادية، قد سبق لها أن كانت مستعملة زمنا طويلا قبل تخريب قرطاجة.

ولم يكن لها آنذاك – ولا فيما بعد – شكل موحّد دقيق. فالكتابة الفخمة اعتراها التشويه على أنماط مختلفة. ويتميز نمطان على الخصوص. يقول فيليب بِرْجي Ph. Berger [35] : «تارة تكون الحروف

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

على العموم كبيرة جدا، محتفظة إلى حدما بأشكالها الأولية، فرؤوس الحروف لا يزال يسهل التعرف عليها، وذيولها تمتد بسيقان طويلة في كل اتجاه وتتجرجر كأنها أعضاء تعوزها الأعصاب. وتارة أخرى هي على النقيض من ذلك، فباستثناء حرف أو حرفين يقذف بهما إلى خارج السطر، فإن الحروف متقلصة، تتحول إلى ما يشبه العلامات الفواصل في الكتابة Virgules. وهي تتشابه إلى حد التباس بعضها ببعض، الأمر الذي يجعل قراءة هذه الكتابات مشكوكا فيها». ولكن بين هذين النمطين المتميزين بوضوح هناك كتابات متوسطة.

وكما حدث للألفباء، فإن الإملاء قد أصيب في نفس الحين بتغيرات أصبحت كثيرة في العهد الروماني : فحروف الحلق تلغى أو يعوّض أحدها الآخر، مثل (الألف Aleph، والهاء Hé والحاء Heth، والعين Aïn) التي اختلط نطقها أو لم تعد تنطق مطلقا، أو أصبحت تستخدم مع الياء Yod والواو Waw لتدل على الحركات التي كانت غير معروفة حتى الآن.

5

إن الإغريقية لغة لإحدى الحضارات التي تدين لها قرطاجة بالشيء الكثير. فكان باستطاعة هذه اللغة أن تحدث تأثيرها على بعض العقول المتعطشة للثقافة. ومن بين هذه العقول يجب – على ما قيل – ذكر ابْنَيْ مسنيسّا، وهما مسبْسا ومَسْتَنبَعْل[36]. وليس من قبيل الصواب أن تكون الجَالية الإغريقيةَ الَتي بسِرْتا قد اجتهدت لنشر لغتها بين سكان هذه المدينة. على أن التردد على الموانيء النوميدية والمورية من جانب البحارة والتجار القادمين من البلدان الإغريقية بالمشرق، ومن صقلية، ومن بلاد الإغريق الكبرى، ربما كان له تأثير أكبر. والحق أننا لا ندري

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
عن ذلك شيئا. لكن اللغة الإغريقية يبدو أنها كانت متداولة تداولا اعتياديا على ساحل السدرتَيْن، بجوار سِرْنيكا (بَرْقة) التي كانت أرضا إغريقية[37]. ولاشك أن هذه المقاطعة هي التي ضربت بها في القرن الثاني النقود التي تحمل الكتابة : ليبوون λιβυων، وحرفاً بونيقياً واحدا كذلك.

أما اللاتانية فقد كان انتشارها قليلا جدا في نوميديا كما في موريطانيا إلى غاية النصف الثاني من القرن الأول ق.م. لقد كانت روما من حين لآخر تطلب من الملوك حلفائِها بعضَ الجيوش المساعدة، غير أن عدد الرجال الذين كانت تتاح لهم هذه الفرصة ليتعلموا قليلا من اللاتانية، قد كان أقل بكثير من عدد الجنود الأفارقة القدماء الذين كانوا عند قرطاجة. أما التجار الإيطاليون الذين كانوا يأتون للتعامل، بل وحتى للإقامة في الموانئ وفي بعض مدن الداخل، فقد كانوا أصلا من أرض الإغريق الكبرى على الخصوص. ولكي يتفاهموا - في حالة جهلهم للبونيقية، أو إذا لم يلتجئوا إلى التراجمة - فلربما كان الأحسن لهم أن يستعملوا اللغة الإغريقية، لااللاتانية.

على أن اللغة اللاتانية كانت هي لغة الجمهورية العظيمة، التي كانت مسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت تقصد معاملة الملوك الأفارقة وكأنهم أتباع. وقد تعلّمها يوغرطة عندما كان يعمل بالجيش الروماني المحاصر لمدينة نومَنْصا Numance بأسبانيا. والأغلب على الظن، أن الملوك الذين تلوا من بعده، قد كان الكثير منهم مُلمّين باللغة اللاتانية، مثل گَوْضا Gauda الذي حارب مع الرومانيين أثناء الحرب الطويلة التي خاضها يوغرطة، ومثل يوبا الأول الذي كانت له علاقات متينة في رومة وفي إفريقيا مع أكبر شخصيات الجمهورية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وعندما سكّ هذا الملك نقودا من الفضة تقليدا منه للدولة الرومانية، فإنه كتب على وجه العُملة اسمه وصفته باللاتانية : الملك يوبا Rex Iuba، وعلى ظهرها نفس المعلومات بالبونيقية، اللغة الوحيدة التي استعملها على نقوده البرنزية. أما معاصره، الملك الموري بوگود Bogud، فإنه تخلى عن اللغة البونيقية، وأمر أن يكتب «الملك بوگوت Rex Bogut» على دوانقه وقطعه البرنزية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الحياة الفكرية والروحية

الفصل الثاني

الديانـات

1

لايزال الكثير من البربر حتى اليوم يزاولون القيام بممارسات ذات أصل سحري، هي عبارة عن طقوس آلية. وهم يقلدونها أو يثيرونها لتعطي النتائج المرجوة. ويباشر هذه الطقوس، إما أفراد لا يبحثون عن منفعة شخصية لهم، وإما مجموعات تعمل جماعيا ولمصلحة الجميع، من غير احتياج في العادة إلى كاهن ولا إلى الاجتماع في معبد.

وفي هذا الموضوع مجال فسيح للدراسات التي شُرع حديثا في استجلائها، فالأعمال العلمية المتميزة التي أنجزها كل من السادة : دوتّي Doutté، ومَرْصي W. Marçais، وبِلْ Bel، ودسْتانْگ Destaing، وبِيرْني Biarnay، وهَنْري باصّي H. Basset، ولاوُسْت Laoust ، ودسْبَرْمي Desparmet، وغيرهم، وكذلك ما قام به العالم الفنلندي وِسْتِرْمارْك Westermarck كلها جهود أولية في بحث يجري ويصاحبه التوفيق.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وفي هذا البحث مصاعب كبيرة، ذلك أن المراقبة الدقيقة للأحداث توجب التعود على أخلاق الأهالي وعلى لغتهم. فبعض الطقوس ذات الأصول المشتركة، قد تغير مغزاها إلى دلالات مختلفة حسب الأمكنة. بينما غيرها التي كانت في أول الأمر مستقلة قد اقترب بعضها من بعض أو تشابكت فيما بينها. من ذلك مثلا أفراح الكرنفال ونيران المباهج Feux de Joie، والعمليات التي يراد بها التطهر، والطقوس الزراعية أو الشمسية. كما أن الاعتقاد بوجود الجنون، والآلهة، والإله الواحد، قد خلطت أعمال الاسترضاء بالعمليات التطبيقية للسحر. وكذلك فإن بعض الاحتفالات التي لا تفسير لموضوعها إلا بالتواريخ التي كانت تقام فيها قديماً، قد جرى نقلها إلى بعض أيام الأعياد الإسلامية. فينبغي التنبيه لهذه العناصر الأجنبية، وتنحيتها لبلوغ الأصل الأولي. وعند الوصول إليه نكون أمام طقوس بالغة في التشعب غالبا، متولدة عن تجمع أفكار شاذة وغامضة، طقوس يكاد مغزاها أن يكون دائما مجهولا عند الأقوام الذين عاشت لديهم. وهناك أمثال لهذه الطقوس استمرت موجودة في جهات أخرى، وقد درسها كل من مَنْهارْدت Mannhardt وفْرازِرْ Frazer وتلامذتهما، وهي ترشد حقا في التأويل، إذا كانت الشروح المقترحة يمكن النظر إليها على أنها شروح ثابتة حقيقة.

إن معرفتنا الآن سيئة بالطقوس التي في شمال إفريقيا وتتعلق بالقطعان وباستخدام منتجاتها. أما المتعلقة بالحبوب الزراعية فكثيرة، وهي تقام عند الحرث، وعند رمي البذور، وفي الحصاد وعند الدراس. فلابد على الخصوص من الحصول على الأمطار الضرورية جدا للمحاصيل، وهي أمطار كثيرا ما تُرجى تحت السماء الإفريقية. وعند الانقلاب الصيفي للشمل يقع الاستحمام أو الرش بالماء، ويصاحب ذلك

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
نيران المباهج التي سنتحدث عنها. وإذا حدث جفاف طويل العهد، فهناك طقوس أخرى من بينها أيضا الاستحمام طوعا أو كرها. وهناك الطواف بمغرفة القدر، وهي كبيرة ومن خشب (واسمها غنجة Ghonja)، والراجح أن المغرفة كانت في الأصل مجرد بديل سحري عن الأرض الظمأى ولكنها بعد تطور لاحق، تحولت شخصاً يُدعى «خطيبة أنْزار Fiancée d'Anzar» و«أنزار» اسم مذكّر يعني المطر وتُكسى الخطيبة أي المغرفة بلباس غريب من الأسمال التي تحيل الخطيبة إلى دُمْية خشنة. ولابد من مساعدة طاقة الشمس حين تأخذ في التناقص، ويكون ذلك بإيقاد النيران في الأنقلاب الصيفي للشمس، وهذه النيران تقابل نيران أعياد القديس يوحنا Feux de la Saint-Jean. وكذلك بعض الممارسات الجنسية التي سبق لنا الحديث عنها، فهي لاشك تهدف إلى تقوية الخصب في الطبيعة، وفي النباتات المغذية على الخصوص. وهناك طقوس أخرى تجدد في النباتات القوة الحيوية التي ضعفت بعامل السن. والبديل السحري لهذه القوة يكون «مُسنّاً»، حيوانا كان أو إنسانا. وكان في الأوائل يقتل بالنار عادة، ولكن القتلَ لم يعد سوى صوري، أو أصبح يستعاض عنه بدمية شاخصة. وهذه الطقوس، حيثما لم تستول عليها الأعياد الإسلامية، فإن الاحتفال بها يقع في نهاية الشتاء أو في الربيع، فهي تقابل الكرنفال. وكما في بلدان أخرى، فإنها تكون محلاً لملابس التنكر الهزلي، وللألعاب المضحكة الصاخبة.

وهناك أيضا الطقوس التي تصاحب الولادة، والزواج والجنائز، وغير هذه التي تكون للبناء، ولاستصلاح دور السكنى ولحفر الآبار وغير ذلك.

أما الطقوس المخصصة لطرد الشرور بجميع أنواعها، فهي على أنواع كثيرة، من ذلك الاستحمام، والمشي خلال النيران، والمعارك التي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يقع فيها تبادل الضربات لزحزحة العدوّ، ونقل الشر إلى حيوان يطرد بعد ذلك أو يقتل، أو نقل الشر إلى خِرَق تربط على الأشجار، أو إلى أحجار تلتقط ثم ترمى.

ليس هذا محل الدراسة المفصلة لهذه الممارسات ولكثير أخرى غيرها. إنها مجال للإثنوغرافيا، للتاريخ الذي يحتاج إلى المعالم التاريخية، لكن يستحيل أن نعرف هنا متى اتخذ البربر هذه الطقوس، ومتى طرأت عليها التغيرات التي حرّفت خصائصها الأولي.

أما رجوع أكثرها إلى عهد بالغ في القدم، فذلك ما لاشك فيه. وعلاقة القرابة التي تربطها بالتي نجدها في بلدان كثيرة مختلفة، تشهد بوجود أصل مشترك بالغ في القدم[38]. ووسائل الإكراه التي تستخدمها تجاه قوات الطبيعة، والدور المهم الذي تخص به النساء في العمليات الجماعية، كل ذلك يتعارض مع روح الإسلام. على أن البعض من هذه الطقوس قد ذكرت باختصار في بعض النصوص الإغريقية واللاتانية، كالطريقة والاحتفال للحصول على المطر[39]، ولطرد الشر[40]، أما ليلة الغلطة التي هي من طقوس العمليات الجنسية، فقد كانت معروفة لدى أحد معاصري أوغسطس[41]. كما أن أحد أعياد الابتهاج الذي كان في عهد يوغرطة يجري، حسب قول سالُسْت، في جميع إفريقيا، ويقام عند نهاية فصل الشتاء فيمكن أن يكون عيدا للكرنفال.

في كل هذه المجموعة من الطقوس التي عاشت حتى أيامنا نحن، لا نجد أي أثر لمؤثرات بونيقية. فإذا كان الفينيقيون قد استعملوا طرائق مماثلة لضمان تجدد النبات، ولمساندة قوة الشمس، فإنهم قد أحكموا ربطها بأساطير وبعبادات للآلهة، وذلك منذ عهد سابق على وصولهم إلى

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
شمال إفريقية. وإن أكثر ما يمكن قبوله، هو أن مثالهم قد دفع بالأهالي إلى أن يدخلوا الدين في السحر، وعلى وجه المثل : ففي أحد الطقوس لإنزال المطر تتحول المغرفة إلى ما يشبه المعشوقة، وهي صورة الأرض المتشخصة، ويتجه إليها بالتضرع، والحق أننا لا وسيلة لدينا لمعرفة متى وكيف حدث هذا التغير(42).

ويبدو أن التأثيرات اللاتانية قد كانت محدودة جدا. فهنا وهناك انتقل تاريخ نيران المباهج وتاريخ الكرنفال إلى اليوم الأول من تقويم جُلْيان Calendrier Julien، وبهذا فإن طقوس التجديد لم تعد تنطبق على الشمس أو على النبات، وإنما تنطبق على السنة. وفي هذه الأعياد تستعمل ألفاظ، أعطيت لها أصول لاتانية، وهي بونْعان Bounânn، بون إنّي Boun Ini أو بو إنّي Bou Ini، بِيانّو Byanno، بِنّايو Bennayo وغيرها، غير أن الشرح المقترح لذلك، وهو Bonum annum لا يمكن النظر إليه بعين الاعتبار.

أما المسيحية فلم تخلف في أي مكان أثرا أكيدا. بينما الإسلام كان عليه أن يقضي على هذه الطقوس، أو أن يبقى أجنبيا عنها كلية، في حالة ما إذا لم يستطع محوها. ولكنه على وجه العموم لم يتخذ هذا الموقف الصلب، بل إنه طوعا أو كرها مال إلى التراضي. فالتوجه إلى الله، والاستغاثة بالأولياء - أحياء أو أمواتا - قد ارتبطت ارتباطا متينا بالعمليات الآلية. والأعياد الفصلية، أكثرها استولت عليه الأعياد الإسلامية المحددة، حسب السنة القمرية التي هي من 354 يوما، في تواريخ مستقلة عن الفصول، بحيث إن الكرنفال ونيران المباهج يقع اليومَ الاحتفالُ بها في عدة جهات في العيد الكبير (عيد الأضحى) أو عيد المولد النبوي، وعلى الخصوص في عاشوراء.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

بل ويمكن التساؤل : عن التأثيرات السودانية التي حملها العبيد معهم، ألم يكن لها تدخل في بعض الطقوس ؟ وهل لم تدخل هي طقوساً أخرى جديدة ؟

ولكن من خلال هذه التغيرات، فإن ما استمر موجودا بحيوية كبيرة إلى حدما، هو مجموعة من الممارسات التي تضيع أصولها في أزمان سابقة على التاريخ.

2

منذ العهود الحجرية، والأفارقة يعلقون معهم أشياء كانت عبارة عن تمائم، ولم تكن حليات. وقد استمرت هذه العادة إلى أيامنا هذه، والحماية التي تضمنها التمائم يمكن أن تكون إما من جنّي، وإما من أحد الآلهة، الذي يضع في التميمة بطرق مختلفة جزءا صغيرا من قدرته. ولكنها في الاعتقادات البدائية، ربما كانت عبارة عن قوة غامضة تأتي وتتركز فيها، أو كانت عبارة عن تيار مَغْنَطيسي متناثر خلال العالم.

وأيضا فلربما أن هذا التيار الذي يتراكم في بعض الأحياء، يكسبهم قدرة خاصة يخاف منها كثيرا، وترجى كثيرا. ويمكن أن نحاول تجاههم التأثير بوسائل الأخبار التي يوفرها السحر. على أنه كان من الأفضل محاولة إثارة اللين في هذه الكائنات المتزودة بالعقل والعزم. وهكذا فالشعور بالخضوع أوجد الدين.

إن البربر في غالبيتهم متدينون، ويشعرون أن لهم رسالة. وهم يدافعون عن معتقدهم بحمية، تشهد بها على الخصوص تلك السلسلة الطويلة من الفتن والحروب التي جرت في القرون الأخيرة من أعصر

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
التاريخ القديم، وكذلك في القرون التي تلت الفتح العربي. ولكن نظرا لأن الخيال ينقصهم، ونظرا لكون فكرهم قليل الميل إلى التصوف، فإن تدينهم لم يخرج أبدا عن مجال الطقوس، التي تمارس بانتظام وورع.

وقد مارس بعض أجدادهم عبادة الحيوانات Zoolâtrie. فقد لوحظ بالصحراء عند الطوارق وجود بقايا من الطوطمية Totémisme، التي هي الاعتقاد بوجود علاقة نَسَب بين مجموعة بشرية ومجموعة من نوع حيواني، وتعيش المجموعتان معا بنفس المقاطعة الترابية. ولكن من المقبول أن يكون قد حدث في هذا اقتباس عن السود أهل السودان. وقد سبقت لنا الإشارة إلى أن الطوطمية يمكن أن تربط بها الممارسات التي ذكر بعض الكتاب القدماء وجودها لدى بعض شعوب بلاد البربر نفسها. وهو افتراض قدمناه بكثير من الاحتياط، ولم يقبله الأستاذ ڤانْ جِنِپْ Van Gennep[43]. إننا نعترف أن النصوص المقدمة لا تمكّن من القول بنتيجة أكيدة، ثم إن الحدب والعناية اللتين لايزال البربر حتى اليوم يولونهما لبعض الحيوانات، وكذلك الوساويس التي تمنعهم من ذبحها ومن أكل لحمها، هي قَطعاً ليست براهين في صالح هذا الافتراض. وعدا هذا، فالطوطمية ليست دينا متجها إلى كائنات تُعتبر أسْمَى من أقربائها الإنسانيين المزعومين.

ولكن لا يمكن الشك في أن حيوانات، كانت منذ عهود بعيدة، قد اختيرت من بين نوع بعينه، وأنها تبعا لعلامات خاصة دون شك، قد كانت لها سمة التقديس حقيقة. ولابد من الرجوع إلى الرسوم الصخرية التي يرجع تاريخها ربما إلى الألف الثانية قبل الميلاد[44]، وفيها يظهر كبش، تحيط بعنقه قلادة غالبا، وعلى رأسه شيء ضخم مستدير الشكل هو كرة لا قرص، ويثبتها على ما يبدو شيء كأنه رباط يمر تحت حنكه.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

كما أن رسوما مماثلة لتلك التي كانت معروفة بجنوب منطقة وهْران، قد وقع العثور مؤخرا على بعض منها بجنوب القطر الجزائري، وعلى بعض آخر بناحية قسنطينة. وفي ذلك برهان على سعة انتشار عبادة الكباش. أما أن تكون العبادة قد أقيمت أمام الرسوم المسطورة على الصخور، فهناك ما يدعو إلى اعتقاد ذالك. ولكن لا تفسير لهذه الصور إلا بأن عبادة كانت تقام للحيوانات الحقيقية التي تمثلها الصور. وهذه الصور تضمن للحيوانات امتياز كونها موجودة أثناء حياتها في أماكن متعددة، وتضمن لها البقاء بعد موتها. ولابد أن قبائل كثيرة كان لها كبشها أو كباشها المقدسة[45]. وكان بعض البرابرة الساكنين بجبل وعر بالجنوب المغربي لا يزالون يعبدونه بعد عشرة قرون بعد الميلاد. ولماذا هذه العبادة ؟ فهل اتخذها الرعاة، لكونها ذات علاقة متينة بتربية الماشية، ويُقصد بها ضمان نماء القطعان ؟ من الممكن افتراض ذلك على الأقل.

والغطاء الدائري الشكل الذي يغطي رأس أحد الكباش المنقوشة في «بوعالم»، له على الجانبين حاشيتان طويلتان تتسعان عند الأعلى، وتنتصبان متقابلتين، فظننتُ كما ظن غيري معي، أني أرى شعارا مصريا حقيقيا، هو القرص الشمسي وعلى جانبيه ثعبانان بعنق منتفخ. هذا الشعار كان آمون Ammon إله طيبة Thèbes قد حمله - مثل آلهة أخرى بوادي النيل - بعدما اندمج في إله هيليوبوليس Héliopolis، وأصبح إلها شمسيا هو آمون رَعْ Amon-Ré، أي أمون الشمس. غير أن آمون طيبة كان في مبدأ الأمر إلها كبشا، بحيث كانوا يمثلونه، وله رأس كبش في الأعصر التاريخية في طيبة، وكذلك في واحة سيوَة (بالجنوب الشرقي لسرنيكا "بَرْقة") التي كان بها معبد شهير لألهة طيبة. وكنتُ خرجت من ذلك بنتيجة، هي أن العبادة المصرية لآمون، الذي هو في آن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

واحد كبش وشمس، كانت قد انتشرت خلال أرض البربر منذ الألف الثانية قبل الميلاد. ولكن هذا الافتراض لا يبدو لي اليوم مقبولا.

فقد لاحظ البعض أن الحاشيتين اللتين على الرسم في بوعالم يظهر بهما خط يقسمهما إلى قسمين في الاتجاه الطولي، وذلك يتوافق مع ريشتين لا مع ثعبانين. كما أن رسما آخر في قَعْدة الخَرّوبة Gâda de Kharrouba، به غطاء رأس الكبش المقدس، وعلى جوانبه أربع حواش موضوعة في تقابل، زوجان منها في الأعلى، وزوجان في الأسفل، فيبدو حقيقة أنها ريشات. ولدينا اليوم استنساخ Reproduction بديع لأحد كباش فجّ زْناگة Col du Zenaga، فيه الكرة محوطة بحواش تنتشر حولها، وبعض هذه الحواشي - وهي أربع - لها نفس الشكل الذي بالرسوم السالفة، بينما بعضها الآخر - وعددها سبعة - هي مجرد خطوط متمددة وفيها انحناء خفيف. فيحتمل جدا أن الفنان أراد رسم حزمة من الريش. وفي رسم آخر بنفس المكان، نرى ثلاث مجموعات من الخطوط المستقيمة أو المنحنية انحناء خفيفا تنتشر حول الكرة، والصورة السالفة تفسرها. وفي مكان آخر ليس للكرة حواش. وبهذا فالافتراض يلغى، لأن الثعابين المزعومة هي التي كان من شأنها أن ترينا الكرة صورة للشمس. فنحن إذن أمام شعار ديني لاشك، ولكننا نجهل طبيعته الحقيقية ومغزاه. إنه شيء يشبه اليقطينة Calebasse، وتربط فيه ريشات منتصبة. فليس في هذا أي شيء مصري. وكباش النقوش الصخرية الجزائرية لن يمكن وصفها بأنها آمون رَعْ. إنها حيوانات مقدسة، يبقى بعضها متميزا عن بعض، ومع أن التكريمات المؤداة لها تكتسي أشكالا متماثلة عند مجموعات بشرية منتشرة في الجزائر من قسنطينة إلى ما يقارب فيگيگ. وسنبحثُ هل آمون طيبة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الذي تلقاه قسم من الليبيين، لم يحدث فيما بعد تغييرا في هذه العبادة الحيوانية Zoolâtrie. غير أننا الآن لم يعد لدينا أي مسوغ للاعتقاد بأنها في مبدأ الأمر كانت مشتركة مع إحدى العبادات الشمسية.

وكذلك الثور، فإنه كان أيضا حيوانا مقدسا عند بعض القبائل بشمال إفريقيا. ويمكن التساؤل، ألم يكن هذا هو الحيوان، ذا القوائم الأربع، الذكر، ذا القرون، الذي يظهره لنا نقش صخري سيء في بوعالم وعلى رأسه خطان طويلان منتصبان؟ فقد يكون الخطان ريشتين مثل تلك التي تحيط بالكرة التي على رأس الكبش. وفي القرن السادس للميلاد كان اللّكّوانْتيون Laguantan، وهم عشيرة من ناحية السدرتَيْن، يرسلون على العدو، قبل خوض المعركة، ثورا كان لديهم بمثابة قائد للحرب، ويقولون عنه أنه يمثل إلههم كُرْزيل Gurzil، المولود من آمون وبقرة. وهو الاعتقاد بحلول أحد الآلهة في أحد الحيوانات، لاشك أنه حل لديهم محل العبادة الحيوانية المحضة.

ودون مبالغة كبيرة، يمكن القول إن عبادة الإنسان Anthropolâtrie لا تزال مهيمنة في بلاد البربر، التي لا يوجد مكان سواها يقدس فيه الأولياء بورع كبير. ولهؤلاء الأولياء الصلحاء قوة مقدسة تجعلهم فوق غيرهم من الناس، وتجعل لهم تأثيرا يحدث مفعوله عند لمسهم بل وعند الاقتراب منهم. فالمفعول عمل نافع يشفي الأمراض على وجه العموم، ويبعد المصائب، ويضمن النجاح في الأعمال، ولكنه قادر أيضا على أن يصيب بالشرور الكبيرة عدلا أو انتقاما. فالكرامات، وعيشة الزهد، والورع الفائق، والأحوال غير العادية التي يسببها تعطيل التفكير، ما لم تكن تظاهرا مصطنعا، بالإضافة إلى علامات أخرى، تشهد كلها أن إنساناً محظوظا له هذه القوة المقدسة. والمرء الذي تعترف له أقوال

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الناس بالولاية، يسلمها لورثته الطبيعيين أو لمن يختارهم هو. والولاية لا تتخلى عنه هو عند موته، ولكنها تشع من حول قبره. ونضيف أن تقديس الأولياء، غالبا ما يحافظ على الطابع المحلي، فلكل جهة أولياؤها الذين لا يجدون لهم أتباعا في غيرها، إلا في بعض الحالات.

فبفضل الله وعلى اسم الله يقدم الأولياء البراهين على قدرتهم، وبهذا فإن هذه العبادة تكون قد اندمجت إذن في الديانة الإسلامية. ولكنها دون شك شكل من أشكال التقوى السابقة على الإسلام، وأن هذا الدين تقبلها، لأنه لم يصل لجعل خضوع المؤمنين مخصوصا بالله وحده. ولربما أن الإقبال الكبير على تقديس الشهداء المسيحيين بإفريقيا، يمكن تفسيره إلى حدما بأسباب مماثلة.

أما بالنسبة للأزمنة القديمة، فلدينا البراهين على وجود عبادة الإنسان للإنسان Anthropolâtrie، ولكنها عبادة للملوك خاصة. فالكثير من الكتّاب المسيحسيين، مثل ترْتولْيان Tertullien، ومنوكْيوس فيلِكْس Minucius Félix، وسانْ سِبْريان Saint Cyprien، ولَكْتانْس Lactance يؤكدون أن الموريين كانوا يعبدون ملوكهم، ومن بينهم الملك يوبا Juba. وتشهد بهذه العبادة عند النوميديين كما عند الموريين، بعض الكتابات التي عثر عليها في إفريقيا. وبعد موت مسِنيسّا بعشر سنين أقيم له معبد Temple في ثوكا Thugga، وكتب تكريسه الذي وقع الآن العثور عليه باللغتين البونيقية والليبية. كما أن كتابة بالبونيقية الجديدة قد عثر عليها بشَرْشال، ولربما أنها تذكر هيكلا Sanctuaire لمسِبْسا، ولربما أن الكتابة متأخرة بما لا يقل عن نصف قرن على موت هذا الملك. وكذلك فإن كتابات لاتانية ترجع لعهد الإمبراطورية الرومانية، وهي عبارة عن تكريسات Dédicaces للملوك كولوسا Gulussa، وهيمْبسال Hiempsal،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ويوبا Juba وربما إلى مسِنيسّا، ويوصفون فيها ربما بصفة إله Deus. والأمر بالنسبة لهذه النصوص المنقوشة يتعلق بأشخاص موتى، لا يزال لهم عبّاد بعد موتهم بزمن طويل، كما أن الكتاب المسيحيين تحدثوا عن عبادة تُقدم إلى الموتى[46].

وهل كان ملوك نوميديا وموريطانيا في حياتهم يُعبدون كالفراعنة في ذلك؟ ليس لدينا على ذلك برهان. وفي شرَشْال تكريس مهدى إلى : Geni(o) regis pto(lemaei), regis(Iubae) F(ilü)، فهنا جنّي الملك (أي روحه أو عبقريته أو ذاتيته المعنوية)، لا الملك نفسه، هو الذي يُمجَّد كمعبود[47]، وإن كان ذلك لا يمنع مطلقا من أن نستنتج أن بطلمي Ptolémée كان إلها لرعيته. ولبرما أن هذه الكتابة تكون قد نقشت بيد أحد الرومانيين، أحد الأجانب، وأنه لم يعتبر نفسه ملزما تجاه الملك بشعائر العبادة مثل الموريين. وكان يوبا الثاني أبو بطلمي قد رسم نفسه على العدد العديد من نقوده، حيث كان يبدو رأسه مغطى بجلد «أسَد نيمي» Lion de Némée وكان يدّعي أنه من ذرية هيركَلْيس. غير أن هذه النقود كانت تقليدا لأمثلتها الإغريقية. وكان يوبا يصل نفسه بهيركليس الإغريقي. فإذا كان الأهالي قد عبدوه كإله حي، فلابد أن تلك العبادة كانت على نحو آخر.

ولقد سبق أن أوضحنا أن الملك بالنسبة لهؤلاء الأهالي قد كان قبل كل شيء قائدا حربيا، يمسك بصفة أو بأخرى بمجموعة من القبائل تحت سيطرته. وفضلا عن ذلك أصبح على ما يبدو شخصية مقدسة. ويمكن تفسير ذلك، ليس فحسب بميل الأفارقة إلى عبادة الإنسان التي يشهد لها تقديسهم للأولياء، بل ويمكن تفسير ذلك أيضا بإرادة أحد ملوكهم، الذي هو أكبرهم والذي ربما اقتبس ذلك من البطالمة Les Ptolémées ورثة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الفراعنة. إنه مسينيسّا الذي لعله استحسن تقوية سلطته فأضفى عليها طابعا إلهيا، وأما الذين خلفوه على الملك فيكونون احتذوا مثاله.

3

إن الاعتقاد بالجن منتشر بكل مكان في أرض البربر. وهو اعتقاد ليس مخالفا للإسلام، الذي يقبل وجود الجن، وإن كان ليس هو الذي أدخل الجن لهذه المنطقة. هذه الأرواح كثيرة ولا يحصى عددها، لكنها مجهولة ولاجِسْمية، أو هي حبيسة في غلاف بالغ الدقة حتى إن الأعين البشرية لا تراه. وهي تسكن من دون تمييز داخل الأرض، وبالسلسلات الجبلية على الخصوص. ولكنها تفضل مغادرتها بالليل، عبر الممرات التي تعرض لها بالمغارات، ومنابع المياه، والأشجار. فتسير على غير قصد، أو تقيم لزمن يطول أو يقصر في أجسام جامدة أو حية، وعلى الخصوص في أبدان الحيوانات. ولكونها أشد قوة وأكثر علما من الإنسان، فإنها تستطيع معاونة الناس ومساعدتهم، وتعليمهم العلوم النافعة، والأدوية الشافية، وتكشف لهم المستقبل، وتهب الخصب للنساء، والثراء للرجال، وتجلب الرفاهية للدار التي تأتيها لتسكنها، فتعامل معاملة حسنة. ولكن غالبا ما يحلو لها أن تسيء بشتى الوسائل المتوفرة لها. فمثلا إنها هي التي تسبب الأمراض، وذلك بسكناها أحيانا بجماعات في أبدان المرضى.

وتستعمل التمائم لإبعاد الجن، كما تستعمل المعلومات السحرية ضدها، وبالابتهالات القرآنية تجري مقاومتها، وكذلك بالقوة المباركة التي للأولياء. وتقع أيضا المحاولات لاستلانة جانبها، أو لتسكين شرّها بالهدايا والذبائح. ومخاطبة الجن تكون على الخصوص عند أبواب

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مساكنها بباطن الأرض، فإلى هذه الأبواب تعاد الجن التي يراد التخلص منها. والاستحمام في مياه نبع أو قضاء ليلة في مغارة، كلاهما للمريض وسيلة حسنة ليعيد الأرواح المؤلمة إلى مقرها.

هذه المعتقدات الشعبية السخيفة ليست مما يُعبّر عنه بالنقوش. والكتاب القدماء جهلوا وجودها أو استهانوا بها. ومع ذلك فيمكن التساؤل عن بعض الممارسات التي كانت تقع في جهات مختلفة، في بعض المغارات وعند بعض منابع المياه لتجعل الناس على اتصال بجمهرة الأرواح الخفية. ألم تكن هذه الممارسات سابقة على العبادة التي نعرف أنها كانت توجه إلى (مستجنات Génies) أي إلى آلهة لها شخصيتها المتميزة، ولها في الغالب اسم خاص أيضا. ففي عهد القديس أوغسطين طلب مجمع ديني إفريقي من الأباطرة أن يقضوا على عبادة الأوثان بكل مكان(48) حتى بالغابات وفي الأشجار. ولربما أن هذه الأشجار - أو أكثرها على الأقل - لم تكن مساكن لآلهة معينة، ولكنها كانت وسائل مفضية إلى حيث تقيم الأرواح في باطن الأرض.

ويذكر پْلين الشيخ Pline l'Ancien الأساطير التي حكاها كتّاب مشهورون عن الأطلس : «لاترى به أي ساكن بالنهار، وكل شيء به صامت صمت الصحراء الرهيب، وتستولي خشية دينية على الذين يقتربون منه... أما بالليل، فالأطلس يأتلق بألف وهج، ويمتلئ بمرح الإجيبان Egipans والساتير Satires، ويدوي بأصوات الناي والشبابات والطبول والصنوج». إننا في هذا الوصف نكاد نتعرف به على الظهور الصاخب للجن التي تسكن الجبل. ولعل في هذا صدى محرّف لحكايات رواها الأهالي. والحق أن هذه الأشياء حسب بُمْبونْيوس ميلا P. Méla، لم تكن تقع في الأطلس، الجبل الذي بموريطانيا، بل بمنطقة واقعة على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الساحل الجنوبي للقارة الإفريقية. فالكاتب الذي استقى منه كل من ميلا Méla وپْلين Pline إنما استعاد في ذاكرته رحلة حنّون. ويقول مِيلا أيضا: في سرنيكا (برقة) كانت توجد صخرة يجب أن لا يمسها أحد، وإلا ففي نفس الحين تثور ريح الجنوب، وتهب في زوبعة تهيج دوامات الرمال. فهل يكون هذا - كما افترضه بعضهم - هو الجن التي يهيجها بعض قليلي التبصر ؟ لا أريد تأكيد ذلك.

من بين هذه المجموعات الغامضة من الجن، فإن بعضا منها قد برز مع الزمن، فأصبحت لها سمة واضحة ومقر ثابت. فأحيانا هي الأغوال Ogres والسعالي ogresses، أي الكائنات المرعبة التي للبربر عنها عدة أساطير، والتي لم يكن آباؤهم يجهلونها. وأحيانا هي قوات محسنة بحيث إن مجموعة بشرية قد تحس بالحاجة إلى أن يكون بجانبهم وعلى أرضهم حامٍ أو عدة من الحُماة الذين عرفوهم جيدا، والذين استطاعوا الاقتراب منهم دون عناء، فنصبوا واحدا من هذه الكائنات (الحامية) المقدسة حيثما اعتاد الناس الاتصال بالجن، سواء في نبع الماء وفي المغارة وفي الشجرة وبالجبل، فأصبح (لهذا الموقع) سيدا وأصبح له روحا، فانتشرت عبادة الآلهة المحلية.

إن معرفتنا بهذه الآلهة سيئة جدا[49]. فهي عادة ليس لها صور، وعبّادها كانوا غير قادرين، أو إنهم لم يكونوا يريدون أن يتركوا حججا مكتوبة بتعبدهم لها. أما اللاتانيون، فجلهم إنما عرف أن الأهالي كانوا يعبدون آلهة تختلف عن آلهتهم، وبطقوس خاصة. على أن بعض الرومانيين الذين مروا بإفريقيا أو سكنوها رأوا من الأفضل عدم إهمال الآلهة التي تزاول بها سلطتها، فتركوا لنا بعض التكريسات تمجيدا لها.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ومثل ذلك فعله بعض الأفارقة المترومّنين إما في بلادهم، وإما في البلدان البعيدة التي حافظوا فيها على ذكريات الوطن البعيد.

وأحيانا تتجه عبادتهم إلى جميع آلهة البلاد، أو يكون التعبير عن هذه العبادة بصيغة غامضة، بحيث تتجه إلى الآلهة المورية Maurici, Dii Mauri، أو إلى أحد آلهة الموريين Numen Maurorum وإلى آلهة الجيتوليين Dii Gaetulorum وإلى إلهة مورية Dea Maura وربما أيضا إلى إلهات إفريقيا Matres afrae، وإلهات ليبيا Matronae Libycae.

وقد عثر في بعض منابع المياه وببعض الجبال كذلك على تكريسات باللغة اللاتانية مهداة إلى مستجنّات Genii هذه الأمكنة. وليس من المؤكد أنها كانت آلهة إفريقية، لأن الرومانيين في ذلك العهد، كان كل مكان بالنسبة إليهم له مستجنّة Genius، ولكن يحتمل أن هذا المستجن Genius غالبا ما يختلط بمستجن أهلي.

في إحدى مغارات جبل الطاية، قرب قالمة Guelma، كان ينقش في عهد الإمبراطورية إهداءات باللاتانية إلى باكاكْس Bacax الذي لابد أنه كان من أصل ليبي. وكذلك إله آخر لاشك، كان يعبده أقوام يتحدثون باللغة اللاتانية، وكان بأحد الكهوف في جبل الشطابة بالقرب من قسنطينة، ولربما أن اسم هذا الإله هو گِدابا Giddaba وكذلك أيضا يِفْرو Ifru الذي رُسمت صورته مع كتابة لاتانية على الصخر بشرق قسنطينة. ويبدو أن هذا الإسم لابد من مقابلته باللفظ البربري إفري Ifri الذي يعني المغارة. وتوجد كهوف في أمكنة أخرى، يبدو أنها كانت أماكن مقدسة مكرسة لمعبودات مجهولة، ويزورها الأهالي لاغير وفي أوقات لانعلمها. ففي إفيرا Ifira في بلاد القبائل توجد مغارة جدرانها مليئة بالكتابات

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الليبية. وفي كهف الخَرّاز Kef el - kherraz (بين قالمة والعين البيضاء) مغارة فيها علامات منقوشة وملونة بالأحمر على مدخلها.

ولربما أن نقشا بالبونيقية الجديدة من تونس يعرّفنا باسم أحد الآلهة، وهو گيلو Gilo (أو ما يقارب هذه الصيغة). وكذلك فإن أسماء مجردة، هي ما تقدمه لنا كتابات لاتانية، نجهل أمر الآلهة التي تذكرها. وهذه قائمتها، فهناك خمسة آلهة أقيم لها هيكل في مَجيفا Magifa بناحية تبسّة، وهي : مَسدَنيس Masidenis، ثيلِوايْ Thilivae، سُگَنيس Sugganis، يَسْدانيس Iesdanis، ماسديسْ Masiddice (كل هذه الأسماء ذكرت بصيغة الإضافة Génétif)، مَثاموديس Mathamodis (بالإضافة) من ناحية مدينة الكاف. مُنايْ Monnae (مفعول أعْطى Datif) من عين تُنْگا Tounga. يوكولوني Iocoloni (مفعول أعطى Datif)، هاوُسْ Haos (مفعول أعطى) من سيدي يوسف وقريب منه. خاليماك Chalimace – أو خاليماگ Chalimage – دِمْيوني Damioni، ليلْيو Lilleo من مداوَر Médaure (والأسماء ثلاثتها مفاعيل أعطى). كِليِنو Cilleno، ومُنْتيو Montio (مفعولان لأعطى) من تِمْگاد. مُتْمانْيو Motmanio (مفعول أعطى) من لَمْبيز. أولِسْواي Auliswae (مفعول أعطى) من تِلمْسان. وتبرهن أسماء هذه المعبودات على أنها ليست رومانية، وإن كنْتُ لا أريد التأكيد على أنها جميعها إفريقية. فلربما أن جلها جاء به بعض الباربار القادمين من مناطق أخرى، وعلى الخصوص منهم الجنود العاملون في جيش روما.

ويعرفنا تِرْتولْيان بواحدة اسمها Varsutina Maurorum كما يذكر أرْنوب Arnobe من سمّاهم Tisianes وBucures Mauri، ويبدو أن هذين الإسمين فيهما تحريف. وفي العهد البيزنطي يذكر الشاعر كوريبوس ثلاثة آلهة كان يعبدها الأهالي الذين كان يعيش بعضهم في جنوب القطر

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

التونسي، وبعض منهم في مقاطعة طرابلس، وهي : سِنيفير Sinifere الذي يقابله كوريبوس بالإله مارسْ Mars ومَسْتيمان Mastiman الذي يقابله ربما بلوتون Pluton، وأخيرا گُرْزيل Gurzil إله اللگْوانْتيين Laguantan الذي سبق لنا الحديث عنه. وهذا المعبود گرزيل يمكن أن يحل في ثور. وكانت له صور من خشب ومن معدن. (فهل كانت على شكل شخص إنساني ؟) جميع هذه الشهادات ترجع لعهد متأخر عن العهد الذي ندرسه، غير أن الآلهة التي يذكر أسماءها، طبعا لم تكن حديثة الوجود.

وكما نرى عن طريق كوريبوس، فإن الرومانيين قد بحثوا في زون Panthéon معبوداتهم، بحثا عما يمكنهم مطابقته مع معبودات الأهالي. ولاشك أن أسباب هذا الإدماج هي أسباب كثيرة ولكننا نجهلها. فيحتمل أحيانا – وكما في غالة Gaule – أن اسما لمعبود أهلي يلصق باسم معبود إغريقي لاتاني. فيوجد تكريس في طبَرْقة إلى Plut (oni) Varicculae وتكريس آخر بقالمة إلى Telluri Gilvae. لكن ربما يحسن وضع فاصلة بين الاسمين، فيعنيان معبودين متمايزين، لا معبودا مشتركا. وفي الأغلب، فإن الرجال الذين كانوا يتحدثون باللاتانية قد عوضوا الاسم الليبي باسم روماني، وفي هذه الحالة يستحيل علينا أن نعرف أن الأمر يتعلق بشخص إلهي ذي أصل إفريقي، وهذا باستثناء هذه المعبودة ديانا Diane التي ذُكِرت في كتابة بِسطيف ووصفت بأنها Diana Augusta Maurorum.

وكثيرا ما لا يكفي طبعا إخفاء الإله المحلي الصغير، وإنما يعوض عنه بأحد المعبودات الكبرى في الطبيعة. فالفينيقيون كانوا يفضلون إقامة معابدهم فوق الأماكن العالية. ومن المحتمل أن يكون بَعْل هنا أو هناك قد عزل المستجن Genie الجبلي الخامل وحل محله. وفي العهد الروماني، فإن آلهة أهلية اضطرت لإخلاء المكان لمن هي أقوى منها :

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
فَستَورْنوس Saturnus – الذي هو في الحقيقة بعل حمون البونيقي – قد استولى على القِمَم، ونبْتونوس Neptunus استولى على منابع المياه، وسِلْوانوس Silvanus استولى على الغابات، كما استولى بلوتو Pluto على المغارات، وغير ذلك.

لكن إذا كانت الآلهة تتغير، فإن الأجيال التي كانت تتعاقب لم تستطع أن تنفصل عن المواقع التي كانت تجري بها ممارسة الشعائر الدينية منذ عدة عصور، بحيث إن بعض المسيحيين في عهد القديس أوغسطين كانوا يظنون أنهم يحسنون عبادة الله عندما يتسلقون قمم الجبال أو ينزلون إلى باطن الأرض. والشهداء الذين فقدت أبدانهم، بل لم تبق منهم بقية، كانت تقام لهم المصلّيات في الحقول وعلى جوانب الطرق وربما في نفس الأماكن التي كانت تتردد عليها المستجنات Genies وتسكنها الآلهة. واليوم يتجه فيها بالاحترام لصلحاء، هم عبارة عن أشخاص أسطوريين غامضين، بل قد يكونون مجردين عن كل أسطورة. وغالبا ما يطلق عليهم اسم شجرة أو عين ماء وغير ذلك، أو يُسمّون بكل بساطة (سيدي المجهول Monsieur L'inconnu) أو (سيدي غريب Monsieur L'Etranger) وفي هذا نفحة إسلامية خفيفة – سَلَفية بصعوبة – تتضوع في سماء مشبعة بالقداسة منذ قرون.

4

وزيادة على الآلهة المحلية، فإن إفريقيا الأهلية قد عبدت آلهة كبيرة، كان عملها يمتد إلى جهات شاسعة في العالم، وانتشرت عبادتها بين قبائل وعشائر. ولابد أن تكوّن الدول قد ساعد على نشرها وعلى إعطائها تقريبا الطابع الوطني.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

في القرن الخامس قبل الميلاد أكد هيرودُت أن جميع الليبيين كانوا ينحرون الذبائح للشمس وللقمر، وباستثناء أهل شواطيء بحيرة تْريتونيس Tritonis (أي سدرة الصغرى) فإن الرحّل لم يكونوا يقدمون القرابين إلا لهما. ولم يَقُلْ غير ذلك في هذا الموضوع. وليس لدينا شهادات أخرى أكيدة عن عبادة أهلية حقا للكوكبين، باستثناء ما إذا أردنا ذكر أحد مؤرخي القرن الرابع عشر للميلاد. وهو ابن خلدون الذي يقول : «عند الفتح العربي كان من بين البربر من يعبدون الشمس والقمر». ويحتل القمر مكانة ضئيلة في الطقوس ذات الأصل السحري التي لاتزال يحتفل بها حتى اليوم. وفي الأعياد الزراعية، من الطبيعي أن لا تهمل الشمس، وهي سيدة فصول السنة. لكن إذا أريد التأثير عليها، فلا تعبد. فهل يكون الإسلام قضى على أعمال دينية ربما كانت تمتزج بممارسات السحر ؟ إن الأمر ممكن، ولكن البراهين تنقصنا. ويكون من قبيل المجازفة إضافة الأرض إلى الشمس والقمر اللذين ذكرهما هيرودُت. وقد سبق لنا القول أن في بعض الاحتفالات من أجل الحصول على المطر، كانت «الأرض» تكتسي غموض أحد المعبودات. غير أن هذه المحاولة الأولى، أو هذه الأضحوكة البئيسة لم تجعل منها آلهة حقيقية.

إن الشعور الديني عند البربر شعور قوي، ولكن ملكة الابتكار عندهم تتحرك في حدود ضيقة. إنهم على العموم استعاروا – ولم يخلقوا – الآلهة الكبرى التي عبدوها أو يعبدونها بإخلاص.

هكذا أخذوا عن مصْر آمون Amon أو أمّون Ammon. وأما كون آمون هذا في شكله الأولي، أي إله كبش، قد انتقل من ليبيا إلى طيبة Thèbes في عهد مغرق في القدم، فليس لدينا سبب وجيه لقبوله. والقول بأن أمّون Ammon كان في اللغة الليبية هو اسم الكبش، قول لا يمكن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
تلقيه إلا بكثير من الحيطة. وإذا كانت مجموعات مختلفة من الليبيين قد عبدت هذا الحيوان، فالمصريون يمكن أنهم عبدوه أيضا من غير حاجة للاقتداء بهم (أي الليبيين). والأمر المتأكد هو أن الكبش الإله الأولي قد اتخذ في طيبة مظهرا خاصا. بحيث أنه مثّل إنسانا، لم يحتفظ من الكبش سوى بالرأس، وصار هو الإله الشمسي آمون رَعْ. فبهذا الشكل المتشعب سيطر في واحة سَيوَة Siwa – واحة آمون – في القرن السادس ق.م على أقل تقدير. وهناك عرفه إغريق سرنيكا (برقة) آنذاك واتخذوه إليها، وجعلوا منه زِيُوس، ولم يَدَعوا له سوى القرنين الملتويين اللذين للحيوان المعبود.

وقد انتشرت عبادته عند الليبيين كذلك. فكانوا مثل الإغريق ومثل غير هؤلاء يأتون لاستفتاء العرّاف الشهير الذي كان يظهر في معبد الواحة. وهذا الإله الذي كانوا يجدونه بالواحة، كانوا على استعداد كبير لعبادته لأنه كان ذا قرابة بكباشهم المقدسة. ولابد أن آمون قد حل محل هذه الكباش في جهات عديدة. وحيث كان هو الشمس فإن الأهالي عبدوا فيه إلها كبيرا من الطبيعة.

وتوجد نصوص عديدة جدا تبين إلى أي حد صار آمون شعبيا حول السدرتَيْن، بحيث إن أماكن كثيرة كانت تحمل اسمه، واحتفظت باسمه هذا سالما فيها. فآمون لم يتشخص فيها – على غرار ما حدث في غيرها – في إله بونيقي ولا في إله لاتاني. ففي بداية العهد المسيحي كان الربّ آمون، وليس بَعْل حَمّون، هو الذي تتضرع إليه إحدى الكتابات المنجزة مع ذلك باللغة البونيقية المعثور عليها قرب لِبْتيس الكبرى، المستوطنة الفينيقية القديمة. وفي صميم العهد البيزنطي كان أهالي مقاطعة طرابلس لا يزالون أوفياء لآمون. ولكنه تقدم كثيرا في اتجاه

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الغرب. فكان له على ما يبدو عبادة بين السكان ذوي الدم المختلط البونيقي والليبي في بعض المدن بالساحل الجزائري. وكذلك النوميديون، فإنهم اتخذوا الربّ البونيقي بَعْل حَمّون إلها، ولكن يسوغ الاعتقاد أنهم ما كانوا ليتقبلوه بهذا القدر من الرضى لو لم يشخّصوه مع آمون، مع إلههم آمون. بل وإذا كان بَعْل حَمّون – بعد تانيتْ بَنِبَعْل Tanit Péné Baal – هو المعبود الأكبر في قرطاجة، فلربما لأن الفينيقيين الذين جاؤوا به من آسيا، قد وجدوه في آمون هذا، ولأنهم رأوا فيه أحسن من يحميهم في إفريقيا هذه التي كان هو ربها. فليبيا كانت فعلا أرض آمون، والمدوّنون الإغريق للأساطير لم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم أضفوا الخرافة على هذه السيطرة التي كانت العبادة تؤكدها[50].

بعد مصر، علّم الفينيقيون للأهالي عبادة آلهة كبرى، من هذه الآلهة التي كانوا يدخلونها في قوات الطبيعة من غير أن يلبسوا هذه بتلك.

أما المدن البحرية التي انتقلت عن السيطرة القرطاجية إلى حكم الملوك، فكانت فيها العبادات الفينيقية والبونيقية مستمرة، مع بعض التحريفات التي مبعثها تأثير الأهالي. وتشهد لهذا الاستمرار الوثائق التي سبق لنا ذكرها، كالنذور التي عليها بعض الرموز، وأحيانا كتابات بونيقية، والنُّصْب والتمثال لمعبود في شَرْشال، ووجه الإلاهة الكبرى على أنصاب هيبون Hippone وسانْلو Saint-Leu ومثل النقود التي عليها صُوَر لبَعْل Baal، ولعَشْتارْت Ashtart، ولملْقارت Melqart، وغيرها التي لها أسماء مشكوك فيها، وتبدو في مظهر المعبودات الإغريقية، وإن كانت في الحقيقة آلهة فينيقية.

عن طريق هذه المدن، كان بمستطاع الديانة البونيقية أن تتغلغل بداخل البلاد، ولربما أنها سبق لها أن انتشرت في غرب القطر التونسي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
بين رعايا قرطاجة الذين ضمهم مسنيسا إلى أملاكه. ومن هنا كانت تستطيع الانتشار شيئا فشيئا في اتجاه الغرب. وفي المدن الكبيرة بنوميديا لابد أن التجار الوافدين عليها من الساحل، قد كانوا عوامل لانتشار العبادات التي كانوا يمارسونها بأنفسهم.

ولم يكن الملوك يأنفون من أداء فروض طاعتهم لهذه العبادات. وهذا مسنيسّا قد رفض الاحتفاظ ببعض الأشياء الثمينة التي كان أحد قادته البحريين قد استولى عليها في مالطة من معبد للربّة يونون Junon الفينيقية، وأمر بإرجاعها معتذرا عن هذا الكفران. والنقوذ التي أصدرها هو وعليها صورته، وكذلك التي أصدرها من خلفوه في الملك، ترى عليها بعض الصوَر المستعارة من الديانة القرطاجية، مثل رمز تانيتْ، وشارة الطبابة Caducée، ومثل الكوكب المشعّ، والهلال المقلوب على كوكب. كما نجد بعد ذلك نقودا لبوگود Bogud ويوبا الثاني وبطْلمي ملوك موريطانيا، يظهر عليها قرص الشمس بالأجنحة، وهلال طالع، أو يظهر عليها كوكب منفرد، أو داخل هلال طالع.

أما سرْتا، أهم مدن النوميديين، والتي كان الملوك يفضلون الإقامة بها، فلعلها كانت أيضا المدينة التي بها أكثر عبّاد الآلهة القرطاجية. فقد عثر فيها على عدد كبير من الأنصاب التي ترجع للقرنين الثاني والأول قبل الميلاد، وعليها إهداءات باللغة البونيقية لبَعْل حمّون وتانيتْ بنيبَعْل، هذين المعبودين اللذين تذكرهما آلاف النذور التي عثر عليها في باطن أرض قرطاجة. ومع أن المهْدين يحملون على وجه التقريب جميعا أسماء فينيقية، فقد كان من بينهم لاشك فينيقيون أقل عددا من الأهالي المعتنقين للحضارة الفينيقية، ويظهر أن كثيرا منهم كانوا يحملون لقبا أميريا، الأمر الذي لم يكن يليق إلا بالنوميديين.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

في قرطاجة، كانت تانيتْ بنيبَعْل Tanit Pené Baal ملكة المدينة، وكان لها التقديم على بَعْل حمّون، بينما هي في سرْتا في الصف الثاني، وغالبا ما لا يعطى لها اللقب التشريفي (ربّتْ Rabbat) أي الربة بمعنى السيّدة La maîtresse. في حين أن السيّد Seigneur بَعْل حمّون موصوف في إحدى الكتابات بأنه (إله المعبد) ويذكر في الأول دائما، بل غالبا ما يبتهل إليه وحده. ولعل هذه الأولوية جاءته من أن اسمه الفينيقي يخفي تحته أنه آمون، الإله الأكبر عند الأهالي، الذي لا يتخلى أمام أحد. وعلى نصب، أو ربما على نَصْبين اثنين يظهر بَعْل أَديرْ Baal Addir أي (السيّد القدير Le Maître Puissant) ولا ندري هل يلتبس ببَعْل حمّون أو إنه إله آخر قد يكون شورك به.

وفي العهد الروماني كان بَعْل حمّون وتانيتْ بنيبَعْل يُذكران بأسماء لاتانية على ألسنة من يتكلمون اللاتانية، وكان أولهما مسيطرا على الشمس والثانية على القمر. ويحتمل جدا أن الأمر كان على هذا النحو في رأي القرطاجيين من قبل. أما الأهالي عبّاد الكوكبين كما ذكر ذلك هيرودُت، عبّاد آمون – الشمس، فلاشك أنهم كانوا يبتهلون – تحت هذين الاسمين البونيقيين – إلى سيّد الشمس وإلى سيّدة القمر. بل ويمكن الافتراض أن عَشْتارْت Ashtart الفينيقية، التي دُعيت باسم تانيتْ بنيبَعْل قد صارت في إفريقيا إلهة قمرية عن طريق الاقتباس من عقائد الأهالي.

وعلى بعض نقود مسِنيسّا، أو نقود من خلفوه، وعلى نقود يوبا الأول يظهر رأس زيوس آمون Zeus Ammon بقرون الكبش. فمن خلال هذا النموذج الإغريقي لابد من الاعتراف بأنه إله يعبده الأهالي ولا أستطيع القول بأنه آمون الليبي أو هو بَعْل حمّون لأن الأول قد رسم

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

بالتأكيد على هذه الطريقة، كما يبدو أن الثاني رسم أحيانا بنفس الطريقة أيضا.

إن أنصاب سرِتْا، التي يمكن التأريخ لها بالتقريب، هي عبارة عن حجج لا تقبل الدحض، على دخول آلهة قرطاجة إلى نوميديا في عهد الحكم الملكي. ويسوغ تبعا لشكل الكتابة التي عثر عليها في ألثيبوروس Althiburos، كما أنها إهداء مبتور إلى بَعْل، وهذا الاسم غير متبوع بكلمة حمّون Hammon، بل هو موصوف بأنه (ملك أدم Melk adam) وهذا هو التعبير الذي نجده أيضا على بعض الأنصاب في سرِتْا، ومعناه (ملك الشعب Roi du peuple)، أو ملك الناس.

وهناك إهداءات أخرى بالخط البونيقي الجديد إلى بَعْل حَمّون، أو إلى بَعْل فحسب، عثر عليها بتونس وفي مقاطعة قسنطينة، وكلها من العهد الروماني. ولنفس العهد ترجع كتابات أخرى بالبونيقية الجديدة أو باللاتانية، وتتوجه إلى اللآلهة الفينيقية حَتار مِسْكار Hatar Miskar (؟) وبَعْل أدّيرْ Baal Addir (بَلْدير، بَليدير، Baliddir, Baldir)، أَبَدّير Abaddir، كما يرجع لنفس العهد عدد كبير من الإهداءات اللاتانية إلى سَتُرْنوس Saturnus وكْيلِسْتِس Caelistis وغيرهما مما تختفي خلف اسمها الروماني اختفاء غير كامل أصولها الفينيقية، وتبقى فيها العبادات وفية للشعائر البونيقية. فَروما لم تمنع مطلقا هذه الحركة الدينية، بل إنها شجعتها. غير أنها حركة ابتدأت مبكرة، وتلك حقيقة تكون واضحة لو أن النوميديين أهل القرنين الأخيرين قبل الميلاد، كانوا خلفوا من الكتابات بقدر ما خلفه النوميديون المعاصرون للأنطونانيّين وللسّيفيريّين.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

5

وبالنسبة لما قبل عهد الفتح الروماني، فإن نصوصا قديمة تذكر بعض المعبودات التي قيل عنها إنها كانت تعبد من لدن الليبيين أو كانت توصف بأنها ليبية. وحسب عادة واسعة الانتشار كانت هذه المعبودات تتشخص في آلهة إغريقية ولاتانية. ومن الصعب جدا، إن لم يكن مستحيلا، معرفة طبيعتها. ويحتمل جدا أن بعضا منها كان ذا أصل فينيقي، لأن لفظة "ليبي" قد استعملت أحيانا بمعنى "بونيقي". ومن ناحية أخرى، فحتى إذا كانت هذه الآلهة حقيقة قد عبدها الأهالي، فإنه يحق لنا التساؤل : ألم يقتبسوها من الفينيقيين الذين كانت لهم بهم علاقات ؟

حسب هيرودُت : «فإن الليبيين الذين يعيشون حول بحيرة تريتونيس ينحرون القرابين لأثينا على الخصوص». وفي مكان آخر يذكر هؤلاء الليبيين الذين على شواطئ سَدْرة الصغرى، إنهم المخلوس Machlyes والأوْصِيون Auses. وهكذا، فهو يحكي ما يجري عندهم في أحد الأعياد السنوية لأثينا. يقول : «الفتيات ينقسمن إلى طائفتين تقاتل إحداهما الأخرى بالحجارة والعصيّ، قائلات إنهن يتبعن عادة وضعها آباؤهن تمجيدا للمعبودة المولودة في أرضهن، والتي نسميها آثينا. ويدّعين أن اللواتي يَمُتن من جروحهن هن عذارى زائفات. وإليك ما يفعلنه قبل وقف المعركة : من كلتا الطائفتين يُزَيّنن أجمل فتاة بخوذة كورَنْثية Casque Corinthien وبشكة كاملة من السلاح الإغريقي، ويحملنها فوق عربة ويطفن بها حول البحيرة. فكيف كان يتم فيما مضى تجهيز هؤلاء الفتيات قبل قدوم الإغريق للإقامة بالأرض المجاورة ؟ لا أعرف الجواب، ولكنني أعتقد أنهن كن يكتسين بالأسلحة المصرية... وهؤلاء الليبيون يقولون إن أثينا هي بنت بوسِيدون Poséidon وليمْني Limné أي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
بحيرة تريتونيس، وأنها قد حدث لها ما تدمرت بسببه من أبيها، فوهبت نفسها إلى زِيوس الذي تبناها».

كان هذا العيد إذن يشتمل على قسمين : أولاً على معركة، وهي طقس سحري، أقدم بكثير حسبما يظهر من عبادة أثينا، وثانياً احتفال ديني اندمج في الطقس. ومن فوق العربة، فإن الإلهة المتمثلة في الفتاة، تطوف في أبهة بالأرض التي هي حاميتها.

في القرن الرابع قبل الميلاد، ذكر المؤلَّف الجغرافي المعروف باسم رحلة سيلَكْس Scylax أن بهذه الجهة هيكلا لأثينا تريتونيس.

فلماذا هذه المعبودة (المولودة في البلد) قد شخصها الإغريق في أثينا ؟ فحسب ما يقوله لنا هيرودُت عن العبادة المتوجهة إليها، إنها مثل أثينا كانت إلهة محاربة، وبدون شك أيضا كانت إلهة عذراء[51]. وفوق ذلك، كانت تعبد حول (بحيرة) تريتونيس، التي يصب فيها حسب هيرودُت نهر يسمّى ترْيتون Triton، وهذان اسمان يبدو أنهما صيغتان إغريقيتان للفظين أهليين. لكن ترْيتوجينيا Tritogéneia كان اسما قديما لأثينا. ولتفسيره، كانوا يحكون أنها ولدت، وأنها رُبِّيت بالقرب من أحد الأنهار أو أحد منابع المياه في أرض الإغريق، واسمه تريتون، تريتونيس. وإذ وجدوا بإفريقيا مجاري مائية وبحيرات كان الأهالي يطلقون عليها تقريبا اسما مشابها، فإنهم أي الإغريق، نقلوا إليها أسطورة مولد أثينا[52]. بل إن أثينا هذه التي يدّعيها المخلوس Machlyes والأوْصيون Les Auses قد نسبت إليها خرافة يحتمل أنها من أصل بيوتي Béotienne لا ليبي كما قيل لِهيرودُت : ذلك أن أباها بالاس Pallas الذي اختلط عليهم – على ما يظهر – بِبوسيدون Poseidon كان قد حاول افتضاضها، وهو ما يشير إليه المؤرخ إشارة خفيفة.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

كانت البنات اللائي يمثلن الإلهة يلبسْنَ في القرن الخامس ق.م شكة إغريقية كاملة وبخوذة كورنثية، وهذا التجهيز لم يكن معمولا به مطلقا عند الليبيين. ويفترض هيرودُت أنهن قبل ذلك، كنّ يكتسين بالأسلحة المصرية(53). فهل تكون الإلهة نفسها أجنبية، وتلقتها عشيرتان من عشائر ساحل سَدْرة ؟

إن عَتادها الحربي وعربتها ليذكّران بسيّدة Patronne القرطاجيين. فهذه التي كانت أُمّاً Mère يحتمل أنها أيضا كانت عذراء. وقد سميت بعد ذلك في العهد الروماني باسم العذراء السماوية Virgo Caelistis وصحيح أن هذه المعبودة تانيتْ بنيبَعْل Tanit Pené Baal، أي هذه المعبودة عَشْتارْت Ashtart البونيقية، قد مثلت عادة في هيرا Hera وفي يونو Iuno. غير أن تشخيص الآلهة الكبيرة الفينيقية في أثينا، أمر تقبله الإغريق لاشك في مكان آخر. ولعل شطوط بحيرة تريتونيس كانت تبرر لهم جدا ذلك التشخيص Identification.

ولقد قُدّم افتراض آخر، مفاده أن بِدلْتا النيل، في سايس Saïs ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد كانت تُعبد نيـتْ Nit وهي إلهة محاربة وعذراء – وإن كانت أُمّاً – وقد شخصها الإغريق في أثينا. فهل كانت نيتْ Nit من أصل ليبي ؟ أو على النقيض من ذلك انتشرت عبادتها من مصر نحو الغرب ؟ وعلى كل حال، فمن القرن الرابع عشر إلى الثاني عشر قبل الميلاد، تُرينا المآثر المصرية الليبيين المجاورين لوادي النيل، وعلى أبدانهم الأصباغ أو الوشوم التي هي عبارة عن رمز نيتْ. ومع ذلك فليس هذا برهانا قاطعا على تشخيص نيتْ وإلهة بحيرة تريتونيس، حتى ولو أردنا أن نفرض مع هيرودُت أن الفتيات من عشائر المخْلوس Machlyes والأوصيّين Auses كنّ يكتسين بالعدة المصرية، قبل أن يتجهزن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
بالأسلحة الإغريقية، إذا صدقنا ما يقول. والخلاصة هي أن أصول أثينا الليبية هذه تبقى مشكوكا فيها.

وعلى قول نفس الكاتب فإن الليبيين الذين كانوا يعيشون حول بحيرة تريتونيس لم يكونوا ينحرون القرابين إلى أثينا فحسب، بل وإلى تْريتون وإلى بوسيدون أيضا. وكما رأينا من قبل فإنه يجعل بوسيدون هذا أبا للإلهة التي يسميها أثينا. ويكتب في فقرة أخرى قائلا : «إن الليبيين هم الذين عرفوا بوسيْدون إلى الإغريق. وفي مبدأ الأمر كان الليبيون وحدهم يملكون اسم بوسيدون، وعبدوا دائما هذا الإله».

فإما أن يكون الإله الإغريقي بوسيدون ذا أصل ليبي، فذلك قول غير صحيح بالتأكيد. ولا ندري على أي شيء يرتكز هذا، فإننا نجهله مطلقا. ولا توجد براهين حسنة لتشخيصه بأحد الآلهة البحرية عند الفينيقيين. وفي العهد الروماني كان يعبد نِبْتونوس Neptunus ليس فحسب في أماكن على الساحل حيث كان هو إله البحر، بل أيضا وعلى الخصوص في داخل الأراضي بمنابع المياه التي كان هو سيّدها. وهذه العبادة لنبتونوس إله عيون الماء، تكاد تكون غير معروفة بالولايات اللاتانية الأخرى بالغرب. فيحسن، نظرا لذلك، البحث عن الأسباب الخاصة التي تفسر لماذا كانت منتشرة بالأوساط الشعبية إلى هذا الحد في إفريقيا. لكن لاشيء يبرهن على أنه كان إلها ذا أصل أهلي كما لا يوجد مسوغ لقبول قرابة متينة بينه وبين بوسيدون الذي كان سكان شواطئ خليج قابس يعبدونه في القرن الخامس.

ونجهل كذلك ما هو تْريتون الذي يذكره هيرودُت مع بوسيدون، والذي يذكر لنا عنه في مكان آخر أنه قدم المساعدة لركاب سفينة أرگونوتس Argonautes الذين جنحت بهم السفينة في مضاحل بحيرة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

تريتونيس. وفي المعاهدة المبرمة بين فيليب المقدوني وحنّيبَعْل يظهر تْريتون بين المعبودات القرطاجية. ومن التهوّر البالغ أن نستنتج أن تْريتون سَدْرة الصغرى كان ذا أصل فينيقي.

وهناك نص غير موثوق به جدا، يذكر أن المسيليين كانوا حول القرن الثالث يتقربون إلى كْرونوس Cronos بنحر الذبائح الإنسانية. وإذا فرضنا صحة هذا القول، فلا يمكننا أن نقول إن الأمر يتعلق بإله أهلي أو ببَعْل حمّون البونيقي الذي شخصه الإغريق مع كرونوس Cronos.

ولدينا إشارات عن معبود ذُكر باسم هيركْليس الليبيين Héraclès des libyens وباسم هِرْكول الليبي Hercule libyen[54] . وهكذا بالتأكيد كان يوصف المعبود (هِرْكول) أحيانا الذي أدخله الفينيقيون إلى ليبيا، أي الإله مِلْقارْت Melqart. وهِرْكول Hercule الذي كان يعبد في إحدى المغارات بالقرب من طنجة، كان لا محالة أحد معبودات الليبيين، لأن هذا المكان كانت تقام به شعائر إحدى العبادات الأهلية. ولست أدري لماذا وقع تشخيصه مع هِرْكول مدينة صُور آناً أو مع هِرَكْليس Héraclès آناً آخر. وعلى النقيض من ذلك، فلا شيء يفرض الاعتقاد بأن هِرْكول الذي يعزى إليه تأسيس مدينَتَيْ ثوقِسْت Theveste (تبسّة) وكَبْسا Capsa (قَفْصة) قد كان إلها إفريقيا، حيث إذا كان سالُسْت يصف مؤسس كَبْسا بأنه ليبي، فإن بولُس أوروز Paul Orose (الذي لعله نقل عن تيت ليڤ) يصفه بأنه فينيقي.

وكان يوبا الثاني ملك موريطانيا، يدّعي أنه ينحدر من هركول[55]. ويحتمل أن نفس الأصل قد عزى قبل ذلك لأبيه يوبا الأول ملك نوميديا. ولا علم لنا بأن أجدادهما قد ادّعوا هذا النسب الرفيع. وعلى ما يظهر

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

فإن هيمْبسال Hiempsal جد يوبا الثاني لم يقل شيئا عن هذا فيما رواه عن الأصول الليبية. بل إنه أكد أن هِرْكول Hercule كان قد مات بأسبانيا عندما عبرت إلى إفريقيا مجموعة من رفقائه في السلاح. على أن الجد المزعوم ليوبا الثاني، لم يكن حائزا لأشعرة[56] هيرَكْليس الإغريقية فحسب، بل إنه حسب خرافة يرويها بلوتارك Plutarque، عَبَر البحر فنزل منه بموريطانيا صحبة بعض الإغريق. إذن فإن هِرْكول هذا كان هو البطل الإغريقي الذي اتصل اتصالا عابرا بإحدى نساء البلد، فولدت له ابنا هو صوفَكْس Sophax الذي إليه يعزى يوبا. وحسب خرافة أخرى، فإن شخصا يُدعى يوبيس Iobes، وهو أيضا ابن لهيرَكْليس قد ولدته إحدى الإغريقيات، هي ثيسْبِياد Thespiade، وكانت على ما يقال تُدعى أيضا باسم خِرْثي Kherthé. ولعل هذه الحكاية قد وضعت قصدا ليوبا الأول الذي قد حكم بِسِرْتا، وليس ليوبا الثاني الذي لم يستول أبدا على هذه المدينة. (فالملك) النوميدي إذن، يكون بعض المتملقين قد جعله هيلينياً. ومن كل هذا، فلا يسوغ مطلقا أن نستنتج وجود إله كبير أهلي، وقع تشخيصه مع هِرْكول.

وقد ذكر أرسْطو Aristote أبولون ليبيا Apollon libyen، ابناً لآمون. وبعد ذلك بثمانية قرون، أي في العهد البيزنطي، يذكر كوريبوس أن بواحة آمون توجد مصلّيات (مذبحات) لأبولون. وقد رأينا أنه قال قبلا، أن گُرْزيل Gurzil، الذي كان في ولاية طرابلس Tripolitaine يعبده اللگوانطيون Laguatan، قد كان ابنا لآمون ولإحدى الأبقار. ولكن هل هو نفس الإله في النصوص الثلاثة ؟

ويحكي يوبا الثاني أن ليبيا، أثناء حرب طروادة Troie، كان يحكمها ملك اسمه لوكوس Lycos ابن آريس Arès، وكانت عادته أن ينحر

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الأجانب قرابين لأبيه[57]. فهل يكون ملك موريطانيا شبّه أحد الآلهة الأهلية بإله الحرب عند الإغريق، كما شبّه كوريبوس الإله سِنِفير Sinifere بالإله مارْس Mars ؟ لا أريد إثبات ذلك.

وكان منتدى القضاء بمدينة أولمبيا Prytanée d'Olympie قد تلقى تمثالا لمعبودة باسم هيرا آمونيا Héra Ammonia وآخر باسم هيرْميس بارامون Hermès Parammon، وهما معبودان ليبيان كما يقول بوزانياس Pausanias. ولكن يجب البحث عن وطن هذين المعبودين في نواحي واحة آمون، وليس في بلاد البربر.

وفي سيكا Sicca (مدينة الكاف) كانت تُعبد إلهة يطلق عليها اللاتانيون اسم ڤينوس Vénus، وكان النساء يتعاطين البغاء حول معبدها. وكانت هذه إحدى طرق التقديس لبعض الإلهات الأسياوية المختلفة، من جملتها عَشْتارت Ashtart. وحيث إن سيكا قد خضعت لقرطاجة، فقد كان معقولا أن يُنظر إلى ڤِينوس هذه على أنها هي الإلهة الكبرى للفينيقيين، مع العلم أن هذه الإلهة، كانت على العموم في الغرب تشخص مع يونون Junon، وليس مع فينوس. ومن ناحية أخرى، فإن ڤينوس جبل إريكْس Eryx بصقلية، قد كان لها هي أيضا بغاياها. ويؤكد صولان Solin – اعتمادا على مصدر نجهله – أنها هي التي كانت تُعبد في سيكا. وهذا أمر غير مستبعد، لأن ڤِينوس، أي عَشْتارت جَبَل إريكْس قد عبدها القرطاجيون، وكانت الأسطورة تأتي بها كل سنة إلى إفريقيا حيث تقيم بعض الوقت. ولكن يحتمل أيضا أن البغاء بسيكا كان أحد الطقوس الإفريقية العتيقة، من طقوس السّحْر الجاذب Magie sympathique، الخاص بتقوية الخصب في الطبيعة، وأن هذا الطقس قد امتزج بعبادة إحدى الإلهات الأهلية، وأن الأجانب لما رأوه،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

أوحى لهم بفكرة تشخيص الإلهة مع ربّة جبل إريكس، الجبل الذي كانت به نفس الاعتقادات البدائية توجد نفس الممارسات.

إننا نعرف كيف اقتبس القرطاجيون في القرن الرابع قبل الميلاد عن إغريق صقلية المعبودتين ديمِتير Déméter وكوري Coré اللتين انتشرت عبادتهما في إفريقيا. وكانت واسعة الانتشار جدا في العهد الروماني. فالسيريرتان Les deux Cereres، وعلى الخصوص منهما سيريس Cérès (كيريس) الأمّ التي لاشك أنها مُجدّت أيضا باسم تلوس Tellus (الأرض الربة) قد كانتا هناك الحاميتين القويتين للزراعة. ولربما يكون بعض الأهالي قد تلقوهما قبل ذلك. ولكن ليس لنا بهذا حجة قاطعة. وتظهر صورة الإلهة متوجهة بالسنابل على نقود معزوة لهيمْبسال الثاني ملك نوميديا، وكذلك على عُملة أصدرها بْطلمي آخر ملوك موريطانيا[58]. ولكن لا نستطيع التأكيد بأنها سيريسْ أو كَيريس.

وكذلك بلوتو Pluto فقد كان له عبّاد كثيرون من بين فلاحي إفريقيا الرومانية، الذين كانوا يشركونه بسهولة مع السيريرتين. ويحتمل جدا أنه إله إغريقي أدخل إلى بلاد البربر في وقت لا ندريه. ولا يكفي أن يكون كوريبوس في القرن السادس للميلاد قد شخّص مَسْتيمان Mastiman مع رب الطرطار (التاتار) [59] Tartare، حتى يسوغ لنا أن نعطي أصلا أهليا لبلوتون Pluton المذكور في الكتابات اللاتانية التي من عهد الإمبراطورية العليا Haut - Empire.

ونفس الشك يحيط كذلك بعهد إدخال ليبير الأب Liber Pater الذي ربما قد أُتِيَ به من إغريقيا الكبرى[60]. وفي رأينا أن أوزيريس Osiris الذي شخصه الإغريق في ديونيسوس Dionysos، هو الذي يجب أن نجده

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

في ليبير الذي قيل إنه مؤسس ثوفيست Theveste (مدينة تبسّة). ولاشك أن هذه الأسطورة غريبة على أهل البلد. ذلك أن عالما سخيفا عزا إلى أحد الآلهة المصرية تأسيس مدينة، يزعم أنه يجد في اسمها (ثوفيست Theveste) اسم طيبة المصرية. وتوجد نقود سكّتها مدينة فينيقية بالسدرتين وبالساحل الجزائري، كانت خاضعة للملوك الأفارقة. وعلى هذه النقود تظهر صورة إله أو آلهة مختلفة لم يقع التعرف عليها، ولكن لها تقاطيع ديونيسوس. ولا يوجد أي سبب للاعتقاد بأنها أهلية. ويظهر ديونيسوس كذلك على نقود لملك موريطانيا، بوكوس Bocchus المعاصر لقيصر. وهو ما يمكن تفسيره بالتقارب اللفظي الموجود بين بوكوس وباخوس Bocchus - Bacchos وفوق ذلك، يمكن الافتراض بأن هذا التشابه في الإسمين، قد دعا الملك لجعل نفسه في حماية الإله، أي في حماية ديونيسوس هذا، أو ليبير الأب الذي كان الإغريق على غرار التراقيين Thraces، وكان اللاتانيون على غرار الإغريق يسمونه أيضا باسم باخوس Bacchus فيكون هذا عبادة شخصية متوجهة لمعبود أجنبي.

أما عبادة إيزيس فيبدو أنها لم تدخل إلى موريطانيا إلا في عهد يوبا الثاني، على يد زوجة هذا الملك، المصرية كيلوبترا سليني. وسنعود للكلام على هذا الموضوع.

ولم تكن الآلهة الفينيقية الكبرى ربّةً لقرطاجة فحسب، بل إن سيطرة حمايتها انتشرت على جميع المنطقة التي سادت بها قرطاجة، والتي تحولت فصارت هي الولاية الرومانية بإفريقيا. وتوجد من هذه الولاية نقود سكّها في أواسط القرن الأول ميتْلوس سبِيون M.Scipion القائد العام لحزب پُومْپي تحمل صورة لمعبودة لها رأس أسد، هي عَشْتارْت

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
أو تـانيتْ بنيبَعْل، وبجانب الصورة الحروف الثلاثة G.T.A التي قُرئت بمعنى : G(enius) T(errae) A(fricae)، أي مستجن الأرض الإفريقية[61].

ولكن في نفس العهد كان لإفريقيا حامية خصوصية، لعلها تولدت عن نوع من الازدواجية في الآلهة الكبرى. وكانت تمثل بطريقة أخرى، أي على شكل امرأة تغطي رأسها بإهاب الفيل. وهو الشعار الذي أعطاه الفن الإغريقي من قبل إلى الإسكندر فاتح الهند، ثم أعطاه إلى أگاطُكْليس فاتح ليبيا. فالإلهة أفريكا تشاهد صورتها على نقود پومْبي، وميتِلّوس سِبْيون، وعلى غيرها من النقود التي سكّها ولاة رومانيون بإفريقيا وبرومة بعد موت قصير بقليل. وتُرى كذلك على نقود ملوك نوميديا وموريطانيا، أي يوبا الأول، وبوگود، ويوبا الثاني، وبطلمي. وفي العهد الإمبراطوري، فإن المآثر التي تحمل صورتها كثيرة جدا، من منحوتات وزليج Mosaïque ومصابيح ونقود وأحجار منقوشة وغير ذلك. وهذه الصور غالبا مالا يكون لها مغزى ديني. فإفريقيا المتشخصة يمكن أن تجثو على أنها مغلوبة عند أقدام أحد الأباطرة. لكن تماثيل صغيرة من البرنز، تمثل أفريكا Africa، وقد احتلت لاشك مواقعا في بعض المصليات المنزلية. ومع انعدام التكريسات الكتابية المنقوشة، فإن پْلين الشيخ Pline l'Ancien يشهد أنها حقيقة معبودة، وكانت توجه لها الصلوات والتمجيد. ويظهر أن نقود الملوك تبرهن على أن عبادة هذه الإلهة كانت منتشرة بين الأهالي منذ القرن الأول قبل الميلاد، وأن مجال عبادتها كان يمتد بجميع شمال إفريقيا، وليس فحسب على مقاطعة أفريكا أي الولاية الرومانية.

وكانت الإلهة الكبرى، أو إحدى المعبودات المنبعثة منها، مثل فُرْتونا Fortune (ربة الحظ الأعمى والفرصة السانحة)، هي التي كانت

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

تمثل بتاج جداري على نقود المدن الفينيقية التي على سواحل إفريقيا. وكان هذا توضيحا لدورها الخاص، بأنها حامية المدن. والمثال آت من فينيقيا ومن سورية، حيث صُوَرُ فُرْتونا كثيرة على نقود البلديات في العهد الهيلنِسْتي. ومثل ذلك فعلته سِرْتا عاصمة المملكة النوميدية، ولربما فعلته مدينة أهلية أخرى.

6

كانت الآلهة المحلية تستطيع الاستغناء عن الصور، فقد كانت حاضرة مع عبّادها، إما عندما تتخذ لنفسها شكلا ماديا كجسم حيوان حي مثلا، أو عندما تبقى خفية عن الأعين، وتقيم بالمكان الذي ارتضته، وتأذن للرجال أن يتصلوا بها فيه. ومع ذلك فمنذ عهد ما قبل التاريخ، خطط الناس على الصخور رسوما للكباش المقدسة، وسبق أن ذكرنا السبب الداعي لذلك(62).

في رأي الفينيقيين وكثير من الشعوب الأخرى، فإن الأحجار المنصوبة، سواء أكانت خشنة أم مقدودة، هي المقام المفضل للأرواح الإلهية. ونحن نجهل هل كان لليبيين نفس الاعتقاد قبل العهد الذي أمكنهم فيه تحمل المؤثرات الفينيقية. ونجهل كذلك هل استعاروا من الفينيقيين أو من غيرهم فكرة إعطائهم للحجرة المنصوبة شكل المعبود. وقد عثر في قلب الصحراء، في تِمَنْطيط Tamentit، على شيء كأنه عمود صغير، في آخره رأس كبش، ولاشك أن هذا كان حجرة مقدسة. ويسوغ الافتراض بأنها ترجع لعبادة دخلت إلى الصحراء على يد بعض البربر الأوفياء لعبادة الحيوانات Zoolâtrie التي كان عليها آباؤهم الأبعدون. ويجهل بكل أسف تاريخ هذه القطعة الأثرية. وكذلك فيما يخص أحجارا

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
أخرى شكلها متطاول Oblongue، عثر عليها بالصحراء، فهي أحجار كبيرة مبرومة Roulées، لاشك أنها اختيرت لتنصب. وقد نحت في جهتها العليا، بالنحت البارز بروزاً خفيفا وبأشد الطرق بساطة، الشكل البيضوي لوجه إنساني بحاجبين وأنف. فهل تكون آلهة يراد تمثيلها ؟

إن جل الديانات قد أخفت الكائنات الإلهية في الشكل الإنساني. والليبيون لا يُستثنون في هذا المجال. ولكن ربما أنهم انتظروا حتى يعطيهم الأجانب المثال. فالصورة ذات الجسم الإنساني Anthropomorphique للإله إيفرو Ifru يرجع تاريخها للعهد الروماني فحسب. وفي أحد النقوش اللاتانية عثرنا على تماثيل Simulacra لخمسة آلهة أهلية، عبدت بمجموعها غير بعيد عن تبسة. ولا نعرف أكثر من ذلك عن هذه الصور. كما لا نعرف شيئا عن شكل التماثيل الصغيرة من الخشب والمعدن التي كانت لگوزيل إله اللگونطيين Laguantan في القرن الميلادي السادس.

ولكن وثائق أشد قِدماً سبق أن ذكرناها، وكذلك النقود التي سكّها ملوك نوميديون وموريون، أو سكتها مدن كانت من ضمن دولهم، كل ذلك يبرهن على أن الأهالي حينما اتخذوا الآلهة الواردة عليهم من الخارج، قد تلقوا أيضا صورها المتجسمة. فمن ذلك آمون أو بَعْل حمّون في الشكل الإغريقي لزِيوس Zeus بقرني الكبش، إفريقيا التي تغطي رأسها بإهاب الفيل، والآلهة ذات البروج التي تحمي المدينة، وغير ذلك. وبهذا فإن البربر أنجروا لأن يبرزوا آلهتهم الخاصة في قسمات إنسانية. ونظرا لعجزهم عن أي مجهود فني، فإنهم اكتفوا إما بصورة خشنة جدا، وإما بنسخ من النماذج التي أبدعها الفن الإغريقي يكيفونها بطريقة ما، لتنضبط على آلهتهم.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وفي المغارة، وبقمة الجبل، وعند نبع الماء، وحول الشجرة، يسكن إله إحدى المجموعات البشرية الصغيرة، وهناك يأتي الناس لعبادته. فلهذه العبادات البدائية تكون المعابد والمصليات أمرا زائدا. لكن يحسن بالمكان المقدس الذي يتصل فيه العباد بالمعبود، أن يكون منعزلا انعزالا واضحا عن عالم الناس. ففي بلاد البربر نعثر بكل جهة على أسوار دائرية أو مربعة الشكل، مكونة من الحجر الجاف أو بالبناء، وتحيط بمواقع ضيقة غير مسقوفة. وتكريما للأولياء الحقيقيين أو الخرافيين، يُؤتى لهذه المواقع بالهدايا كالأواني والمصابيح والشموع والعطور. ويحتمل أن مثل هذه المواقع قد أُحدثت قبل انتشار الإسلام بكثير، وأنها تمثل أقدم شكل للمصلّيات عند أهل البلد.

أما الآلهة التي لها أصول أجنبية فكانت مطالبها متشددة. ولاشك أن المعابد أقيمت لها بالأماكن التي ترسخت فيها عبادتها. ففي ثوكا Thugga وثوبرنيكا Thuburnica وبولريجيا Bulla Regia وقع العثور على بنايات دينية ترجع لعهد الإمبراطورية الرومانية، غير أن بعض أوضاعها يبدو برهانا على التأثيرات الفينيقية. ويعتقد أن هذه التأثيرات حدثت منذ عهد الملوك النوميديين. بل قد بني آنذاك بعض المعابد الثرية وبهندسة إغريقية. ذلك ما تبرهن عليه بعض نقود يوبا الأول وقِطَع عثر عليها في سميثو Simitthu.

ولا حاجة بالآلهة الأهلية الصغيرة إلى كهّان، كما لا حاجة بها إلى صوَر وبنايات مقدسة. والمرء الذي يأتي ليقدم لها قربانا يرجو منه لنفسه فائدة، هو الذي ينحر قربانه. وعندما يجتمع لديها جمع من المؤمنين بها، فإن رئيس المجموعة، كشيخ العائلة أو حاكم المدينة أو سيّد العشيرة هو الذي يؤدي الشعائر باسم ذويه. فهذا الرئيس إذن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يقوم بالوظائف الكهنوتية، وإن كان في حقيقة الأمر ليس كاهنا. ذلك أن هيأة الكهان ليست واجبة الوجود، سوى في الديانات المستعارة من الخارج. فالكاهن يبدو على نذر بونيقي في سِرْتا، كما أن كهنة آخرين قد ذكروا في نقوش أحدث عهدا، بالبونيقية الجديدة. والطقوس الفينيقية متشعبة ودقيقة. وتتطلب علما خاصا، وحالة من التطهر لم يُقيّض للجميع نيلها والحفاظ عليها.

ولكن بعض الآلهة الأهلية، كان لها فيما بعد – هي أيضا – كهان وكاهنات. ففي العهد البيزنطي نجد أميرا على إحدى قبائل طرابلس يزاول كهنوتا حقيقيا في خدمة گُرْزيل Gurzil. لكن الكهان حيثما وجدوا، لم يكونوا في عهد الملوك على ما يظهر يشتركون في الحياة العامة، بحيث إن نوميديا وموريطانيا ليس فيهما أي شيء يذكّرنا بنظام الدّرْويد Druides وبقوتهم في غاليا Gaule. وحتى إذا كان قد وجد في هذه المقاطعات الإفريقية سابقون بالصلاح على الأولياء الحاليين – وهو ما نجهله نحن – فإنهم لم يكونوا كهنة، بل كانوا حائزين لقوة خارقة للعادة. كانوا أنصاف صلحاء، وأنصاف سحرة، ولم يكن عملهم الفردي خاضعا لأية سلطة عليا، كما أنه لم يكن يتجاوز حدود منطقة ضيقة.

ونكاد نجهل كيفية الممارسات للعبادة. ولابد أن الأعياد كانت على الخصوص احتفالات سحرية قديمة، تختلط أو تتصل فيها أعمال دينية مثل طواف التمجيد لأثينا ربّة بحيرة تريتونيس، بالإضافة على ما يبدو إلى طقس من طقوس تنحية الشر.

وتقديم الأضحيات لا يزال كثير الاستعمال عند البربر. فعلى غرار جميع المسلمين، فإنهم في العيد الكبير ينحرون الكباش في اليوم الذي تذبح بالقرب من مكّة فيه الأضاحي التي تنهي الحج. وهذه «عادة» جاءت

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مع العرب، ولكنها ليست أصلا في الأضاحي للعفاريت التي يراد تسكينها بإعطائها دم الأضاحي لتشربه، وللأولياء الذين يرجى عونهم بالنحر على قبورهم، بل وحتى لبعض الرجال الأحياء، ولبعض القبائل لطلب العفو أو العون. فهذه بالطبع طقوس قديمة جدا، ولا يوجد دليل على أنها اتخذت بتأثيرات رومانية أو بونيقية. ولا يستحيل أن تكون الأضاحي منذ العهود البعيدة التي كانت أثناءها الرسوم تخط على الصخور، قد قدمت لبعض هذه الصور. وفي القرن الخامس ق.م، كان جميع الليبيين – كما يقول هيرودُت – ينحرون الذبائح للشمس وللقمر. وأن الذين يعيشون حول بحيرة تريتونيس، كانوا ينحرون الذبائح أيضا إلى أثينا Athéna وإلى تريتون Triton وإلى بوسيدون Poseidon. ويوضح أن الرحّل يقطعون أولاً قطعة من أذن الحيوان، ويرمون بالقطعة فوق منازلهم. وبعد فعلهم هذا، فإنهم يلوون عنق الأضحية. وبعد ذلك بألف سنة يرينا كوريبوس الأهالي ينحرون بالليل في معسكرهم الحيوانات لآلهتهم گُرْزيل وآمون، وسنِفير Sanifere، ومَسْتيمان Mastiman. بل إن مَسْتيمان هذا يطلب قرابين بَشرية. وقد اتهم الليبيون بالقرابين البشرية في نصين آخرين، وإن كانت قيمتهما في الحقيقة قليلة جدا. وفيما يخص مستيمان، لا داعي لرفض شهادة كوريبوس، لأن كثيرا من الشعوب قد مارست هذه الذبائح. ولا لزوم لقبول القول بأن الأفارقة قد اقتبسوها عن القرطاجيين.

ولكن العبّاد الأهالي لِبَعْل حَمّون، كانوا يتعبدون لهذا الإله تبعا للطقوس البونيقية. فعلى غرار ما في قرطاجة وما في مستوطنات الساحل، فإن التضحيات كانت تتم في سِرْتا عقب أحد النذور. وبعد إجراء الاحتفال يقام في المكان المقدس نصب تذكاري يعلو بقايا الذبيحة. ونحن نعرف أكثر من مائتين من هذه الأنصاب بسِرْتا. وبها نفس الرسوم المقدسة التي على الأنصاب القرطاجية. وهي الهلال

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

المقلوب على القرص واليد المفتوحة، وشارة الطبابة Caducée والرمز المعروف باسم رمز تانيتْ. لكن في الغالب، فإن هذا الرمز الأخير قد تحول إلى وجه إلاهي في شكل إنساني، بينما إحدى التابعتين القائمتين المحيطتين به، قد صارت ذراعا تحمل شارة الطبابة، (مرة واحدة ظهرت تحمل سعفة نخل). كما أن الثيران والكباش ومائدة الإهداءات، والأواني، والسكاكين تمثل دون شك الأضحيات وأدوات التضحية. ولكن مغازي بعض الرسوم الأخرى مشكوك فيها جدا. مثل الحصان والمحراث (؟)، والأشجار وغير ذلك. وفي النقوش البونيقية المصاحبة عادة لهذه الصور، فإن الصيغ المستعملة شبيهة بالصيغ التي كانت تستعمل بقرطاجة، أو إنها تختلف عنها قليلا.

وفي نوميديا وقع العثور هنا وهناك على أنصاب مماثلة غير مكتوبة، أو بها كتابة بالبونيقي الجديد، ويمكن الرجوع بها إلى أواخر عهد الاستقلال. والعادة الفينيقية بإقامة الأنصاب فوق بقايا الأضحيات أو على القرابين، قد استمرت في العهد الروماني في كل من الساحل وبداخل البلاد.

وقد اعتاد الأفارقة منذ عهد طويل جدا، أن يستخدموا شتى الطرق لتنكشف لهم الأشياء التي يجهلونها، وعلى الخصوص منها المستقبل. ومن جملة ذلك طريقة الحَضْن Incubation التي استعملت في أشد الأزمان والمواطن اختلافا. يقول هيرودُت[63] : «إن النصمونيين يمارسون التنبؤ، وذلك بذهابهم إلى مقابر أجدادهم، فينامون فوقها بعدما يؤدون الصلاة، ويتبعون ما يرونه في الحلم». وفي أيامنا هذه، فإن البربر يذهبون فينامون في المغارات، وفيها يتلقون أثناء نومهم من العفاريت النصائح التي يرجونها. وآخرون أشد حرصا على العمل وَفقاً للإسلام، ينامون في أضرحة الأولياء. وفي الصحراء، فإن النساء الطوارق اللواتي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

يردن معرفة أخبار أوزاجهن الغائبين، يتمددن - كالنَّصَمونيين - فوق المقابر، حيث إن الميت أو أحد العفاريت يظهر لهن في الحلم ويخبرهن.

ونقرأ عند المؤرخ البيزنطي بْركوب Procope [64] : «عند الموريين يمنع على الرجال أن يتكهنوا بالنبوؤات، ولكن النساء اللواتي يتلقين الإلهام بعد القيام ببعض الطقوس، فإنهن يخبرن عن المستقبل، مثل العرّافات Oracles القديمات، لا أقل ولا أكثر». وقد قيل إن أمّ مسنيسًا كانت لها موهبة التكهن بالغيب[65]. ومثل ذلك، حسب الأساطير، كانت الكاهنة ملكة الأوْراس، التي قاومت الزحف العربي مقاومة شديدة.

أما عرّافة آمون (أي الخطاب التنبؤي) الذي كانت له شهرة كبيرة طوال عدة قرون، فإنه تقريبا قد وقع التخلي عنه حول بداية العهد المسيحي ويحكي كوريبوس، أن في عهده - وهو القرن السادس للميلاد - قد جاء أميران من الأهالي لاستشارة إله الواحة. غير أن هذا إنما هو من قبيل الخيالات الشعرية. فما قاله عن الطريقة التي أعطيت بها التنبؤات Prophéties، كان مستقى من الأوصاف الكلاسيكية لعرّافات أخرى، وقوله ليس متوافقا مع ما نعرفه من جهات أخرى عن عرّافة آمون.

ويمكننا أن نثق بكوريبوس عندما يُرينا الباربار Barbares الأفارقة أثناء بحثهم لمعرفة المستقبل من أحشاء القرابين. ولربما أن هذه الطريقة في الكهانة تكون قد استعيرت قبل ذلك بعدة قرون من القرطاجيين أو الرومانيين.

وقد كان للتنجيم حظوة كبيرة في إفريقيا الرومانية. ولكن، كما أننا لاحجة لدينا على ممارسة التنجيم في قرطاجة الأولى، فكذلك ليس لنا برهان على أن التنجيم كان يمارسه النوميديون والموريون في عهود ملوكهم.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الفصل الثالث

الأعراف الجنائزيـة

1

ليس مستحيلا أن يكون بعض الأفارقة لم يكفنوا موتاهم، وأن يكونوا قد تخلصوا منهم بصفة أو بأخرى، وذلك بأن يتركوهم مثلا للكلاب أو للوحوش الضارية أو للطيور المفترسة، أو بإحراقهم ورمي رمادهم مع الريح، أو بإلقائهم في الأنهار أو البحر[66]. وهذه الطريقة الأخيرة كان من مساوئها أنها لا تقضي نهائيا على الجسم، وأنه يمكن أن يطفو بعيدا أو قريبا من المكان الذي رمي فيه. وحسب قول سيلْيوس إيطاليكوس كان النّصَمونيون يرمون بجثث موتاهم إلى أمواج سدرة الكبرى. فإذا فرضنا صحة قوله هذا، فلا يمكن أن ينطبق على هذه العشيرة كلها، لأن هيرودُت ذكر لها أحد الطقوس الجنائزية المختلفة جدا[67].

في العهود البدائية، أجريت عمليات للتكفين في بلاد البربر كما في أوربا، في بعض المغارات، من خلال طبقات الرماد وبقايا المطبخ الدالة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

على وجود الأحياء سابقاً. ونلاحظ في هذا العهد المبكر وجود طقوس سنجدها من بعد في مدافن أحدث عهدا بكثير.

إذا كانت عادة وضع الموتى في كهوف طبيعية، قد بقيتْ واسعة الانتشار بين الـگْوانش في جزر كناريا، فإنها قد أصبحت في بلاد البربر نفسها نادرة جدا في العهد التاريخي. غير أن المغارات الجنائزية المحفورة بيد الإنسان كثيرة الوجود في هذه المنطقة. وهي تُدْعى باسم الحوانيت Haouanet ومفردها حانوت Hanout، وهو لفظ عربي معناه الدكان.

وجميعها - تقريبا - محفورة في الجدران الصخرية، حيث تصطف، وأحيانا تتراكب. على أن بعضا منها يختفي في قطع صخرية عظيمة منعزلة ومتولدة عن بعض الانهيارات الصخرية.

هذه الحوانيت يدخل إليها من فتحة رباعية الشكل، جعلت عمودية، ولا يسبقها ممر قصير جدا ومفتوح على السماء إلا في حالة نادرة يكون فيها المدخل قد أنجز في جدار صخري مائل. وهذه الفتحة صغيرة في العادة. وهي أشبه بالنافذة منها بالباب. وجانبها الأسفل يكون على مستوى أعلى من أرضية الحجرة. ولبلوغها لابد أحيانا من استعمال السلَّم. وكانت تغلق من الخارج بصفيحة صخرية كما يدل على ذلك غالبا ما بها من الحزوز ونقرات التعشيق.

ويكاد قَبْوُ الدفن يكون دائما رباعي الشكل، بسقف منبسط أو مقوّس. أما الحجيرة Cellule الدائرية بقبة نصفية، فقد توجد ولكن مع قلة. ومقاييس الحوانيت ضيقة، على الأقل في التي يبدو أنها أكثر قدما. وهي في الغالب أصغر من أن تكون قد اتسعت لرجل متمدد. وحيث إنه

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

لا يعقل أن تكون هذه الحجرات جميعا قد خصصت للأطفال، فلابد من التسليم بأن الموتى قد وقع طيّهم وفقا لعادة كثيرة الوجود بإفريقيا منذ العهود البعيدة، أو إنهم قد حولوا إلى عظام عُريت من اللحم ورِوكمت، أو إنهم أحرقوا. وهذا طقس كان قليل الشيوع في المدافن الأهلية، وعهده فيها متأخر.

ويعثر على الحوانيت من الساحل الشرقي للقطر التونسي إلى المغرب[68] . وتكون بجوار البحر كما قد تكون بالداخل. وتوجد بكثرة على الخصوص بشمال القطر التونسي (بين مجردة والبحر الأبيض المتوسط)، وكذلك بشرق القطر الجزائري، بحيث إنها في بعض الجهات تعدّ بالعشرات بل وبالمئات.

نحن نعلم أن بعض السكان البربر، قد حافظوا، في العهود التاريخية وإلى أيامنا، على عادة العيش في المغارات التي جلها اصطناعي. وبالطبع فإن هذه المساكن، لابد أن تكون متسعة، بحيث تستطيع العائلة أن تتصرف فيها متحركة وأن تنام. وتوجد حوانيت عتيقة لها الأبعاد الضرورية للمساكن. ولكن لا مجال للشك في أن أغلبية هذه الحجرات قد كانت مدافن. وذلك أمر واضح في تلك التي لا يستطيع امْرؤٌ حيّ أن يتمدد فيها، وكذلك بالنسبة للحجرات التي نلاحظ أن صفيحة إغلاق فتحتها تنطبق عليها من الخارج، وكذلك الأمر بالنسبة للحجرات التي لابد من السلّم للوصول إليها. وجل الحوانيت قد فُتحت وأفرغت. ومع ذلكن ففي البعض منها عثر على عظام بشرية حطت بها، على ما يظهر، أثناء عمليات قديمة للدفن.

لقد حفر الفينيقيون في الصخر سراديب جنائزية، كادوا دائما يجعلونها مستطيلة الشكل. غير أن ما يميز هذه المدافن عن الحوانيت،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

هو أنها تكون في باطن الأرض، فينزل إليها من فتحة أفقية، هي عبارة عن فم بئر تكون عميقة إلى حد ما، وبها يوجد مدخل الحجرة. إن المدفن الفينيقي هو ناووس hypogée يخفى فيه الميت، أما الحانوت فهي بفتحتها العمودية تشبه المسكن. فالتصوران مختلفان كل الاختلاف. ولا داعي للاعتقاد بأن أهل البلد استعاروا من المستوطنين الذين قدموا من أسيا. وفي بعض الجبانات بداخل الأراضي نجد الحوانيت مختلطة بالدلْمينات Dolmens التي هي آثار أهلية. وإذا كانت عدة من المواقع البحرية التي أقام بها الفينيقيون، قد جرى بها، من خلف الجدران الصخرية، حفْرُ بعض الحجرات التي ليس لها بئر، وتنفتح على الخارج مباشرة بفتحة عمودية، فلربما أن ذلك كان على مثال المدافن الليبية.

غير أن الحجرات الجنائزية المحفورة في الأجراف Falaises ليست خصوصية بأجداد البربر، فهي تكاد توجد بجميع بلدان البحر الأبيض المتوسط. وأقدمها يؤرخ له بنهاية عهود الحجري الجديد. وعلى العموم فقد استعمل فيها أولاً الشكل الدائري الذي كان مستعملا في أكثرية المساكن. أما الشكل الرباعي الذي هو قديم جدا في مصر(69)، فيعثر عليه بالقرب من إفريقيا، في صقلية وسردانية منذ النصف الثاني للألف الثانية. وعلاقة الانتساب بين المدافن الرباعية الشكل في هاتين الجزيرتين وبين الحوانيت ليست على الأرجح علاقة عرضية، ويبقى أن نعرف من أي جانب جاء المثال المحتذى. لقد كان بمستطاع الأفارقة، ودون احتياج منهم لتقليد الغير، أن يقع اختيارهم على هذا الشكل لسببين اثنين، أولهما أنهم كانوا لسكنى الأحياء يفضلون الشكل الرباعي على الشكل الدائري، وثانيهما أن نوعا آخر من المدافن، كان مستعملا بكثرة في الجهة التي كانت تحفر فيها الحوانيت، هو الدُّلْمين Dolmen، وهو رباعي من حجر مستطيل الشكل.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ولا شيء يبرهن على أن من بين الحوانيت المعروفة اليوم، ما هو قديم جدا. وحتى إذا استطعنا التأكيد أن بعضا منها قد حُفرت بمعاول حجرية، فإن هذا لا يسوغ استنتاج كونها ترجع لعهود سابقة على استخدام البرنز أو الحديد، لأن أدوات تشبه تمام المشابهة القطّاعات المصقولة haches polies - التي هي من العهد الحجري الجديد - قد استخدمت في المحجرات الرومانية. والواقع، أن آثاراً لأدوات معدنية كالمعاول والإزميلات، قد شوهدت على جدران الحوانيت، حينما فحصت بتَأَنٍّ. ولقد سبق لنا القول بأن هذه الحجرات يعثر عليها بالقرب من الدلمينات التي لاشك أنها ليست راجعة لعهد كثير الاختلاف، وفي الركنية Roknia قرب قالَمة، فإن كثيرا من الدلمينات قد نصبت أمام فتحات الحوانيت، ولذلك فهي أحدث عهدا. غير أننا سنرى أننا لا نعرف أي دُلْمين إفريقي يرجع بصفة لا نزاع فيها لما قبل القرن الثالث قبل الميلاد. فالوضع المثني الذي يفرضه ضيق الكثير من الحجيرات، ليس حجة - كما سنرى - تشهد بتغلغلها في عهود التاريخ القديم. والأمر الذي يحق لنا افتراضه، هو أن هذا النوع من الدفن لم يقتبس من الفينيقيين، بل إنهم على النقيض من ذلك قلدوه أحيانا على ما يبدو، وأنه قد وقع تبنّيه adopté في إفريقيا قبل الأزمنة التي انتشرت فيها حضارتهم لدى الأهالي، ربما في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، ولربما قبل ذلك أيضا.

وبما اعتاده الأفارقة من وفاء للماضي، فإنهم قد حافظوا على هذا النوع من الدفن، وأدخلوا عليه تغييرا. وقد حفرت على جدار أو جدارين اثنين كوات شبيهة بتلك التي يكثر وجودها بداخل السراديب الجنائزية البونيقية، ليوضع بها قنديل أو شيء آخر. أما الحجرة فقد اتسعت، لأن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الأهالي - على غرار الفينيقيين - قد دفنوا الأجسام متمددة، وليست منثنية. وعلى غرار ما بالقبور البونيقية التي من عهد متأخر، ربما أن مصطبات منجزة في الصخر أمام الجُدران، وحُفراً في الأرض قد استعملت مراقد لموتى متمددين. ولربما أن بعض الكوات كانت تضم جرات بها بقايا إنسانية محروقة. وفي أغلب الأحيان، فإن فتحة تكون في جدار القعر، تفضي إلى حجرة أخرى. وقليلا ما تكون هذه الفتحة في الجدران الجانبية.

هذه السراديب نال بعضها زخرفة معمارية بسيطة وبارزة. وعلى قلة نجد في غيرها صورا منقوشة أو محفورة، ورسوما لحيوانات وأشخاص ومشاهد غامضة. فهي قبور ربما يرجع أغلبها، إن لم يكن جميعها، للعهد الروماني.

ففي هذا العهد، أي القرنين الثاني والثالث، حفرت في الصخر بالقرب من مستوطنة مَداوُرُش حجرات ذات شكل مستطيل وفتحة ضيقة عمودية. وهي تذكرنا بالحوانيت. ويمكن التأريخ لها بالنظر للأثاث الذي تشتمل عليه وللشواهد اللاتانية التي تعلوها. أما المدافن المسيحية التي في تيبازا Tipasa، فإنها إلى جانب القبور من الطراز الفينيقي ذات الآبار، يوجد بها سراديب صخرية لها فتحة صغيرة عمودية. وتكون حُفَر الدفن بها في العادة محفورة في الأرض. غير أن أحد هذه السراديب، حيث نجد بقايا من رسوم تمثل أشخاصا، توجد حُفَر الدفن فيه مقدودة في مصطبات، كل واحدة منها يعلوها تجويف واسع مقوس. وهذه طريقة يكثر وجودها في المدافن المسيحية، وتسمى بقوس الدفن Arcosolium، وهي تتمازج هنا مع شكل الحوانيت الأهلية القديمة. وقد استمرت هذه

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الطريقة زمنا طويلا أيضا، لأن الحوانيت التي في تازة وفي فاس، هي بغير شك ليست سابقة على العهد الإسلامي.

2

في عصر ما قبل التاريخ، لم يدفن الموتى في المغارات التي كان الأحياء يسكنوها فحسب، بل وقع دفنهم أيضا في محطات الإقامة المؤقتة التي كانت تقع بالهواء الطلق. وفعلا يقع العثور على بعض العظام الإنسانية، بين بقايا الطعام وفي الرماد بالكثير من هذه المحطات، وإذا أمكن تفسير وجودها بطريق مختلفة، فيحتمل غالبا أنها مدافن حقيقية.

فهل استمر الأفارقة بعد ذلك في دفن أقربائهم بنفس المكان الذي كانوا يعيشو به، تحت أكواخهم ودورهم ؟ إن ذلك عمل كان منتشرا لدى كثير من الشعوب القديمة، من أرض بابل إلى أسبانيا، غير أننا لا برهان لدينا عنه هنا.

ولكننا نعرف الآلاف من المدافن العتيقة المتخذة خارج الأماكن المسكونة، والتي لم تكن حتى الآن، مع الأسف، سوى موضع لدراسات سريعة غير كاملة. فتحرير القوائم، والتنقيبات العملية المنهجية، والوصف الدقيق لهذه القبور، تكون كلها مهمة مستعجلة للآثار الإفريقية.

وهناك طريقة للدفن بسيطة جدا، وقديمة جدا بدون شك، وتتلخص في إحداث ثقب أو حفرة قليلة العمق، الأمر الذي ينجز في وقت قصير إذا كانت الأرض ذات تربة سهلة. وعلى هذا الشكل - حسب قول سيليوس إيطاليكوس - يقوم الأثيوبيون الصحراويون والـگرامَنْطيون

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

Garamantes بمواراة موتاهم في الرمل. وكذلك، فقد كان بالإمكان استخدام بعض التكسرات الأرضية accidents de terrain كأحد التجويفات أو مثل شق في الصخر[70]. وليس من السهل التعرف على هذه المدافن، إذ لايوجد أي أثر يشير إليها بالخارج، وعندما لا تتحلل العظام برطوبة الطقس، فإن عمّال الحقول يبعثرونها دون أن يشعروا. وبالإضافة إلى هذا، فإن الصعوبة القصوى هي في اقتراح تاريخ لها، ولو كان تاريخا تقريبيا، وذلك عند انعدام أي أثاث جنائزي، وهو الأمر المعتاد جدا. فالوضع المنثني للجسم يمكن أن يكون علامة على القدم antiquité، غير أن الحرّاث الذي يصدم محراثه العظام لا يعنيه في شيء أن يبحث على أي وضع توجد العظام. وفي بعض الأحيان، فإن وجود أحد القبور ينكشف من خلال طبقة أحجار خشنة، هي عبارة عن كتل أو صفائح، كانت موضوعة في الحفرة، من فوق الجثة، لحفظها على ما يظهر من الكلاب والوحوش. وقد شوهد وجود هذا الغطاء الواقي في بعض المدافن الليبية العتيقة.

وإذا كانت الحفرة قد قدت في الصخر، فإنها تثير الانتباه. وفي إفريقيا ذكر وجود العديد من حُفَر الدفن هذه التي يمكن التأريخ لكثير منها إما بالأثاث الذي بها، وإما بالشواهد اللاتانية التي تصاحبها، وإما بالقبور المحيطة بها. فالبعض منها يرجع لما قبل العهد الروماني، والبعض الآخر لما بعد الفتح الروماني، كما أن بعضها يؤرخ له بالعهد المسيحي، أو يرجع لعهد أحدث. لكن، ومعلوماتنا الحالية على ما هي عليه، فإن هذا الطراز من المدافن يبدو لنا على أنه فينيقي، وأنه انتشر في إفريقيا بتأثير الفينيقيين على ما يظهر.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وفي الغالب فإن الحفرة التي كان الموتى يوضعون فيها، كان يمكن أن تعلوها رابية، من السهل فهم زوالها. والتلات الجنائزية التي هي من حجر، والتي سنتحدث عنها، توجد بكثرة في بلاد البربر، ولكن قد أقيمت أيضا تلات من تراب. فبالساحل الشرقي للقطر التونسي، في العالية وفي سَلَقْطا Salakta يوجد منها ما يغطي صناديق من حجر، وما يغطي دُلْمينات. ويسوغ الاعتقاد أن مدافن بسيطة جدا، هي عبارة عن كومة تراب لها شكل مخروطي، كان يوضع تحتها الميت في حفرة، أو حتى من فوق الأرض عندما يراد تجنب مشقة الحفر، أو عندما تكون التربة صلبة جدا، لا تسمح بالنيل منها.

أما المنشآت الجنائزية التي من حجر، فلاداعي فيها للافتراضات، فهي تكاد توجد بكل مكان، من المحيط الأطلسي حتى السدرَتَيْن، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى قلب الصحراء.

إنها في الغالب تقوم بالأماكن الكثيرة الحجارة، أو بالأماكن الصخرية على منحدرات التلال، وبأكناف الجبال، وعند حافات الأجراف وبالمنبسطات العالية، وعند الشطوط الوعرة للأنهار. ولابد أن الأعمال الفلاحية قد حطمت العديد منها في السهول. ولكن من الواضح أنها قد جرى تفضيل إقامتها في الأمكنة التي تكون فيها المواد في متناول اليد، من أحجار، وحصى وحصبة يسهل تناولها، ومن صخور يسهل على الصانع أن يقتطع منها صفائح كبيرة. بحيث إنهم «استحسنوا نقل الموتى إلى الأحجار، لا الأحجار نحو الموتى». ويحتمل أيضا أن من هذه المدافن بعضا أنجزه الفلاحون، إذ لم يرد شغل أراض خصبة وجعلها غير صالحة.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82

لكن في الأرض التي يسكنها المستقرون، فإن المقابر غالبا ما تكون بجوار المدن والقرى (التي أقيمت هي نفسها لأسباب دفاعية بمواقع وعرة). بل إن المقابر تتزاحم أحيانا عند أسوار المدينة. أما بالجهات التي يسكنها الرعاة فيفضل جعل المدافن قرب الملجأ الذي تتجمع به القبيلة عند حدوث خطر، وبالقرب من منابع المياه، حيث تقودها الضرورة باستمرار، وبالقرب من الممرات التي يجتازها الرحّل في رحلاتهم. وهي ترى من بعيد عادة. ونظرا لإقامتها فوق بعض المرتفعات، فهي معرضة للشمس. ولربما أن بعضا منها قد وضع عن عمد بطريقة تجعله يقع تحت أشعة الشمس عند الشروق.

3

من هذه المدافن ما يلوح للنظر ذا شكل مستدير، يحيط به سور. ويبلغ قطر الدائرة خمسة أمتار. وقد يكون الشكل بيضويا، وقلما يكون رباعيا. ويتكون السور من مواد خشنة، أو تناولها النحت للتربيع قليلا. وأحيانا تكون الأحجار المغروسة في الأرض منتصبة متماسة، أو قد تتباعد عن بعضها البعض قليلا. ويحدث أن إحدى الأحجار قد تفوت الأخريات، فتكون علامة لمعرفة القبر. وأحيانا أخرى توضع الأحجار منبسطة كأحجار حافة البئر. وأحيانا فإن عدة قواعد من قطع صغيرة متراكبة تراكبا جافا (دون ملاط) تكون سورا قصيرا. فيسوغ أن نطلق على هذه الآثار اسم كُرُمْلِك Cromlech، وهو لفظ من اللغة البروطونية السفلى Bas-Breton يستخدمه علماء ما قبل التاريخ من الفرنسيين.

إن الكُرُمْلِك القديمة بإفريقيا ليست جميعها مقابر. فالبعض من هذه الدوائر التي نعثر عليها متخربة، لابد أنها كانت حظائر للماشية،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وسياجات لأكداس العلف، ومخازن للتبن، وأساسا للمنازل، وحياطات للخيام، أو كانت على الخصوص أسوارا تحيط بأماكن مقدسة في العراء. ولكن عندما تكون في حالة جيدة، فإن الكُرْمُلِك الجنائزية تتميز من بين هذه المباني المختلفة، بانعدام وجود ممر يفضي إلى الداخل، بحيث إنها تكون دوائر تامة.

في الوسط، غالبا ما تعثر التنقيبات تحت سطح الأرض على القبر نفسه، وهو عبارة عن حفير عميق إلى حدما، به البقايا الإنسانية مصونة عادة بغطاء يتكون من عدة صفائح حجرية. وأحيانا، فتحت الغطاء صفائح أخرى منتصبة، أو أسوار قصيرة خشنة البناء تحيط بجوانب الحفير، والكل مجموع بالجاف (بغير ملاط). وقلما يضم الحوش أكثر من قبر واحد.

أما سطح الأرض بداخل الدائرة (الحوش) فيبقى عاريا، أو قد يكسى بفرشة من الأحجار أو بصفائح حجرية بسيطة. ومن الكرملك ما يكون به دائرة واحدة أو دائرتان بمركز مشترك Concentrique مع الدائرة الخارجية، وبناؤها جميعا بنفس الطريقة.

والقطر الجزائري على الخصوص، هو الذي ذُكرت به هذه الآثار. فهل هي تامة، على حالتها التي نجدها عليها ؟ في هذه الحالة، يمكن أن ينظر إلى السياج على أنه حد لأرض الميت. فهو حد يجب على الأحياء أن يحترموه، ولكن على الميت كذلك أن لا يتعداه ولا يذهب لتعكير راحة الأحياء[71]. وحتى اليوم فغالبا ما يقام سور ذو شكل مستدير أو مستطيل، عالٍ إلى حدما، ويحيط بمكان منفتح من أعلاه على السماء. وبموسطة هذا المكان ينتصب القبر أو الخلوة الجنائزية لشخص جليل، بينما أسوار أخرى أكثر بساطة تحيط بحفائر يدفن فيها مطلق الناس. أما

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الدوائر الداخلية في الكرملك القديمة، فقد كانت وكأنها حاجز إضافي، بينما فرشة الحجارة أو الصفائح كانت صونا من الحيوانات الضارية.

ومع ذلك، فإني أكون مستعدا للتسليم بأن الكثير من هذه الكُرُمْلِك هي تكتيلات تتكون منها تلات جنائزية من تراب. والدائرة الخارجية – مع أنها ربما كونت الحاجز الطقسي Rituel – فلابد أنها كانت تمسك أطراف التلة وتمنعها خصوصا من الانجراف بالمطر. وفي تونس نلاقي دوائر داخلية في مساحات مغطاة بتلات جنائزية من تراب. إذن، فبالنسبة للكرملك يكون من المقبول أنها لم تترك عارية. ويمكن أن تفسر بحجة الشعائر الدينية التي أشرت لها آنفا، كما أنها قد تكون عبارة عن أطراف لتلات قد وقع توسيعها من بعد. وختاما، فلعل الصفائح الحجرية المفروشة بالأرض قد كانت حماية مجدية حتى تحت تلة جنائزية إذا كانت مجرد تكديس للتراب.

ونضيف أن تنقيبات لم تعط نتائج قد أجريت في بعض الكرملك التي كانت بمظهرها وبموقعها في المدافن، تبدو حقيقة أنها قبور. ولعل العظام قد تحولت غبارا، أو أنها ذابت في تربة بليلة. ومع ذلك فهناك افتراض آخر ممكن. وهو أن الميت ربما لم يوضع في حفير، بل على سطح الأرض، ثم غطي من بعد بالتلة. ولعل كل أثر لهذا الميت بعد ذلك قد اختفى مع التلة المجعولة لصَوْنه.

فهل معنى هذا أن جميع الكرملك هي تلات جنائزية جردت عن قبتها الترابية ؟ في اعتقادنا يمكن التسليم بأن الأفارقة مع الزمن قد اعتبروا التلة شيئا زائدا. وأن فرشة سميكة من الأحجار، أو أن تصفيحا حجريا متينا، أو أن تعميقا كبيرا للحفير، وبغطاء قوي فوق حفرة الدفن (بهذا أو ذاك) تضمن حماية الموتى ضمانة كافية. وفوق هذا فإن إلغاء

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
التلة يمكن أن يسهل تعاقب الدفن في نفس الحفير. فبهذا، قد يكون تولد أنموذج الحوش المنفتح من أعلاه على السماء، وهو لا يزال - كما قلنا - مستعملا عند البربر.

4

إن التلات الجنائزية المبنية بالحجر - سواء أكان ذلك بقطع صخرية، أم بحجر كبير أو صغير - قد قاومت الزمان طبعا أكثر من أكداس التراب. فمزيتها أنها أحسنت حماية ضيوفها، كما أنها جعلتهم في سجن أكثر أمانا. وزيادة على التلات التي من حجر صرف، فمن المحتمل أن تكون قد أقيمت تلات نصفها حجر ونصفها تراب، كما أن تفتت التراب يمكن أن يفسر لنا في الغالب الشكل المنخفض جدا، الذي نشاهده اليوم في الكثير من هذه القبور.

في موسطة القطر الجزائري وشرقه، يطلق الأهالي عليها اسم بَزينا Bazina، وهي لفظة بربرية معناها الأكمة Butte، أما بالجنوب وبالصحراء فيستعملون اللفظ العربي : الرجْم Redjem أي كدس الحجارة، كما يستخدمون لفظا (عربيا ؟) آخر هو الكَرْكور Kerkour الذي له نفس المدلول. وسنستخدم نحن لفظ البزينا.

وكما هو الشأن في جميع الكرملك، فإن التلات الجنائزية التي نلقاها بشمال إفريقيا، ليس جميعها آثارا جنائزية. فالبعض منها يظهر وكأنه كان أنصاب حدود، على غرار ما كانت عليه أضرحة فيلين Autels de Philène (أو أضرحة الفيلينيين) تلك التي كانت في عمق سدرة الكبرى علامة على الحدود بين إمبراطورية قرطاجة وبين سرنيكا (برقة)، والتي قيل عنها إنها كانت أكداسا من التراب تعلو قبورا. وبعض

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

البزينات كانت علامات ترشد المسافرين إلى الطريق التي ينهجونها في الجهات الصحراوية. وبعض منها قد تكون على مهل، بمختلف الجهات التي كانت فيها المعتقدات الخرافية تلزم كل إنسان يمر بها أن يرمي حجرته، فيشترك هكذا في تضخيم التلة. ولربما أن البعض منها كان أحجارا مبعثرة في الحقول، وأن الفلاحين تخلصوا منها بأن جعلوها أكداسا. ومع ذلك، فقلما نقبت إحدى البزينات ولم يلاحظ أنها حقيقة قد كانت مدفنا[71مكرر].

هذه التلات الجنائزية، أقيمت عادة حسب تصميم دائري، وقد تكون بيضوية في الغالب، وأحيانا مربعة، وقلّ أن تكون سداسية التصميم. ولها إذن شكل مخروط أو هرم، والأغلب هو المخروط والهرم الناقص، أي بقمة منبسطة. أما العلو فمتغير جدا، ولربما أنه ينخفض مع الزمان. والمقابر المستديرة لها قطر يتراوح بين 5 و6 أمتار. ولكننا نعثر على ما لا يكاد يتجاوز ثلاثة أمتار. وبعض آخر منها كبير جدا يبلغ قطره نحو عشرين مترا، وقد يتجاوزها.

والأحجار ملزقة من غير ملاط، ولكن يحتمل أن بعض البَزينات قام فيها الطين البليل مقام الأسمنت. ولوقف الانهيار، فإن النطاق الخارجي يقويه – على العموم – حزام من أحجار كبيرة موضوعة وضعا أكثر تناسقا. ونشاهد بها نفس الترتيبات التي في الكرملك، من كتل أو صفائح قائمة، ومن كتل منبسطة. أما حيث لا توجد سوى أحجار صغيرة، فهناك الأسوار ذات المداميك Assises. وقد تنزل هذه المداميك عمودية بعضها فوق بعض، وبهذا فإنها في التلات المستديرة تكون فقرة مستديرة (طبلة) أسطوانية. كما قد تتراكب على شكل درجات. وأحيانا يكون السور بالتوضيع البربري (Appareil berbère)[72]، فله سطران من

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الصفائح الحجرية القائمة يحيطان بالحجارة. أما الأحجار المثبتة على منحدرات التلة، فغالبا ما تكون مصفوفة ببعض العناية، بحيث إن مجموعات من الدرجات أو من الحلقات المتحدة المراكز تضمن متانة المجموعة. وفي غيرها تكونت البنية بإحداث خطوط دائرية تنزل من القمة إلى محيط الدائرة، فتقسم الجسم إلى نخاريب Alvéoles. وفي غير هذه، فإن السطح الخارجي قد كُسِي بدرع من صفائح الحجر لكي تفرض على مياه المطر أن تجري بسرعة، ولا تتسرب للداخل. أما المسطح الذي برأس التلات التي لها شكل جذع المخروط أو الهرم فيمكن ان يحاط بحزام من الحجارة، فتكون كأنها دربوز. وأحيانا فإن إحدى الأحجار - على غرار ما في سور بعض الكرملك - تكون أعلى من الأحجار الأخرى، فهي علامة تقوم منتصبة إما فوق الحزام الأسفل، وإما على جانب المخروط، وإما على حافة رأسه المسطح.

وعلى العموم، فليس هناك سوى قبر واحد في الوسط، وإن كان القبر ليس دائما في الوسط. وبعض البزينات تضم عدة قبور.

فهنا قد وضع الميت على سطح الأرض نفسها، وذلك ما أعفى من بذل مجهود شاق في الأراضي الصخرية، وهناك حُفِر لدفنه حفير بيضوي الشكل قليل العمق، ويغطيه كدس الأحجار مباشرة، بحيث ليس لدينا أي برهان على أنه كان موضوعا داخل تابوت خشبي. وبزينات العهد المتأخر، هي وحدها التي زاد فيها عمق الحفرة، فتحولت إلى ضريح يوضع فيه الجثمان متمددا، ويصان عادة بغطاء من صفائح الحجر، أو تكون الحفرة عبارة عن بئر ضيقة جدا، يرخى للجثمان فيها فينزلق وهو في وضع مثني.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ولكن من عهد باكر صنعت صناديق أو خزانات من حجر تضم الميت. وهي صناديق وضعت من فوق الأرض الطبيعية، أو تحتها في حفير، أو أن جزءا منها تحت الأرض وجزءا منها فوقها، وذلك ما لم تكن الجوانب المقتطعة في الحفير تمتد إلى أعلى بواسطة جوانب الصندوق. وهذه الصناديق منها ما ليس له غطاء، بينما بعضها الآخر عليه غطاء من صفيحة حجرية واحدة أو من العديد منها. وقلما يكون بقعر الصناديق صفائح. ولها شكل بيضوي، أو مضلّع أو رباعي مستطيل. فأحيانا - وهذا في الجنوب خاصة - تتكون الجوانب من صفائح رقيقة جدا، فتميل غالبا نحو الخارج مما يجعل المدفن يتسع من الأسفل إلى الأعلى. وأحيانا تستخدم صفائح أكثر سمكا وتنصب بالموقع، أو أحجار صغيرة تكون أسوارا ذات مداميك Assises. وهكذا يُبنى صندوق متين، عادة مربع الزوايا، هو عبارة عن دُلْمين تحت تلة جنائزية من حجر. وأحيانا فإن الصفائح المنتصبة تكون مع الأسوار جنبا إلى جنب في نفس الصندوق. وأحيانا فالأسوار لا تكون إلا على الجانبين، والسوران يتقابلان. ويحدث أن الأسوار، عوض أن تنزل عمودية، تكون ذات خرجات Encorbellement، أي إن المداميك المتدرجة ينيف بعضها على بعض قليلا، وعند الأعلى يضيق مأوى الميت.

ويبدو من بعض التلات الجنائزية وجود دائرة داخلية، هي عبارة عن سور صغير منتظم، يحيط بالحيز الذي يوجد به الميت، سواء أكان هذا الميت قد وضع على الأرض فحسب، أو جعل في صندوق (تابوت). ولقد سبق لنا القول عن كيفية تفسير وجود هذه الدائرة، بحيث إنها حاجز فرضته الطقوس، او هي حد لتلة جنائزية قديمة جرى توسيعها فيما بعد، كما يمكن أن نفترض مثلا أنها حد قصد به تثبيت قسم من أحجار هذا الأثر المخروطي الشكل، والمساهمة في تماسك كتلت الأثر.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
ونلاحظ أخيرا أن هناك مدافن هجينة hybrides، بحيث إن هناك تلاّت جنائزية تقود فوق ناووس جوفي (مدفن في باطن الأرض hypogée) كأنه بئر من الطراز الفينيقي، أو هناك حجرة قبتها من الداخل معقودة بالآجر المثبت بالملاط، أو عدة سراديب للدفن تتكون من الحجر المنجور الروماني.

ويطول الحديث في تعداد الأمكنة التي ذكر أن بها بازينات Bazinas وذلك بغض النظر عن تلك التي يجهل علماء الآثار وجودها أو التي لم يتحدثوا عنها. وتباغتنا كثرتها بداخل أرض البربر على الخصوص، فهي موجودة بالجبال التي تحد شمالا منطقة السهوب الجزائرية، وفي السهوب نفسها، وبالأطلس الصحراوي، وبالجنوب التونسي، وأخيرا بالصحراء[73]. وعدا هذا فلا يجب الاعتقاد بانعدام وجودها في الأراضي المجاورة للساحل. فهناك أيضا تتكشف التلات الجنائزية التي من الحجر الجاف لمن قام بالبحث عنها. لكن النباتات ووجود آثار أخرى أهم، وكذلك البناءات العصرية غالبا ما تعوق عن الانتباه لها، وفوق هذا ففي هذه المناطق التي بقيت دائما آهلة بالسكان، فإن الكثير من البازينات لابد قد وقع تهديمها لاستخدام حجارتها من بعد. ومع أنها قد أحصي منها ألف في ثُبورْنيكا Thuburnica بالقرب من غار الدماءGhardimaou فقلما جمعت على شكل جبانات كبيرة. أما في السهوب والصحراء، أرض الرحّل المتفرقين، فإن البازينات يقع العثور عليها بمجموعات صغيرة - قلما تفوت اثنتي عشرة أو أربعا وعشرين - ويبعد بعضها عن بعض.

إنها في إفريقيا آثار بربرية حقيقة، أقامها البربر حيثما عاشوا. وبخارج الصحراء، لا توجد بازينات في الأقسام التي دخلها البربر من أرض السودان.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

5

إن المدافن الإفريقية التي يحسن تسميتها بالدُّلْمين Dolmen – وهو لفظ من البروطونية السفلى Bas-Breton – والتي لا يبدو أن الأهالي قد أطلقوا عليها اسما خاصا، هي وحدها التي تستحق أن توصف بأنها ميغالية mégalithiques. فقد استخدمت فيها الحجارة الكبيرة جدا، البالغة في الضخامة غالبا، وخصوصا منها الحجارة المائدية العليا الموضوعة على الحمالتين، وتغطي الفراغ بينهما.

وللحصول على هذه المادة، كان الاختيار يقع على الصخور الكلكيرية والشِّسْتية ذات الأسواف الطبقية Bancs stratifiés فعلى سطح الصخرة، يقع حفر مغارز منتظمة في خط، ويبعد بعضها عن بعض بعدا متساويا، ثم تلز في المغارز أوتاد خشبية مبلولة بالماء، وحتى إذا انتفخت الأوتاد انشطرت الصخرة. وهكذا كان يتم الحصول على صفائح صخرية لها سمك طبقتها، وكانت تفك بواسطة الأوتاد التي تدخل في الشقوق، وعند الحاجة كانت تفصل وتربع بواسطة المطارق الضخمة. وبجدوع الأشجار المستعملة كزحلوقات Rouleau، وبالعتلات الرفاعة والحبال، وبالسطوح الترابية المائلة، كان في الإمكان نقل ونصب ووضع هذه الأحجار التي قصد بها أن تكون جدرانا عمودية أو سقوفا. وللقيام بهذه الأعمال كان لابد من زمن وسواعد. لكن حتى في العهد الذي كانت فيه أدوات الحديد في المتناول، فإن الأعمال كانت تستلزم مجهودا أقل مما كانت تستلزمه الخدمة في الاقتطاع المنتظم للكتل ذات الزوايا القائمة.

إن الخانة المكونة للدلْمين هي عبارة عن صندوق متين، ولابد أن يكون منغلقا كلية. والسنامات Senams[74] التي نلقاها في مقاطعة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

طرابلس وفي جهات أخرى من أرض البربر تلوح للناظر بقائمتين منعزلتين، تحملان كتلة قد وضعت معترضة، ولكنها ليست دلمينات كما ظن من قبل. وإنما هي بقايا من معاصر للزيت من العهد الروماني. ففي الدلمينات الحقيقية، توضع المائدة اليوم على قوائم قصيرة مجعولة عند الزوايا، ولكن بين هذه الدعامات (أي القوائم) التي قاومت الزمان كانت لاشك توجد جدران متينة اندثرت اليوم.

ودائما تكاد الخانات تكون رباعية الشكل، ولكن قد يكون منها ما هو شبيه المنحرف[75] أو بيضوي الشكل. وفي بعض الدلمينات التي لها جدران مبنية بناء خفيفا يكون داخل الصندوق بزوايا مستقيمة، ويكون الخارج بأركان مستديرة.

والشكل متطاول، لا مربع. والأبعاد الاعتيادية هي : 1.20 إلى 1.50 طولاً، على 80 سنتم إلى متر واحد عرضاً، وعلى 80 سنتم إلى 1.20 في الارتفاع.

وتتكون الجدران في الأغلب من أربع أحجار مقامة. وأيضا فغالبا ما تكون عدة أحجار متراكبة ليتكون منها جدار، على الخصوص في الجوانب الطويلة. وهذه الأحجار، هي بقدر الإمكان صفائح حجرية. وهي إلى حدما منتظمة الشكل، بحسب نوعية الصخر المعمول به. فآونة تستخدم الأحجار على حالتها عند خروجها من المحجرة، وآونة كانت تشذب تشذيبا خفيفا، ثم يوضع وجهها الأملس من الجهة الداخلية. وفي العادة فإن الأحجار تتماس فيما بينها، فيمسك بعضها ببعض، بل إنها أحيانا تزود بحزوز جانبية تساعدها على التشابك. وتقوم أحجار صغيرة هنا وهناك بسد الفجوات.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وفي عدد كبير من الدلمينات يعثر كذلك على جدران مكونة من كتل ذات أحجام صغيرة، خشنة، أو ربعت تربيعا تخينا، أو هي أحيانا قد اقتطعت بانتظام، وتكون متراكبة دون تبصر آنا أو على شكل مداميك. والطريقتان اللتان هما عبارة عن الكتل الضخمة المقامة وعن الجدران بالرضمات، كثيرا ما تمتزجان، وعلى العموم فإن الجوانب الصغيرة هي التي تكون الجدران عليها، أي على جانبين معا، أو على واحد في الغالب. وقد بني هذا الحاجز (الحائط) بصفة تمكن من تهديمه دون خطر على توازن المائدة، قصد مرور مدفونين جدد. وفي أكثرية الخانات لا يوجد اليوم هذا الحاجز. الذي لا بد أنه كان فيما مضى موجودا بكل منها تقريبا. لكن بعد الدفن الأخير، أو بعد النبش بحثا عما يفيد، لم يجر اهتمام لإعادة بناء الحاجز. وفي بعض المدافن بهَنْشير ميداد بتونس اتخذ حل آخر للتمكين من الوصول إلى الخانة، وذلك أن اللوحة الحجرية المكونة لأحد الحواجز يوجد بها - عند مستوى التربة - فتحة واسعة تمكن من مرور إنسان. ولاشك أن هذا الثقب قد كان في الأوقات العادية مغلقا بأحجار صغيرة. وفي مدافن أخرى، كانت لاشك لوحة الجانب الرابع هي التي يقع تحريكها، لأن المائدة لم تكن تعتمد عليها. ونضيف أن هذا الجانب المتحرك، سواء أكان جدارا أم لوحة حجرية، فإنه في الغالب يكون متجها للشرق.

وأحيانا فإن البناة قد استفادوا من هيئة سطح الأرض في تسهيل مهمتهم. فقد أحدثوا بنيتهم على منحدر من الأرض، وبهذا فلم يقيموا حاجزا من فوق، لأن الصخرة تقوم مقامه، وسهل عليهم غلق الجانبين، إذ طولهما أقل مما لو كانا على أرض مسطحة. ولكي يقيموا حاجزا أو قسما من حاجز، فإنهم في بعض الأحيان، يستخدمون لذلك كشحا من صخرة ذات جانب عمودي. وأحيانا فإنهم يجعلون الدّلْمين في شق، في

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ثغرة طبيعية، قد حولوها إلى خانة بعدما أكملوها بالمواد المستجلبة وغطوها بغطاء مائدي، بل إن بعض الصخور قد اقتطعت ليتكون منها حاجز أو حاجزان أو أقسام للحاجز.

كل الدُّلْمينات مغطاة أو كانت مغطاة بمائدة. وحيثما لاتوجد المائدة اليوم فإنها تكسرت أو أخذها الذين يبحثون عن مواد للبناء. وتكون المائدة موضوعة أفقيا على البلاطات الحجرية أو على الحيطان التي تحملها، أو تكون إلى حدما مائلة، وذلك حينما تتكئ من الخلف على الصخرة، لا على حاجز مصطنع. وهي في العادة لوحة حجرية وحيدة تتجاوز الخانة وتصل لأبعاد كبيرة، فيبلغ جانباها الطويلان مترين أو ثلاثة أو أكثر، بحيث تصل لخمسة أو ستة أمتار. على أن هناك عدة دُلْمينات تغطيها لوحتان أو ثلاث لوحات حجرية متراكبة، وذلك إما لأن المحجرة لم تعط أحجارا عريضة عرضا يجعل المائدة الواحدة تكفي، وإما تلافيا لمصاعب حمل حجرة ضخمة ووضعها بموضعها. أما الحافات فكثيرا ما وقع تربيعها قصد إعطاء الغطاء الشكل الرباعي تقريبا. وكذلك فإن الوجه الأكثر انتظاما قد جعل من أسفل، قصد وضع أحسن.

وهكذا تبنى الخانة. فقعرها قلما يكون مغطى بالبلاطات، والعظام موضوعة عند أقدام الحواجز، أو فوق ذلك بقليل على طبقة من التراب، وكانوا يغطون العظام بتراب مضغوط، وكثيرا ما يغطونها أيضا بطبقة من الحصبة أو الأحجار، وقليلا ما يغطونها بالبلاطات.

بعض الدلمينات، مائدتها وحدها تتجاوز المستوى الطبيعي للتراب. والحواجز أقيمت في حفير وقع حفره خلال التراب أو في الصخر. ولكن على وجه العموم تكون هذه الحواجز ظاهرة جزئيا. أو تكاد تظهر كلها،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
فتكون أقدامها مغروسة في التراب، الأمر الذي يضمن متانة البنية ويساعد على البناء، فتجر الصفائح الصخرية على وجهها إلى جانب حفير قليل العمق هيئ في المكان المعد للخانة، وبذلك يمكن جعل الصفائح في وضع عمودي، إما بدفعها وإما بجرها بحبل.

الدلمينات الإفريقية، كلها أو جلها قد أحيط بسياج يضم خانة واحدة تجعل عادة في الوسط، أو يضم عدة خانات. وهذه الخانات يكون أحيانا بعضها منعزلا عن بعض، وتحتل مواقع مختلفة داخل السياج، وأحيانا فهي تتماس، فتكون بذلك مجموعة من مدفنين أو ثلاثة، وربما أكثر، وتكون لها حواجز جوار، وغالبا ما تكون لها مائدة مشتركة.

وتتراوح سعة الحوش بين 4 و6 أمتار حين لا يضم الحوش إلا خانة واحدة، ويزيد اتساعه حين يحيط بعدة دلمينات. ويكون الحوش دائري الشكل، وقلما يكون مربعا أو مستطيلا. وطرائق البناء هي التي سبق لنا ذكرها عند الحديث عن الكُرُمْلِك Cromlechs والرجام Tumulus. فهي إما كتل مقامة، ومن بينها حجر واحد أو اثنان هو العلامة أحيانا، وإما كتلة منبطحة اقتطعت وركبت كالفقرات الحجرية، وإما أنها جدران منخفضة بأسس يختلف عددها حين يكون في الأرض انحدار، وتعلو مستقيمة، أو أن بعضا منها قد يتأخر قليلا عن البعض الآخر. وهذا الحوش ليس تاما دائما، بحيث إن الدلمينات المتكئة على جانب صخرة، أو المقامة على منحدر قوي، فإن الحوش لا يحيط إلا بالجوانب العارية منها[76].

ولننظر في علاقة السياج بالخانة :

1- إن المجال الموجود بينهما، قد ترك فيه التراب غالبا على الحالة التي كان عليها قبل بناء المقبرة، أو ربما قد غطي بفرشة من

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الحصبية تتكون منها مساحة منتفخة قليلا، أو قد يرصف رصفا تخينا. وليس من النادر أن دائرة واحدة أو عدة دوائر من الأحجار المنتصبة، تكون متراكزة مع الحوش وتكون حلقات داخلية. وقد سبق لنا أن التقينا بهذه الحلقات في رجام الحجارة التي اختفت الحلقات في كتلتها، كما رأيناها في الكُرْمُلِك حيث تظهر اليوم واضحة، كما في الدلْمينات التي نتحدث عنها هنا، والتي يحتمل أنها فيما مضى قد كانت مختفية تحت تلة. أما الدلمينات ذات الدوائر المتراكزة، فنعرف منها في العالية وفي سَلَقْطَة Salakta ما لايزال مُغَطى برجم ذي تلة. ونظرا لتوفرنا على هذا البرهان فنستطيع قبول كون التلة قد كانت فيما مضى فوق كثير من الدلمينات الأخرى ذات الدوائر المتعددة أو التي زودت بسياج فحسب، ربما كان هو حد التلة. وهذا الافتراض قد يتزعزع شيئا ما بوجود الرصف بكثرة بين الخانة والسياج. هذا والرصف حتى إذا كان مغطى بالتراب فإنه يفسر في الكرملك، إذ يصون رمسا جعل في مستوى أسفل. أما في الدلمينات حيث يحيط بقبر أقيم فوق التراب، فلا نرى لأي شيء كان يصلح إذا علته تلة. ففي العراء، يستطيع أن يمنع الأمطار أن تتسرب وتخرب الخانة، كما يمنع الحيوانات الحافرة من ولوجه مارة تحت أقدام الحواجز. إذن فلا مانع من افتراض كون بعض الدلمينات قد كانت عارية تماما، وأن السياج المحيط بها لم يكن حدا لأحد الرجام، وإنما كان بقية حية لنوع من المدافن يبدو أنه كان يشرك حتما بين الرجم والدلمين. وفوق هذا، فإن هذا السياج يمكن أن يكون حاجزا شعائريا.

2- في بعض المآثر التي يمكن أن نسميها إما دلمينات أو رجما، فإن الخانة بالحواجز والمائدة تغوص كلية في كدس من الحجارة، على شكل مخروط أو مخروط ناقص.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

3- وعلى النقيض من ذلك توجد في شرق الجزائر بعض الدلمينات التي تنتصب فوق رجم مبني بالأحجار، جوانبه تكون منحدرات أو ترتفع على شكل درج. فمن الواضح أن هذه الدلمينات قد كانت عارية دائما.

4- كثير جدا ما تكون جدران الخانة مختفية تحت أحجار روكمت داخل الحوش، وجعلت على شكل منحدر كامل الميل أو على درجات. فهذا مخروط ناقص تغطيه مائدة الدّلمين. والواقع أن هذه المائدة تبقى معراة في أكثر من حالة. وفحص الأثر يمكننا من التأكيد بأنها كانت عارية دائما، لأن حجمها أكبر بكثير من الخانة التي يستند الرجم إلى جدرانها.

5- إن السياج المتكون من كتل صخرية منتصبة أو من جدار ذي أسس، يصعد عموديا، وكأنه أسطوانة، حتى مستوى قمة الخانة. والفراغ تملأه أحجار ويعلوه تبليط منتظم محيط بالدائرة، إذن فأعلى النصب الأثري يكاد يكون مسطحا، ولم يكن مغطى برجم حجري لم يبق منه أثر في أي مكان. ويمكن أن نتساءل هل لم يكن هناك شكل مخروطي من تراب ؟ لكن وجود التبليط ينحي هذا الافتراض.

وختاما فمن المؤكد أنه قد وجدت دلْمينات تختفي تحت تلاّت من حجر أو من تراب، كما وجد غيرها مما وقع الكشف عنه. وأخيرا فغيرها يختفي جزئيا فحسب. والدلمينات التي كانت مغطاة بتلات، كانت صيانتها أحسن، أما التي كانت جدرانها أو مائدتها فحسب قد بقيت سهلة المنال مباشرة، فإنها كانت - وبسهولة - تساعد على القيام بعمليات جديدة للدفن.

وكانت هناك وسيلة للتوفيق بين هذين الاحتياجين، وقد جرى استعمالها في القطر التونسي وفي شرق الجزائر. وهي عبارة عن إيجاد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ممر بن الخارج وبين الخانة في التلاّت التامة أو المبتورة، وتقوم على جوانب هذا الممر أحجار بلاطات أو جدران ذات أسس. وفي الأغلب يملأ الممر كلية بأحجار صغيرة يمكن عند الضرورة إزاحتها بسرعة للوصول إلى أحد الجانبين الصغيرين للمدفن. وسبق أن رأينا أن هذا الجانب - وهو غالبا ما يكون متجها نحو الشرق - كان في الكثير من الدلمينات قد أعدّ لينفتح بسهولة، وهو على العموم ليس به جدار اليوم. بل ولربما إن الجدار ما بني أبدا في المدافن ذات الممر، ولعل الأحجار التي كانت تسد الممر قد اعتبرت صيانة كافية. وهذا الممر لا يجب وصفه بأنه مجاز مُغطّى، لأنه لم يكن له سقف. وأحيانا فإنه مبلّط بخشونة. وكان ينحني أو تقطعه بعض الدرجات حينما يكون أسفل الخانة في مستوى أحط من التربة المحيطة. ومن الطبيعي أنه قد كان يجعل أقصر ما يمكن. فهو إذن مستقيم ومع ذلك فبعض الممرات قد جعلت منحرفة. وعندما تشتمل التلة على عدة خانات فلكل خانة ممرّها.

أما المدافن التي بقيت مائدتها منكشفة، حيث الحواجز غائرة وليس بها ممر جانبي، فلربما أن هذه المائدة رغم ثقلها كان يفضل نقلها عوضا من أن تُحدث في الكتلة الصخرية ثغرة للوصول إلى أحد الجوانب الصغيرة.

لقد جرت نقاشات كثيرة عن أصل الدُّلْمين. وخلافا للصواب فقد أراد البعض أن يرى في الدلمين تقليدا للمغارة، بينما يرى الغير أنه تقليد لمنزل، إلخ... وبدون أن أستعيد هنا هذا الموضوع، فإني أنبه إلى أن حب دفن الموتى في صندوق قوي جدا يمكن أن يكون فيه تفسير كاف في اختيار المواد البنائية والطريقة التي استعملت بها. ولكن هل كان هذا الصندوق في الأصل نوعا من المدافن يختلف اختلافا بيّناً عن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

التلة التي يكون قد ضم لها عن بعد، وذلك بورود فكرة تغطيته بكتلة من التراب أو الأحجار قصد صيانته ؟ أو هل الدلمين لم يكن سوى ترتيب داخلي أو كما للتلة التي قد تكون كتلتها في أول الأمر تغطي الميت مباشرة ؟ إن بحث المخلفات الأثرية الإفريقية يؤيد بالتالي الفرضية الثانية. ولابد، إذا كانت صحيحة، من قبول أن الدلمين بهذه المنطقة كما بغيرها كان من قبل مُغطًّى بتلة، وكثيرا ما انكشف عنها تقريبا، وذلك على ما يحتمل لكي يسهل الوصول إليه على الموتى الذين سيفدون على ساكنيه الأولين.

ولا يعثر في كل مكان ببلاد البربر على الدلمينات. فأكثرها يوجد بجوار الساحل منذ الشمال الغربي للمغرب وبغرب الجزائر وموسطتها، وتكثر في ولاية قسنطينة، وبالقطر التونسي بغربه وموسطته.

وينعدم وجودها بالبراري Steppes الجزائرية، كما لا توجد بالصحراء، حيث كان من السهل إقامتها، لأن هذه المنطقة تعطي عن سعة صخورا تتجزأ إلى بلاطات كبيرة. وبهذا فليس وجود المواد البنائية المناسبة هو الذي دعا الأهالي إلى إقامة الأنصاب الحجرية الضخمة (الميغالية Mégalithiques). فبعضهم اتخذ الدّلمينات، وبعضهم لم يُردْها. ويجب أن ندخل في الاعتبار أن الدلمينات الحقيقية لم تعد – وبدون شك – تقام في شمال إفريقيا في العهد الذي سيطر فيه البربر على الصحراء وحملوا إليها معهم عاداتهم الجنائزية.

وبينما التلاّت كانت عادة تنتشر في مجموعات صغيرة، فإن الدلمينات على العكس منها تكون جبانات واسعة جدا، بحيث تعد بالآلاف في بعض الجهات من ولاية قسنطينة مثل الرُّكْنِية، وبونُوارة، وَسِيلاَ، كما تُعدّ بالمئات بعدة مواقع بالجزائر والقطر التونسي.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وغالبا ما تكون هذه الجبانات مجاورة جدا لحلَلٍ Bourgs أو لمدن نوميدية. ففيها بالتأكيد كان أهل القرى أو أهل المدن منذ عهد طويل يدفنون موتاهم. وعلى النقيض من ذلك فإن مجموعات أخرى هامة من الدلمينات لم تكن تصحبها خرائب هامة، كما هي الحال مثلا في بونُوارة والرُّكْنية (بين قسنطينة وقالَمة) وكما في منبسط بني مَسّوس (بناحية الجزائر). ولكن يمكن أن نفترض أن بقربها كانت توجد حلل تكونها أكواخ وخصص Mapalia لم يبق لها أثر. ويمكن أن نفترض أيضا أنها كانت جبانات، وأن الرعاة المنتشرين في البوادي كانوا يأتونها من قريب أو بعيد حاملين موتاهم لجوار ملجئهم، أو لموقع ربما لسبب من الأسباب، قد كان مقدسا.

6

اللفظ العربي «شوشة» ويُجْمع على شوشات، معناه طربوش أو طاقية[77]، ويطلق على مدافن لها شكل برج Tour. فهي أسطوانات يبلغ قطر دائرتها على العموم خمسة أمتار وعلوها يبلغ مترين ونصف المتر. وجدرانها السميكة جدا عبارة عن صفوف من المداميك الموضوعة توضيعا منتظما، وداخلها مملوء بالأحجار والتراب أو الرمل، باستثناء الوسط الذي توجد به الخانة الجنائزية في القسم الأعلى من النصب، والخانة ذات مقاييس صغيرة (في المعدل 90 سنتمترا طولاً، و45 سنتمترا عرضاً، و80 سنتمترا علواً)، وتتكون من بلاطات. وفي بعض الأحيان تحاط بسور دائري. وتعلو الكل مائدة الغطاء. وهذه، غالبا ما تحاط بتبليط، ويمتد إلى أعلى الجدار الخارجي. وقد تشتمل بعض الشوشات على خانتين أو ثلاث متلاصقة أو منعزلة بعضها عن بعض. وليس هناك ما يدعو للافتراض بأن النصب قد كانت تعلوه إحدى التلات.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

هذا النوع من المدافن ليس فيه أي اختلاف عن الدلمين ذي القائمة الأسطوانية والتبليط عند مستوى المائدة. وهو أكثر ارتفاعا فحسب، كما أن الخانة به لم تعد تمسّ الأرض.

وتوجد الشوشات في مقاطعة قسنطينة، وعلى الخصوص بشمال الحضْنَة وبالأوْراس، حيث تكون أحيانا مجموعات هامة، إما منفردة أو تشوبها التلات الدلمينية.

في الصحراء، عند البربر الرحّل، توجد الشوشات أيضا، والبروج ذات المداميك التي أقيمت بإتقان أكثر مما في التلات الحجرية الموجودة بكثرة في هذه المنطقة فلربما أنها مدافن خصصت للأعيان وهي عن قصد قد جُعلت في المواقع المرتفعة والعارية كالهضاب والذُّرى المشرفة على الشعاب. وتشكيلاتها الداخلية ليست هي نفس التشكيلات التي لشوشات الجزائر فالسور البالغ سمكه جدا، إنما يحيط منفذا أسطوانيا، ولا توجد بها المائدة العريضة. ونفس المنفذ (الأسطواني) يوجد في الأنصاب الصحراوية التي ليس لها الشكل المنتظم للبرج، وإنما هي تلاّت ثخينة الصنع جدا. ففي وسط ركام من الحجارة الخشنة المكونة لجذع شكل مخروطي تتغلغل حتى تربة الأرض بئر أسطوانية ليس لها غطاء، الأمر الذي يسهل عمليات متوالية للدفن والموتى المتراكمة جثتهم يختفون تحت الرمل.

7

بقي علينا أن نصف بعض الآثار الجنائزية التي بشرق بلاد البربر، وهي آثار أقيمت بحجارة جافة وغير منجورة، وهي منحرفة عن الدلمينات ولكنها كثيرة التعقيد.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
في الشاوَش Chaouach، بموسطة عدد كبير من الدلمينات العادية، تقوم بناية ميغالية Mégalithique مهمة، مستطيلة الشكل، طولها عشرة أمتار وسعتها ثمانية وداخلها مقسم إلى حجيرات Compartiments تحدها بلاطات قائمة، وكانت لاشك تغطيها مائدات.

وفي مَكْتار Maktar مستطيل مماثل، طوله أربعة عشر مترا وعرضه خمسة أمتار ونصف، بمجموعتين متساندتين من الدلمينات المتلاصقة. وكل ذلك عبارة عن اثنتي عشرة خانة، وبنفس الموقع مجموعة من أربع حجرات كبيرة بما يكفي (مقياسها متران - ثلاثة أمتار ونصف للجانب)، منها حجرتان متجهتان نحو الجنوب وحجرتان للغرب. ولكل حجرة مدخل ضيق، جانبه الأعلى عند مستوى الأرض المحيطة، وتسبق المدخل بئر صغيرة هي منفذ المرور، وهي عبارة عن مستطيل تحده بلاطات. وفي مقدمة الواجهات تقوم كتل تكون شبه رواق وتحمل جوانب المائدات التي تغطي الحجرات وتشرف عليها.

وفي إيلِّسْ Ellès (بالشمال الغربي لِمَكْتار) كما في بعض المواقع المجاورة توجد حجرات مستطيلة الشكل مماثلة لما سبق أن رأينا بجدران فاصلة مشتركة، ومتتابعة على اليمين واليسار لممر تقوم في آخره أحيانا حجرة أخرى. والجدران الفاصلة هي بلاطات كبيرة ثخينة أو لم يتقن تربيعها، وكذلك المائدات التي لا تغطي الحجرات فحسب، بل تغطي الممر أيضا إذ (مائدات الممر تعتمد على مائدات الحجرات). وبعض الحجيرات مغلقة إغلاقا كليا، وهذا كاف للدلالة إلى أنها لم تكن للسكنى كما قيل، بينما غيرها قد انفتحت على الممر بفتحة عريضة جعلت في الجهة العليا، لا في أسفل الجدار الفاصل. وبالجانب الخارجي توجد ممرات ضيقة تساير قسما من بناية الرمس أو ربما تسايره كله،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
في الشاوَش Chaouach، بموسطة عدد كبير من الدلمينات العادية، تقوم بناية ميغالية Mégalithique مهمة، مستطيلة الشكل، طولها عشرة أمتار وسعتها ثمانية وداخلها مقسم إلى حجيرات Compartiments تحدها بلاطات قائمة، وكانت لاشك تغطيها مائدات.

وفي مَكْثار Maktar مستطيل مماثل، طوله أربعة عشر مترا وعرضه خمسة أمتار ونصف، بمجموعتين متساندتين من الدلمينات المتلاصقة. وكل ذلك عبارة عن اثنتي عشرة خانة، وبنفس الموقع مجموعة من أربع حجرات كبيرة بما يكفي (مقياسها متران - ثلاثة أمتار ونصف للجانب)، منها حجرتان متجهتان نحو الجنوب وحجرتان للغرب. ولكل حجرة مدخل ضيق، جانبه الأعلى عند مستوى الأرض المحيطة، وتسبق المدخل بئر صغيرة هي منفذ المرور، وهي عبارة عن مستطيل تحده بلاطات. وفي مقدمة الواجهات تقوم كتل تكون شبه رواق وتحمل جوانب المائدات التي تغطي الحجرات وتشرف عليها.

وفي إيلِّسْ Ellès (بالشمال الغربي لِمَكْثار) كما في بعض المواقع المجاورة توجد حجرات مستطيلة الشكل مماثلة لما سبق أن رأينا بجدران فاصلة مشتركة، ومتتابعة على اليمين واليسار لممر تقوم في آخره أحيانا حجرة أخرى. والجدران الفاصلة هي بلاطات كبيرة ثخينة أو لم يتقن تربيعها، وكذلك المائدات التي لا تغطي الحجرات فحسب، بل تغطي الممر أيضا إذ (مائدات الممر تعتمد على مائدات الحجرات). وبعض الحجيرات مغلقة إغلاقا كليا، وهذا كاف للدلالة إلى أنها لم تكن للسكنى كما قيل، بينما غيرها قد انفتحت على الممر بفتحة عريضة جعلت في الجهة العليا، لا في أسفل الجدار الفاصل. وبالجانب الخارجي توجد ممرات ضيقة تساير قسما من بناية الرمس أو ربما تسايره كله،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
ولعلها كانت ممرات للعسس تحد أرض الموتى وتعزلها. وهذه الممرات تغطيها بلاطات تعتمد من جهة على مائدات الحجرات ومن جهة أخرى إما على أحجار منتصبة وضعت وكأنها دعامات رواق، وإما على مسند صخري. وبالتأكيد فإن هذه المجموعات الواسعة التي في إيلِّس تستحق تنقيبا علميا.

غير بعيد من هذا، في «حمّام الزّواكْرة»، نجد حجرات مستطيلة لها فتحة ضيقة سفلى، وأسوارها سميكة جدا بنيت بالتوضيع البربري (Appareil berbère) وبزخرفين في المداميك المحيطة بالأحجار. أما في الداخل بالجوانب وبالعمق فإن المداميك يبرز بعضها على بعض، الأمر الذي يجعل مجال التغطية في الأعلى أقل سعة من المساحة التي حددتها أصول الجدران. وكما في الدلمينات فإن السقف عبارة عن مائدة عريضة، تتجاوز في الأمام الحجرة تجاوزا كبيرا، فتغطي أولاً دهليزاً صغيرا تكون خلال الجدار الفاصل المتقدم، ثم تأتي لتعتمد على بلاطتين منصوبتين على جانبي مدخل الدهليز فيتكون بذلك إفريز. وبنفس المنطقة، في مَغْراوة Magraoua توجد كذلك أضرحة كبيرة المقاييس، بجدران لها مداميك تكون بروزا متراكبا encorbellement وتحمل مائدة، فيدخل لها من فتحة بها، وينزل فيها بدرجتين أو ثلاث. وهذا التشكيل الذي يتكون من جدران ببروز متراكب ومن سقف ميغالي نجده أيضا في التّلايوت talayots أي المخلّفات الأثرية العتيقة التي هي من الحجر الجاف بجُزُر البالِيار، والتي يكون غلافها الخارجي وحجرتها إما مستطيلين وإما مستديرين في الأغلب.

ونشير في الأخير إلى بناية في تيغَلْبين Tirelbine في منطقة قسنطينة. ولربما أنها ليست من عهد سابق على عهد الرومان، ولكن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
يمكن أن تكون تقليدا لآثار أشد قدما. والبناية عبارة عن شكلين إهليلجيين متتابعين ينفذ أحدهما للآخر، مقياسهما ثمانية أمتار ونصف طولاً ومتران وسبعون سنتمترا عرضا، ونحو متر واحد وثمانين سنتمترا علواً. والجدران من مداميك حجرية حسنة النحت، غير أن السقف يتكون في كل حجرة من صفين من البلاطات الثخينة القطع، والمعتمدة على عارضات تسندها ثلاثة أعمدة تصطف في اتجاه المحور الكبير. ويذكّرنا هذا المبنى بصفة غريبة بمباني أثرية عتيقة بجُزُر الباليار، وهي المعروفة باسم النَّافيتاس Navetas. ولابد من تنقيبها للتأكد من أنها كانت ضريحا.

8

في مدافن البازينات Bazinas والدُّلْمينات والشُّوشات كثيرا ما يعثر على جملة من القطع الصخرية المغروسة في التراب والمفصول بينهما بفواصل، أو يعثر على أسوار صغيرة وطيئة جدا بعضها بسيط بفراش واحد من الحجارة، والبعض الآخر به نقشان اثنان، وهو متساند أو تفصل بينه الحجارة الصغيرة. ويشهد وضع هذه الخطوط بالعلاقة المتينة مع المدافن، وهي مختلفة جدا في مقاييسها الطولية، بحيث إنها تمتد تارة لمئات الأمتار فتحدّ جانبا واحدا أو عدة جوانب لإحدى الجبانات، وتارة تحيط بمجموعة من المقابر، فلعلها إذن مواقع خصصت للعائلات أو لبعض الجماعات، كما أن بعض الآثار الجنائزية الهامة معزولة داخل نطاق خاص يحيط بها، ولغيرها جداران صغيران على الجانبين يشبهان الذراعين أو الجناحين، وبينهما ساحة صغيرة قد خصصت لتظهر الجوانب. وأحيانا فإن شبكات حقيقية - يمكن أن تكون

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

معقدة – تربط بين قبور مختلفة. وفي موضع آخر تقوم سياجات رباعية الشكل أو مستديرة أو إهليليجية تحدّ مجالات ليس بها مدافن، ولعلها كانت أماكن للعبادة. وتوجد صفوف أنصاب Alignements مماثلة لا تُعرف الغاية منها، وهي في فرنسا تصحب الدلمينات والتلاّت.

في بعض المدافن الإفريقية يزدوج بعض هذه الصفوف فتمتد متقابلة، يبعد بعضها عن بعض بمتر واحد أو عدة أمتار، ويكون المدى بينهما أحيانا مرصوفا بكُسارات الحجر. تلك إذن ممشيات وممرات جعلت في مدينة الموتى. كما أن أشرطة حجرية قد جعلت شبيهة بهذه الممشيات، أو تظهر وكأنها جدار عريض ثخين جدا، لا تبدو القبور على جوانبه فحسب، بل إن القبور تتناثر عليه.

وهنا وهناك توجد كتلة صخرية ماثلة وتتعدى الصف الذي هي جزء منه، ولربما تقف منفردة قرب أحد الأضرحة، أو عند كومة حجرية أو لدى جدار صغير، فلعلها إحدى العلامات.

9

إن طرائق الدفن في القبور العتيقة الأهلية، لابد من دراستها عن قرب أكثر مما جرى حتى الآن، نعم فإن الملاحظات الدقيقة ليست سهلة دائما، فالعديد من المقابر قد نبش، ومحتواها إذا لم يكن قد اختفى كليا أو جزئيا، فهو مبعثر وعلى غير انتظام. وفي أمكنة أخرى فإن طبيعة التربة قد أساءت حفظ العظام حتى نخرت أو تحولت إلى غبار، وأحيانا فإن بعض المنقبين لما لم يجدوا للعظام أثراً قد تساءلوا هل حقيقة إن الموتى قد أقبروا حيث ظنوا أنهم سيجدونهم.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
العديد من المدافن ليس به إلا ميت واحد. هذه هي الحال الاعتيادية في التلاّت الحجرية، وهي كذلك الحال الغالبة في داخل الكُرُمْلك Cromlechs التي لعلها كانت أضرحة من تلات ترابية. والضريح إذا لم تكن الوسيلة قد اتخذت للوصول بسهولة فيه إلى الصندوق، إلى الخانة، إلى حفرة الدفن فيكون لابد من هدمه كلية تقريبا لإدخال موتى جدد فيه ثم يقام من جديد بعد ذلك. وعلى العموم فمن الطبيعي اعتبار إحداث مقابر جديدة أمرا بسيطا خصوصا إذا كان هذا يتطلب وقتا قصيرا وجهدا قليلا. ولربما لابد أن نأخذ في الاعتبار سببا ليس ماديا وهو حب عدم إزعاج الميت في مسكنه.

بعض الدلمينات دفن فيها شخص واحد. ولكن أكثرها تلقت عدة موتى، أو اثنين في أكثر الأحوال، بل وأكثر من ذلك أيضا على غرار عدة دُلْمينات بأورُبا أو عددا يفوق ذلك من رجال ونساء وأطفال. فمثلا من أربعة إلى سبعة أشخاص في بني مَسّوس، ومن أربعة إلى عشرة في في گَسْطال، وأكثر من ذلك في مواقع أخرى. ففي دُقّة Dougga نجد دُلْميناً به ثلاثين ميتا، كما أحصي ما في دلمين سيلا Sila فكان أربعين، وفي مَغْراوة Magraoua نجد عظام ما بين ثلاثين إلى خمسين شخصا تملأ حجرات بنيت بالحجارة الجافة. وكذلك تشتمل الشوشات عادة على بقايا عدة موتى، بينما لا نجد أكثر من اثنين في التلات التي ليس بها قبر مفرد.

ونتساءل : هل عمليات الدفن هذه جرت في وقت واحد أو بتتابع في الزمن ؟ فالافتراض الأول يكون مقبولا حينما نرى أن جثتين قد وضعت إحداهما بجانب الأخرى بنفس المستوى إما بنفس الاتجاه، وإما رأسا لقدمين كما قد يحدث أحيانا. ونفس الافتراض مقبول أيضا عندما يكون

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الضريح قد بني بطريقة توجب هدمه إذا أريد استعماله من جديد، أو يخشى انهيار الخانة به متى كان أحد الجدران الأربعة الفاصلة غير قابل للحركة. فلابد للمنقّبين أن يأتوا في هذا الموضوع بملاحظات متمعنة.

وعلى النقيض من ذلك، يمكننا أو يجب علينا قبول الدفن المتتابع زمنا في الدلمينات التي كان جانب منها ينفتح بسهولة، ولا تتعرض متانة الكل للخطر. وكذلك بالنسبة للخانات التي يحول ضيقها الشديد دون قبولها لجميع ما نجد بها من الموتى حينما كانوا جثثا لا تزال بلحمها. وكذلك في الخانات التي بها جسم مَثْني أو متمدد – كما سنرى – وهو يحتل وسط الحفرة، مع وجود عظام لأشخاص آخرين متراكمة بغير انتظام على الجنبات وفي الأركان. وأخيرا، فكذلك الأمر حينما يكون الموتى متمددين على طبقات تفصل بينها فرشات من تراب أو رمل أو حجارة. وذلك هو ما شوهد وجوده في بعض دلمينات بلاد البربر وفي المدافن ذات المنفذ العمودي بالصحراء.

ثم، إذا سلمنا بفكرة الدفن المتتابع في الزمان، فيجوز التفكير في أننا أمام جبانات عائلية، أُريد بها أن يمتد بها في الموت تجمع وجود الأحياء.

وتشير أوضاع العظام وحالاتها إلى مختلف طقوس الدفن.

في الأغلب، فإن الأجسام كان القليل أو الكثير منها في الوضع المثني. وهي عادة قديمة جدا، لوحظ وجودها منذ العصر الحجري القديم بالمآوي تحت الصخور abris sous roches، كما توجد في العديد من المدافن التي هي أحدث عهدا كالتلاّت والدّلْمينات وفي الكْرَمْلِك والشوشات Cramlechs. وحيثما انعدم وجود بقايا إنسانية، وعند ضيق

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
القبر ضيقاً غالباً ما يمنع من اشتماله على جسم متمدد لشخص بالغ على الأقل، فلابد أن نفرض إما أن الجثة كانت مثنية، وإما أن العظام قد فقدت ترابطها الهيكلي. وقد قال هيرودُت في القرن الخامس قبل الميلاد، إن الناصَمونيين Nasamons «يدفنون موتاهم قاعدين، ويهتمون عند موت أحد الأشخاص بإجلاسه على مقعدته ويمنعونه من الموت مضطجعا على ظهره». والأموات المثنية أبدانهم يعثر عليهم في النواويس hypogées التي هي من شكل فينيقي بالساحل الشرقي للقطر التونسي. وهي مدافن عزاها أثاثها للقرنين الثالث والثاني ق.م. وعثر عليها بطُبُرْسُق في كهف يؤرخ تقريبا بأواسط القرن الميلادي الأول. ويعثر عليها في قبور بها نقود قرطاجية ونوميدية وخزف بونيقي وروماني. والوضع المثني معتاد في تلات الصحراء، والإسلام هو الذي جعل الطوارق يتخلون عنه. وفي القرن الميلادي الرابع عشر كتب أحد الكتاب العرب واسمه التيجاني Tidjani[78] متحدثا عن إحدى عشائر طرابلس فقال : «يدفنون موتاهم في مغارات عريضة يحفرونها في الصخر. ويجعلون لهؤلاء الموتى وضعا قاعدا، ويقولون إذا مات أحدهم وترك ولدان إن هذا الأخير (أي الولد) سيبقى دائما قويا ومحترما مادام جثمان أبيه لم ينزل إلى الأرض». ومن المحتمل أن واحة كوفْرا Koufra جنوبي سِرنيكا Cyrénaïque قد دفن بها الموتى حتى يومنا هذا في وضع متني.

وهذا الوضع المثني ليس ذا شكل واحد بالمدافن الإغريقية القديمة. فأحيانا تكون السيقان وحدها هي المثنية. وفي الغالب فإن الركب يصعد بها لأعلى البدن حتى تكاد تصل إلى الذقن، بينما العقبان يصلان إلى أعلى الفخذين. وكثيرا ما يكون الذراعان أيضا مثنيين، أومتقاطعين أحيانا، وتكون الأيدي إلى الأمام عند الركب أو الوجه. إن المظهر الذي

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
تبدو به بعض الجثث قد يؤكد تفكك الأوصال. فالجسم مطوي على اثنين والقدمان يمسان الجبهة أو القفا، وهذه العمليات المختلفة لابد أنها كانت تقع على الموتى قبل أن يصلوا لحالة تصلب الجثة، أي مباشرة بعد الموت، أو في نفس وقت الموت إذا صدقنا قول هيرودُت.

وعلى العموم فإن الأبدان المثنية التي نجدها بالقبور يكون بعضها قد أضجع على الجانب الأيمن وبعضها على الجانب الأيسر وبعضها على ظهره. ويمكن التساؤل، ألم لم يكونوا فيما مضى جالسين في الوضع الذي كان قُدامى المصريين يفضلون اتخاذه، والذي لا يزال معمولا به في المشرق بسيقان مثنية - مربعة أو غير مربعة - وأعقاب الأقدام تصل إلى أعالي الأفخاذ. وبهذا قد تفقد الجثة توازنها فتسقط على جانب أو آخر. غير أن هذا الافتراض كثيرا ما قد يزيفه العلو القليل جدا للحفرة الجنائزية، فمن المؤكد إذن أن الميت لم يمكن وضعه إلا مضطجعا.

وعلى النقيض من ذلك فإنه أحيانا قد وضع على مقعدته وجذعه منتصب، ذلك ما يشهد له - أكثر من شهادة موقع العظام - شكل القبر الضيق جدا، سواء كان خانة أو جُبّاً (أي فتحة عمودية) كما يشهد له الفقرة التي رويناها من قبل عن التيجاني. ولم يقل هيرودُت كيف كان النصَمونيون يجلسون موتاهم، لكن يسوغ قبول أن ذلك كان على الطريقة المصرية والمشرقية.

وفوق ذلك، فإننا سنوضح أن الأساس للطقس هو طي الجسم[79]، حتى إذا تحول إلى صرة فإضجاعه مبسوطا أو مرفوعا، أمر لا أهمية له. في بعض الأحيان كانت الرأس موجهة نحو الشرق، لاشك لنفس السبب الذي وجه مدخل بعض الخانات والممر المؤدي إليها.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
وليس لدينا ما يشهد بأن هذه الأجسام المثنية قد خضعت قبل وضعها في القبر لعملية تعرية عن اللحم تعرية غير تامة، قد تكون أبقت على أعصاب المفاصل، وبالتالي على جميع الهيكل العظمي، كما أنه ليس لدينا ما يدل على أن بربر القارة الإفريقية قد حولوا الجثث إلى مومياوات بطريقة تجفيفها Dessiccation، على غرار ما كان يفعله ببعض موتاهم الگوانِش أهل جزر الكناري.

في الكثير من المدافن لقي المنقبون عظاما إنسانية مختلطة، تعود عادة إلى عدة أشخاص، وكثيرا ما يستحيل بهذا الحطام إعادة تشكيل هياكل عظمية تامة، لأن عظاما كثيرة إلى حدٍّ ما مفقودة - لكن الجماجم على العموم يعثر عليها - وقد تكون وحدها أو بمفردها تقريبا تمثل القوم الذين تنتمي إليها.

والدلْمينات هي غالبا التي تشتمل على هذه العظام المبعثرة، كما يوجد مثل ذلك في الشوشات، وكذلك في كهوف من الطراز الفينيقي، التي حفرت عند القرن الرابع والثاني ق.م في عدة مواقع بالساحل الجزائري والتونسي حيث كانت تعيش ساكنة مختلطة من المستوطنين البونيقيين والأهالي.

هذه البعثرة وهذا الاختلاط يمكن تفسيرهما بسهولة في المدافن التي زارها وعاث فيها الوحش والإنسان. ولكن يُرى مثل ذلك في العديد من القبور التي لم يقع نبشها. فهناك إذن افتراضان ممكنان، هما، أولاً : إنها بقايا لساكنين قدامى بالمدافن. وحين كان ميت جديد يؤتى به للخانة، وكان المجال كافيا، فمن الممكن وببساطة وضعه فوق سابقيه من دون مسّ بهؤلاء، وتراكبات الهياكل العظمية دليل على أن العمل

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

جرى على هذا المنوال. ولكن حيثما يضيق المجال، فلابد من إزاحة المحتلين الأولين، أو البعض منهم على الأقل. وتحاشيا لرمي عظامهم للخارج، فقد روكمت هذه العظام طوال الجدران الفاصلة وبالزوايا. وغالبا ما كان لابد من إجراء اختيار تلافيا للتضايق، فكانت الجماجم هي التي يفضل الاحتفاظ بها. إن هذا الافتراض يكاد يكون حقيقة بالنسبة للدلمينات الكثيرة بشرق الجزائر، كما في رُكْنِيَة Roknia وسيگوس Sigus وسيلا Sila وراس العين Ras el Aïn وبومرزوق Bou Marzoug، وعين الباي Aïn el Bey وغيرها. فبهذه الأماكن كشفت التنقيبات بصدر المواقع عن هيكل واحد أو عدة هياكل عظمية مثنية أو متمددة، وعليها أو حولها أو في الأركان عظام متراكمة، والجماجم منها على الخصوص بعضها في وضعه المعتاد والبعض على الجانب وبعض منها مقلوب.

ثانياً، هناك افتراض يبدو أكيدا، وذلك عندما تكون بعض الخانات سليمة وليس بها سوى عظام على غير انتظام. هذه كما قيل هي الحالة في دُلْمينات بني مَسّوس وكَسْطال، ولا عجب في هذا، لأن نفس الملاحظات قد قيلت عن كهوف حفرها في القرون الأخيرة قبل الميلاد أقوام من سلالة مختلطة نصف فينيقية ونصف أهلية. فنحن بهذا أمام طقوس جنائزية لعلها قديمة جدا في إفريقيا الشمالية، على غرار ما كانت عليه بالتأكيد في جهات أخرى.

وعلى هذا فالبقايا الإنسانية قد دفنت مبعثرة. وهل قطعت الجثث ورمي بالقطع في القبر؟ إن ذلك بالنسبة للخانات الصغيرة جدا، يفرض قبول عمليات متتابعة للدفن، لأن المجال لا يكون كافيا ليقبل في نفس الحين لحوم جميع الأشخاص الذين نحصل على عظامهم. وعلى هذا،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
لماذا لم يقع العثور على جميع أجزاء الهياكل، أو على الأقل أجزاء هيكل الإنسان الذي من أجله يكون القبر قد فتح لآخر مرة ؟ ومن المحتمل جدا، أن تكون العظام قد جُرّدت عن لحومها قبل دفنها حيث نجدها اليوم. إن عدة طرق كانت ممكنة في هذا : منها طبخ الجثث، ومنها سلخ اللحم عن العظم بسكين، ومنها طرح الجثث في العراء وتركها للحيوانات المفترسة وللنسور بالخصوص لتقضي على الأقسام الناعمة، ومنها طرح الموتى في مدفن مؤقت حتى يتم تجريد العظام عن لحومها. والطريقتان الأخيرتان إحداهما ثَبَتَ وجودها عند أقوام قدماء في إيران، والثانية بقيت مستعملة إلى عهد قريب جدا من عهدنا، أو لاتزال مستعملة عند بعض المتوحشين في الأمريكتين، وفي إفريقيا وأقيانوسة. فكلتا الطريقتين تمكّن من تفسير كيف أن المدفن النهائي لم يضم جميع العظام، بحيث إن قسما منها يكون قد ضاع أو حطم فيما قبل.

إذا كان هذا المدفن لا يوضع به إلا العظام، فقد كان من الممكن إما وضعها بتتابع في الزمان، وإما أن يوضع به في نفس الوقت بقايا حملت إليه من عدة قبور مؤقتة. وقدماء الكتاب لم يخبرونا بشيء عن هذه العادات الجنائزية. والأركيولوجيا، خصوصا في الحالة الراهنة لمعلوماتنا لا تجيب على جميع التساؤلات.

وقلما تضم قبور الأهالي أجساما متمددة بكل طولها، سواء على الظهر أو على الجانب. ولقد سبق أن أشرتُ إلى أن العديد من هذه القبور لا تتسع لقبول هذه الأجسام. غير أن هيرودُت(80) يؤكد أن الليبيين يدفنون موتاهم على طريقة الإغريق (أي في وضع متمدد)، باستثناء النصَمونيين الذين يدفنونهم جالسين. ولكن الاكتشافات الأركيولوجية تخالفه، إذ بعد عدة قرون بقي الوضع المثني أكثر

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

استعمالا من غيره. ولاشك أن تأثيرات أجنبية - إغريقية بجهة سرنيكا، وفينيقية في بلاد البربر - يحسن أن يرجع لها اتخاذ الطقس الجديد لدى بعض الأفارقة، ولا يبدو أنهم تسارعوا لاتخاذه، ففي العالية، على الساحل الشرقي للقطر التونسي الذي تملكته قرطاجة مدة طويلة، لم تتخذ عادة تمديد الأبدان عوضا عن ثنيها إلا حوالي القرن الأول ق.م. وفي كُنوكو Gunugu التي خضعت أيضا للقرطاجيين، وتقع على الساحل الجزائري، فإن الأبدان المتمددة قليلة الوجود في الجبانات التي يرجع تاريخها للقرنين الرابع والثاني ق.م. لكن بغير هذين المكانين، في دُقّة وسيكوس عُثر على أبدان متمددة في دلمينات ومعها نقود بونيقية ونوميدية، وقطعة نقدية واحدة من عهد الإمبراطور ضومِتْيان Domitien. أما بربر الصحراء فلم يعطوا لموتاهم هذا الوضع (المتمدد) إلا استجابة لأوامر الدين الإسلامي.

وإحراق الموتى أقل مما سبق بكثير، فقد لوحظ وجود الإحراق بضريح الخروب Khroube، الراجع لأواسط القرن الثاني ق.م في إحدى التلات التي بنيث حول المَدْغاسن Medracen، الضريح الملكي الذي يبدو أنه يؤرخ على أبعد حد بالقرن الثالث. وكذلك في بعض القبور الأخرى والدلمينات والتلات. ولابد أن بعض الأهالي قد اقتبسوا هذا الطقس عن الفينيقيين الذين، هم أنفسهم اقتبسوه من الإغريق حول القرن الثالث ق.م. والإحراق غير المبالغ فيه كان هو الطريقة السريعة لإزالة اللحوم عن عظامها، إزالة كان العديد من الليبيين ينجزونها بطرق أخرى. ولعل هذا هو سبب استعمالهم للإحراق. وفي بعض المدافن الموجودة في الأراضي المتاخمة للجزائر والمغرب، قد وقع على ما يحتمل إحراق الموتى في نفس الموقع الذي بُنيت فيه من بعد الْبازينا Bazina على البقايا.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
في بعض تلات الجنوب التونسي وفي دلمينات المريس El Mries بالمغرب نجد العظام على طبقة ترابية أكسبها خليط من أوكسيد الحديد تلوينا أحمر. ويلوح على العظام نفسها أثر من هذا اللون. فالجثث قد سُقيت بالمُغْرة Ocre الجارية أو ذُرَّت عليها المُغْرة الصلبة، وبعد فناء اللحوم فإن هذه المادة تكون قد صبغت العظام، لأنه لا محل لقبول الاستعمال المباشر للصبغة على هذه العظام. وهناك ملاحظات مماثلة وقعت في كهوف بونيقية ليبية بالساحل الشرقي للقطر التونسي يرجع تاريخها للقرن الثاني ق.م ولاشك أن هذا الطقس كان قديما جدا ببلاد البربر، لأن بعض الجماجم المحتفظة ببقية من اللون الأحمر، قد وقع العثور عليها في موقع يرجع للعهد الحجري القديم، وفي مغارتين كان بها أحياء وموتى في الحجري الجديد.

وربما يكلف الموتى أنفسهم بتلوين جلودهم وذلك بأن يوضع بالقرب منهم حصة قليلة من المُغْرة الحمراء، وهي عادة نلحظ وجودها منذ العهد الحجري ونجدها في دلمينات وتلات أحدث عهدا.

في العديد من المدافن لا يصحب الموتى أي أثاث. وفي البعض منها نجده ويكاد يكون فقيرا جدا.

وهو عبارة عن بعض أدوات الزينة، التي توجد سواء مع الموتى المثنيين والمتمددين الذين وضعت الزينة على أبدانهم أو مع العظام المبعثرة. وفي هذه الحالة الأخيرة يمكن أن نفترض أن هذه الأدوات كانت أول الأمر تحلي الجثث التي بعثرت عظامها بعد، أو أنها ضمت إلى عظام منزوعة اللحم أدخلت للقبر. وبعض هذه الأدوات تشهد ببقاء أذواق بدائية جدا : كالقواقع والأحجار المتقبة، والقلائد المكونة من

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

دوائر بيض النعام... إلخ، أما غيرها كالخواتم، والأسورة، وحلقات السيقان، وقطع القلادات، وأقراط الآذان ومشدات الأحزمة والشوك والمشابك فهي معدنية، قلما تكون من فضة، وهي غالبا من حديد، وفي الأغلب من النحاس أو من البرونز. ويعثر هنا وهناك على بعض أدوات من زجاج وعلى مشابك أو أدوات تافهة من العظم. والأسلحة قليلة الوجود، وأقل منها أدوات العمل كالمناجل والسكاكين. وقد وضعت نقود في بعض القبور على غرار ما فعله القرطاجيون.

أما الفخار من قصع وأقداح وقدور وصحون فيكون الأثاث الاعتيادي البسيط. وزيادة على هذا، فهي تكاد تكون قليلة العدد، وغالبا ما لاتوجد إلا أداة واحدة، إذا وجدت. وكان يستحسن وضعها في الركن، وخصوصا بالقرب من الرؤوس. ويبدو أن بعض الموتى كانوا يمسكونها بالأيدي. وهي من إنتاج أهلي ثخين الصنع وإن كان يظهر أحيانا خزف مصنوع بالمخرطة في مصنع بونيقي أو روماني.

ولا يُفسَّر وضع هذه الأواني إلا بأنها كانت في أول الأمر تحتوي أطعمة جافة أو جارية، يفترض أن الدفين كان يحتاجها. وبعد ذلك وقع الاكتفاء بأن تترك له أدوات فخارية فارغة ليس لها إلا معنى رمزي. غير أن عظام طيور صغيرة توجد حتى اليوم في قعر بعض القدور والصحاف. كما توجد في جهات أخرى عظام للكبش والثور والخنزير والطيور، وقطع من بيض النعام بالقرب عن عظام إنسانية، ولاشك أنها كانت أيضا بقايا الأطعمة. ويعثر في القبر أحيانا على رماد وقطع من الفحم، الشيء الذي يؤدي إلى الظن بأن الطبخ كان يقع بعين المكان، وإن كانت هناك تأويلات أخرى يمكن اقتراحها (كإحراق الأبدان وإيقاد النار لطرد الأرواح الشريرة). كما أن العديد من المدافن اشتملت على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
مقادير كثيرة جدا من الحلزون. وهو غذاء كان قدماء الأفارقة يفضلونه، وليس من قبيل المستحيل أن تكون منه حصة قد تركت لبعض الموتى. لكن لابد من بحث الأمور عن كتب، لأن هذه الأكداس من الحلزون غالبا ما لاتمس العظام الإنسانية. ويعثر عليها مثلا مباشرة تحت مائدة للدّلْمين أو فوق طبقة من التراب المكبوس، أو الحجارة التي تغطي المستودع الجنائزي، وبالطبع لم يكن الإنسان هو الذي حملها إلى حيث هي.

وهنا وهناك توجد أيضا عظام للفَرَس وأسنانه. ونظرا لكون الأهالي لم يكونوا يأكلون الأفراس على ما يبدو، فيمكن الظن بأنهم أحيانا كانوا يقتلون الحيوان الذي كان الرفيق المخلص للميت، ويدفنون معه قطعة على الأقل من هيكله، وذلك حتى لا تنقطع تلك الصلة. ويمكن تفسير وجود بقايا شكائم الحديد بنفس الطريقة.

10

لأي تاريخ ترجع هذه الآلاف المؤلفة من المدافن التي هي من الحجارة الجافة ؟ والتي عددها كاف للدلالة على أنها يجب أن توزع على مدى زماني طويل ؟

غالبا ما يرجعها الأهالي للجهلاء Djohâla وهم قوم يجهلون الدين الحقيقي الوحيد، وهو الإسلام، ولبَني السَّفَه Sfao، شعب الكفرة المندثرين، وللأغوال التي قد لا تزال تسكنها أو هي مدفونة بها. فتفسيراتهم هذه تؤكد على الأقل معرفتهم بأن هذه المقابر عتيقة جدا، ولا يطالبون بها كأثر خلفه أجدادهم، ويعرفون التمييز والاختلاف بينها وبين المخلفات الرومانية المبنية بالحجارة المنجورة أو المركومة المترابطة بالملاط أو المبنية بالآجر المشوي.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
نعثر عند الكتاب القدماء على أصداء بعض الخرافات المولودة في البلاد أو المستجلبة لها، والتي ولدتها التلات الإفريقية. فقريبا من طنجة توجد ربوة لها شكل جبل صغير متطاول يخفي بدنا طوله ستون ذراعا، صاحبه هو الجبّار أنْطي Antée الملك الأسطوري الذي قهره هِرْكول Hercule. وكذلك الشأن في الربوات الثلاث العالية جدا، التي بنتها مورينا Myrina ملكة الأمَزونات Amazones في منطقة الأطلس، وتحتها يرتاح رماد رفيقاتها اللواتي متْنَ في إحدى المعارك ضد الغُرْغونات Gorgones، (وتدعى حتى اليوم باسم ربوات الأمزونات)[81]. وهياكل الفيلينيَّيْن الاثْنَيْن Autels des Phylènes التي لاشك أنها كانت أنصابا بالغة الضخامة، ولكن كانت تعتبر قبرين لبطلين قرطاجيين. ولنترك هذه الأساطير كي نعود إلى الأركيولوجية.

يعطينا أثاث القبور إشارات مفيدة، ولكن يجب أن لا نقع في الغلط بسبب وجود أدوات قد يكون أدخلها للقبور زوار متأخرون زمنا، أو أشخاص حَوَّلوا إلى ملاجِئَ خانات قد اقتحموها، كشقوف الفخار الروماني لاشك أو عملة عربية في دلمينات تونسية. ويكون من قبيل المجازفة إعطاء قيمة تاريخية محددة لفؤوس من الحجر المصقول عثر عليها في عدة مدافن. فهذه الأدوات التي هي من العهد الحجري الجديد قد أخذت بعد مرور زمان طويل جدا إما لاتخاذها كأدوات للعمل، وإما على الخصوص لأنهم رأوا أنها طلسمات. ومن المحتمل جدا أن يكون وضعها بجانب الموتى قد تم لضمان الحماية لهم.

وباستثناء هذه الفؤوس، فإن أدوات من الحجارة المقطوعة المؤرخة بالعصور الحجرية القديمة Paléolithique أو العصر الحجري الجديد Néolithique لم تكن مطلقا قسما من آثاث الدلمينات. ولا يجب

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
أبدا أن نعتقد بقطع الظِّر Silex التي قد تكون ألقيت في حظيرة المدفن وجمعت متناثرة مع التراب والأحجار التي كان البناة يجدونها تحت أيديهم. وطبعا يجب كذلك إهمال القطع المطروحة من حولها.

وعلى النقيض، فقد عثر أحيانا، ومع قلة على وجه التحقيق على أدوات من الظِّر المقطوع، وكانت تحت تلات بالجنوب الوهراني وبالصحراء، وكانت في وضع يحسن معه اعتبارها معاصرة للموتى. ولكن هذا ليس برهانا على قدمها البعيد في الزمن، إذ في الجوار وفي الصحراء فإن استخدام الأسلحة والأدوات الحجرية قد حوفظ عليه زمانا أطول بكثير مما كان بالمناطق المجاورة للساحل.

إن بعض المدافن الأهلية من دُلْمينات وتَلاّت وكْروملك وشُوشات قد ضَمّت حلى معدنية. والنحاس كما سبق أن قلنا يظهر أَنه ليس أقل من البرونز. غير أن أدوات النحاس الخالص Pur التي تضمها القبور لاتؤرخ بزمن سابق على عهد البرونز. فيعثر عليها كما يعثر على أشياء من البرونز مع الحديد الذي لاشك أن استخدامه بشمال إفريقيا لا يصعد أبدا لما قبل الألف الأولى، ومع أشياء أخرى تشير لأزمنة قريبة من العهد المسيحي. وفوق ذلك فإن الأشكال نفسها التي لبعض الأسورة والخواتم والمشدات النحاسية تشهد أنها لا ترجع لأوائل عصر المعادن.

الحديد يصدأ s'oxyde بسهولة، والآثار التي يخلفها يمكن أن تند عن المنقبين الذين لا ينتبهون. وحسب علمي فإنه لم تقع إشارة لوجوده في أثاث دلمينات بني مَسّوس والرُّكْنِية. لكن، في هذا الموقع الأخير، فإن بعض المقابر قد استعملت بل جرت إقامتها بعد إدخال الحديد لبلاد البربر بزمان طويل. ذلك ما توضحه بعض الفخاريات وطرائق في البناء سنتحدث عنها فيما بعد. وفي أكثرية مدافن الدلمينات فإن هذا المعدن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
غير منعدم، كما يعثر عليه أيضا في تلات وكروملك وفي الشوشات.
وإذا كان يستعمل على الخصوص حلية كالخواتم والأسورة وغيرها، فهذا يبرهن، ليس على أنه آنداك، كان ثمينا جدا، وإنما يدل على أن الموتى المندسّين تحت هذه القبور كانوا قوما لا يملكون حليات من الذهب والفضّة، أو إذا كانوا يملكونها فإنهم لم ينالوا من ورثتهم السماح بحملها معهم.

أما قطع الزجاج التي يعثر عليها - عادة مع حليات من النحاس والحديد - فلا يمكن أن تكون من عهد سابق على عهد الاستيطان الفينيقي، بل قد تكون أحدث عهدا من ذلك.

والفخاريات التي من صنع أهلي لا تعطي أي إشارة. فمن عهود ما قبل التاريخ إلى أيامنا هذه، تقدم هذه الصناعة المتواضعة نفس الأشكال البدائية ونفس الطريقة. ومع ذلك، فنذكر أن بعض الأوعية تقلد مثيلا بونيقيا وإغريقيا-بونيقيا، من القرن الرابع للثاني. وفي كَسْطال وبرَأْسِ العَيْن وبومَرْزوق أوعية أخرى تبدي تشابها ربما ليس عرضيا مع إنتاجات غالية Gaulois ترجع للقرن الأول ق.م. وهنا وهناك، فإن فخاريات أكثر رقة مصنوعة بالمخرطة ومشوية بالنار، لاشك أنها أدوات جاءت من مصانع حضرية وذاعت بالتجارة. ففي طُبُرْسُق ودُقَّة وبُلارِيجْيا Bulla Regia أوعية ذات شكل بونيقي تماما، وفي الرُّكْنِية إناء رضاع Pot-Biberon بونيقي كذلك. وفي كَسْطال قارورة ذات تحدب متناسق ورشيق جدا، ولولا انعدام الطلاء Vernis بها لأمكن أن تكون مستجلبة من إيطاليا الجنوبية. وفي عَيْن الْباي قرب قُسّنطينة مصباح يدعى بالمصباح الرُّودسي، أما دُقّة ومَغْراوة والجنوب التونسي ففيها فخار بطلاء أسود. وكلَ هذا يرجع لما بين القرنين الثالث والأول، ثم هناك

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الفخار الروماني صراحة، ويغطيه غالبا طلاء أحمر كما في دقة ودفيفي Duvivier وفي أمكنة مختلفة بمنطقة قسنطينة (بعَين الْباي وبونُوارة ورَأس العَيْن وبومَرْزوق وسِيلاَ وسيكوس) وكذلك في إحدى التلات بالجنوب الغربي لبِسْكرة وغيرها قوارير زجاجية قليلة العدد هي من نفس عصر الفخاريات.

وعثر على عملات نوميدية وقرطاجية في كل من دُقَّة ومَغْراوة، وفي إحدى التلات بجنوب القطر التونسي وبگسْطال وعَيْن الْباي وسيلا. وتؤرخ النقود النوميدية بالقرن الثاني ق م، وليست البونيقية بأقدم منها. ولا ننس أن هذه وتلك كانت لا تزال جارية في القرن الثاني للميلاد، وكذلك الدوانق Deniers الفضية التي للجمهورية الرومانية. فإن دانقين منها كانا محفوظين في كْرومْلك بمنطقة نْـگاوُس Ngaous. وبأحد الدلْمينات بسيگوس، فإن قطعة نقود من عهد الأمبراطور ضومِتْيان (نهاية القرن الثاني) قد كانت موضوعة تحت وعاء روماني مقلوب على صدر الميت. وفي رَأْسِ العَيْن بومرزوق قطعة نقد من عهد الإمبراطورة فوسْتين الكبرى Faustine l'ainée (موسطة القرن الثاني) وكانت في أحد الدلمينات الذي – على غرار دُلْمين سيگوس – كان يبين سلامة الفرشة الحجرية والبلاطات التي تصون الحفير الجنائزي.

كما وقع العثور في بعض الدلمينات على نقود أحدث عهدا، لكن وضعها مع الموتى ليس مؤكدا على ما يحتمل، فقطعة برونزية من عهد الإمبراطور گالْيان Gallien (253 إلى 268 للميلاد)، في سيلا. وفي گسْطال قطعة برونزية صغيرة يبدو أنها من عهد الإمبراطورية المتأخرة Bas Empire. وفي قلب الصحراء بالهُگار Hoggar فالتلة العريضة لِتِين

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
هِنان Tine Hinane التي وقع تنقيبها مؤخرا عثر في أحد بيوتها بالقرب من الهيكل العظمي لإحدى النساء على بصمات لعملة من عهد الإمبراطور قُسْطَنْطين. وحيث إن هذا المدفن لم يسبق أن نبش، فالمتأكد أن عملية الدفن قد جرت في القرن الرابع على أقل تقدير.

إن الأثاث في بلاد البربر يسمح غالبا بالتأكيد أن عمليات للدفن قد جرت تحت الدلْمينات وغيرها من قبور الأهالي حتى في وسط عهد الإمبراطورية الرومانية. وهذه العمليات لم تقع في البوادي فحسب، بل وقعت حتى عند أبواب بعض المدن والحلل Bourgs التي كانت فيها الحضارة الرومانية واسعة الانتشار. لكن هذا الأثاث لا يؤرخ حتما بنفس العهد الذي للمدافن. فنحن حقيقة نعلم أن هذه المدافن غالبا ما وصلها العديد من الموتى بتتابع في الزمان. وبالنسبة للتي لا تشتمل إلا على جثمان واحد، لابد أن يكون الجثمان والأثاث على العموم من نفس العهد، وذلك ما قد تؤكده التنقيبات الموثوق بها إذا لوحظ أن القبر لم يعد فتحه. ولاشك أن ذلك هو ما يصح لأكثرية التلات. لكن في غيرها يمكن أن نتساءل عن هذا الدفين الوحيد، هل لم يحل محل بعض الموتى قبله الذين ربما وقع إجلاؤهم تماما؟ إذن فالأثاث ليس، والحالة هذه، علامة قطعية في تعيين عهد المدفن. وذلك العهد هو الذي يجب بحثه.

فالتلات الحجرية لا تعلمنا شيئا، لأنها يمكن أن تكون من أي عهد. وبالنسبة للدلمينات فلا يجب أن نعطي أهمية كبيرة لبعض الاختلافات في البناء، لأنها لا تعطي علامات تاريخية أكيدة. في بعض المواقع تظهر الخانات بمظهر خشن أكثر مما يظهر في غيرها. ولكن لا يلزم أنها الأشد قدما. فمواد البناء الموجودة هنا لا تساوي التي هناك مما يقع الحصول عليه بسهولة، وعند تكوين الجدران الفاصلة والموائد فإنها لا

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

تمكن من الحصول إلا على بلاطات كاملة الانتظام. ونفس السبب يمكن به تفسير اختلاف الأبعاد (الأحجام) للخانات، دون احتياج للافتراض بأن حب تسهيل العمل بصفة عامة قد صغر أحجامها مع الزمن. وفي إفريقيا كما في مناطق أخرى، يحتمل أن بناء فواصل الدلمينات بأسوار ذات قواعد حجرية هي عادة أحدث عهدا من استعمال الكتل الصخرية أو البلاطات التي تغطي كلية أعلى الخانة. وكثيرا ما تغطي أيضا كل عرض الجانب. ولكن إحدى الطريقتين لم تلغ الأخرى. فلقد سبق أن رأينا أن العديد من الدلمينات أقيمت ونصفها بعضها أحجار ميغالية وبعضها الآخر نصفه أحجار صغيرة متراكبة.

في أَوْلاد فَيّات Ouled Fayet قرب مدينة الجزائر دُلْمين مدفون، مائدته بلاط خشنة، تحمل كتابة ليبية، لم يقع نقشها من بعد على ما يحتمل. وحيث إننا لا نعلم لهذه الكتابة مثالا سابقا على القرن الثاني ق.م، فلدينا بهذا علامة تسمح لنا بالتأريخ لهذا المدفن بعهد حديث نسبيا.

الدلمينات التي تكون جبانات تقل أو تكثر مساحاتها نلاقيها في أماكن مختلفة بالقطر التونسي وبالشرق الجزائري، بالقرب من بعض المدن أو الحلل التي كثيرا ما كانت تزود بالأحجار التي وقع تربيعها وفيه بعض الإتقان، ولكنها لم تقتطع على الطريقة الرومانية. وكما أشار لذلك كَرْتون Carton(82) إذا كانت كلها قد أقيمت في القرون المسيحية الأولى، فمن الصعب علينا أن نفسر الانعدام الكلي في هذه المدافن للطرائق وأدوات البناء الرومانية التي استعملت في المنازل المجاورة. وإذا اتصلت حضارتان اتصالا مباشرا واختلطتا فالاقتباس بينهما يكون متحتما. إذن فمن المحتمل جدا أن تكون أكثرية هذه الدلمينات

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ترجع لما قبل السيطرة الرومانية، فتكون معاصرة للمراكز النوميدية التي اتخذت فيما بعد الطابع اللاتاني.

وعلى النقيض من ذلك، ففي دُلْمينات شرق القطر الجزائري، تتكون الفواصل من كتل رباعية مستطيلة الشكل، قطعها لا عيب فيه، تشبه تماما الأحجار الرومانية، وتحمل الآثار الواضحة للإزميل المعدني، وأخيرا فقد تم توضيعها بعناية فائقة. وأحيانا فإن الموائد أيضا وقع اقتطاعها على الطريقة الرومانية، وعلى الأقل في جوانبها. وفي دُلْمينَيْن اثنين أحدهما بثْهالا Thala بغرب القطر التونسي والثاني بسيگوس، كانت المائدة فيها متخذة من مسطح كبير إحدى المعصرات من ذوات المجرى الدائري شبيهة بتلك التي توجد بكثرة في المزارع الفلاحية من العهد الإمبراطوري Epoque impériale. فلابد أنها أخذت من بعض المزارع المجاورة. وفي غير هذين المكانين، قد أدخلت في جدران الدلمينات الأحجار الضخمة. فلاشك إذن أن الدلمينات كانت لا تزال تبنى بعد أوائل العهد المسيحي في كل من الشرق الجزائري والغرب التونسي. أما بشرق الأوْراس فيبدو أنها أقيمت على خرائب رومانية، ولست أدري هل هذا الأمر صحيح.

في جنوب القالَة La Calle، يوجد شاهد غريب يشهد على وفاء بعض الأفارقة لهذا النوع من المدافن. ذلك أن دلمينا عتيقا قد بني ببلاطات خشنة. ولكي يستخدم ثانية فقد جرى إسناده من الخارج بدعامة ذات شكل رباعي مستطيل هي جدار بقواعد من حجر ضخم.

ونستطيع أن نذكر مقابر أخرى من العهد الروماني تظهر عليها بوضوح ذكريات الدلمين. ففي ألثيبوروس Althiburos بمنطقة الكاف

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
Le Kef توجد مغارة كبيرة تحت الأرض، مستطيلة الشكل، جدرانها من حجارة مقطوعة Pierre de taille بينما السقف هو عبارة عن مائدة ضخمة من الكلكير. وفي قَلْعة بوعَطْفان Guella Bou Atfan بجنوب قالَمة Guelma قاعات مستطيلة الشكل أيضا بفواصل مبنية كذلك بحجارة مقطوعة، مظهرها روماني أيضا، ويتكون سقفها من بلاطة واحدة ضخمة أو من عدة بلاطات ضخمة كذلك، وجوهها خشنة، ومنقوشة على الجوانب، وبها فتحة صغيرة يمكن إغلاقها بقضبان على شكل المشط وبها كوات كانت تضم قوارير برماد الموتى، الأمر الذي يشهد بعادات جديدة. وبمَشْرَع الصَّفَا Mechra Sfa بمقاطعة وهْران نجد أيضا وفي صميم العهد المسيحي، قاعات جنائزية رباعية، تنحدر من النموذج الدلميني، حيث الفواصل والسقف مكونة من بلاطات كبيرة أو من كتل ضخمة لم تقتطع وإنما نجرت فحسب ولوئمت وهي جافة.

في بعض حظارات Enceintes الكرملك، كما في بعض التلات، ترى قطع حجرية ضخمة اقتطعت إما عن قصد، وإما أنها أخذت من مباني رومانية، وقد ترى بها كذلك جذوع أعمدة، وإفريزات، وأحجار عليها كتابات ليبية أو لاتانية. أما عن التلات، فلدينا دلالات تمتد على سلسلة قرون طويلة منها التلة الهجينة التي تعلو بئرا فينيقية أو كهفا رومانيا، ومنها التلات التي أقيمت حول المدْغاسِن Médracen، وهي تبعا لذلك متأخرة عن هذا الضريح الذي - كما سنرى - هو نفسه تلة ضخمة يكسوها زخرف كلاسيكي، ويرجع على ما يحتمل للقرن الثالث ق.م، ومنها قبر النصرانية Tombeau de la Chrétienne وهو ضريح ملكي آخر أقيم على مثال المَدْغاسِن، ومنها جِدار وهْران Djedar وهي مدافن للأمراء ترجع للقرنين السادس والسابع الميلاديين، وترتبط هي أيضا بنسب مباشر مع الكتل الحجرية الأهلية العتيقة.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وختاما فالمدافن التي هي حجر جاف والتي نعرفها حاليا في شمال إفريقيا ليست معالم يمكن أن نصفها بأنها من عهد ما قبل التاريخ. فالعديد من هذه المعالم هو بالتأكيد سابق على الفتح الروماني، ويشتمل على أشياء تؤرخ بأواخر العهود القرطاجية، المعاصرة للملوك النوميديين أهل القرنين الثاني والأول. لكن في صميم العهد الروماني جرى استعمال العديد من هذه المدافن. بل لقد وقع إنشاؤها من بعد. وكذلك يبدو أنه، مع عدم التخلي نهائيا عن إنشاء الدلمينات، فإنهم لم يعودوا يستحسنون هذه الصناديق الضخمة التي تتعبهم إقامتها. وفي موسطة القطر التونسي وشرقه، لا يوجد أي منها يرجع حتما لما بعد القرن الأول ق.م. وبعيدا إلى الغرب، فإن الشكل الدلميني استمر طويلا مع بعض التغيرات. أما التلة والشوشة فقد دام وجودهما أكثر. وكان البربر هم الذين أدخلوهما إلى الصحراء عندما ذهبوا لإخضاعها ربما في القرن الميلادي الثالث فحسب.

ولكن إذا صعدنا مع مجرى العصور عوض عن أن ننزل، فلابد لنا من التوقف عند القرن الثالث ق.م، إذ لا نستطيع التأكيد على أن هذا العدد من المدافن يوجد من بينه ما يرجع لعهد أقدم من ذلك.

ومع ذلك فقد أُسلِّم به، لأننا إذا استثنينا بعض الاقتباسات التي يسهل تبينها والتي لها طابع استثنائي - كاستخدام القطع الحجرية الضخمة، ووضع الموتى متمددين، وإحراق الجثث، والأوعية المستجلبة - باستثناء كل ما ذُكِر فهي مدافن كل ما بها يتعارض مع الحضارتين البونيقية واللاتانية في الأشكال، وطرائق البناء، والطقوس الجائزية، والفخاريات الثخينة. فكيف استطاع البربر أن يدخلو لديهم مثل هذه العادات في أزمنة كانت أنظارهم فيها تقع على الأمثلة الفينيقية المختلفة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
جدا ؟ إنهم لم يتخذوها آنذاك، بل لاشك أنهم اتخذوها قبل ذلك بقرون، وأنهم تعودوا عليها جدا وإلى حد أنهم لم يقلعوا عنها إلا بصعوبة، وهي عادات كانت من قبل في بلاد أخرى بحوض البحر الأبيض المتوسط قد وجدت في أزمنة بعيدة. بينما هي في العهد الذي نراها فيه ببلاد البربر، كانت قد اندثرت قديما جدا من تلك البلاد الأخرى، الأمر الذي يؤكد شدة قدمها لدى البربر. وإلا فكيف يمكن الاعتقاد أنهم بمعجزة قد عادوا حول القرن الثالث وتخيلوا طرائق في البناء وطقوسا أتى النسيان عليها في جهات أخرى ؟

وهذا الرأي لا ينطبق في الواقع على التلات البسيطة جدا، إلى حد أن كثيرا من الشعوب استطاعت إقامتها دون أن يعرف بعضها بعضا. ففكرة تكديس الحجارة أو التراب على إحدى الجثت عمل يمكن لجميع الناس أن يتخيلوه وأن ينجزوه. ولربما أن أجداد البربر قد أقاموا التلات تلقائيا منذ عهد مبكر. وعلى كل فإنهم لم يقلدوا الفينيقيين الذين لم يخلفوا مثل هذه المدافن حول مستوطناتهم الإفريقية.

أما عن الدلمينات فيبدو أنه لابد من قبول وجود علاقة نسب بين هذه المتناثرة بالشمال الإفريقي وبين ما يوجد منها في الغرب الأوربي كله، كما في سَرْدانية، وكُرْسيكا، ومالْطة، وفي جنوب إيطاليا. ولا داعي للحديث على غيرها من الأراضي البعيدة. وهذه المخلفات الميغالية كانت تستلزم طرائق في قلع الأحجار ونقلها وفي البناء مما لم يقع ابتكاره في كل مكان. وفعلا فهي في غرب العالم الغربي القديم تظهر للناظر على شكل نصف دائرة يمتد من اسْكَنْدِناڤيا حتى الساحل التونسي، مع تفريعات خلال البحر الأبيض المتوسط. وينعدم وجودها في أوربا الوسطى وفي كل الهضبة الإيطالية تقريبا. وأياً ما كان أصلها فإنها

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مرت إما من إفريقيا إلى أسبانيا أو من أسبانيا إلى إفريقيا. لكنها في أسبانيا قد جرت إقامتها من نهاية العصر الحجري الجديد إلى ما حول بداية عهد البرونز، حيث تحولت إلى صناديق بسيطة. وعلى هذا، فإذا كانت وصلت لأسبانيا من إفريقيا، فهذه تكون قد عرفت الدلمينات منذ عهود الحجري الجديد، وإذا كان العكس، وأن إفريقيا أخذتها من أسبانيا فيكون ذلك على الأقل في الألف الثالثة ق م. وبهذا تكون قد اتضحت لنا شدة قدم المثال الدلميني لبلاد البربر ويبقى العثور على الدلمينات التي تؤكد هذه النتيجة.

أقيمت أحيانا مقارنات بين الشوشات وبين المخلّفات الأثرية ذات الجذع المخروطي التي هي من حجر جاف، وأقيمت في العصر الحجري الجديد وعصر البرونز، وحتى في عصور متأخرة ببعض جزر البحر الأبيض المتوسط الغربي، كالتّلايوت Talayots التي في جُزُر الْباليار، والنوراغ Nuraghes التي في سَرْدانية، والسيزي Sesi التي في بَنْتِلارْيا Pantelleria. إن جل هذه الحصون الجزيرية Insulaires ليست مدافن، وهي تتميز عن الشوشات بوجود فتحة على جانبها للدخول وبالغطاء البارز Encorbellement على القاعات التي تشتمل عليها. ولستُ مستعدا مطلقا لقبول هذه العلاقة في النسب بينها. بل أعتقد أن الشوشات منحدرة من الدلمين بتعالي السور الأسطواني للحَظار Enceinte. وفكرة إلاء السور إلى حد جعله حصنا، قد تكون أوحى بها النظر لِنُوَراغ Nuraghe مثلاً أو لِتَلايُوت Talayot، فكرة ليست من قبيل المستحيل، ولكن لا يجب تأكيدها. لكن أضرحة بمغراوة، وفي حمّام الزواكْرة وفي تيرْكبين يلوح عليها - كما ذكرنا من قبل - مشابهات قد لا تكون من قبيل الصدفة، مع التلايوت ومع نَفيتاس Navetas بجزر الباليار.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
وقلنا كذلك إن كوما حجرية توجد في أوربا كما بإفريقيا، في مدافن الدلمينات والتلات، ويمكن الاعتقاد أن ذلك ليس أيضا من قبيل الصدفة.

ولننظر الآن في الشعائر الجنائزية. ففي أوربا دفنت جثت في الوضع المَثْني منذ أزمنة الحجري القديم. بعد ذلك فرضت نفس الطريقة على الموتى في مواطن مختلفة جدا من العالم القديم : في جميع اوربا تقريبا، وفي مصر وآسيا الصغرى وفي فلسطين وفارس كذلك. فعادة كانوا يضجعون الموتى في قبورهم، وأحيانا كانوا يجلسونهم بها، غير أن هذا الطقس بدأ يقل في بلدان اوربا في عهد البرونز. وإذا لم يكن قد تنوسي تماما في أسبانيا في بداية عصر الحديد، فإنه كان قد اختفى منذ أمد بعيد من الهضبة الإيبيرية في القرن الثالث، أي في عهد أقدم المدافن البربرية التي يمكن تأريخها. وليس في الاستطاعة قبول أنه أدخل متأخرا لشمال إفريقيا، إذ هنا كما في أوربا لدينا البراهين على ثني السيقان منذ أقدم العهود.

ونفس الاستنتاج يفرض نفسه بالنسبة لعادة إخفاء البقايا مبعثرة لجثة أحد الموتى أو العديد منهم. وقد استعمل ذلك بأمكنة أخرى، إما بتقطيع الجثت، وإما بأن توضع في القبور العظام مكشوطة من لحمها. ولنذكر ذلك في البلاد القريبة من بلاد البربر، فنجده في أسبانيا منذ العهد الحجري الجديد، وفي مصر منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. لكن في هذه المناطق كان قد وقع التخلي عنه منذ قرون بينما كان لا يزال العمل به عند البربر.

أما عادة صبغ الموتى باللون الأحمر - أو تمكينهم هم من وسائل صبغ أنفسهم - فيمكننا ملاحظة أنها عادة قديمة جدا في

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

إفريقيا. وقد ظهرت في أوربا منذ العصر الرابع quaternaire. وصارت فيها عملا معتادا أثناء العهد الحجري الجديد néolithique، والجديد الفوقي Enéolithique، ثم وقع التخلي عنها، ولكن لا تزال منها أمثلة بأسبانيا في عهد البرنز قبل الألف الأولى.

وأين ولدت هذه الأشكال من القبور وهذه الطقوس التي نجدها على جانبي البحر الأبيض المتوسط ؟ إن الاعتراف بجهلنا خير من المخاطرة ببعض الافتراضات الواهية. ولكن المتأكد هو أن عادات جنائزية أصابها الإهمال في جهات أخرى ثم وقعت في نسيان شديد، قد استمر وجودها عند البربر حتى في العهد التاريخي الواضح. وتلك حجة واضحة، وإن لم تكن الوحيدة، على تمسك هؤلاء الرجال بأخلاق آبائهم.

ولقد اختفى بعض هذه العادات، وبعضها الآخر لازال مع القليل أو الكثير من التحويرات حيا حتى يومنا هذا.

وإذا كانت بعض الجثث في بعض مجاهل الصحراء قد دفنت أيضا، وليس بزمن بعيد، في عميق قبرها وهي جالسة فذلك عمل استثنائي. أما خلط العظام فليس لدينا عنه مثال منذ عهود التاريخ القديم. فالبربر قلدوا أولاً الفينيقيين والرومانيين، ثم امتثلوا أوامر الإسلام، وعملوا باكرين أو متأخرين بتمديد موتاهم في حفائر. وأقلعوا ربما منذ ألفي سنة عن صبغهم بالأحمر، وتخلوا عن بناء الدلمينات ربما قبل قدوم الفاتحين العرب، لأنهم عندما يغطون الحفائر بقشرة رقيقة من الحجارة ويكسونها ببلاطات خفيفة فمن المشكوك فيه - والحالة هذه - أن يتذكروا الحجارة الضخمة (الميغالات Mégalithes) التي أقامها أجدادهم. ولا أصدّق أنهم كانوا يصنعون دُلْمينات مصغرة en miniature

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
داخل حظار مقدس، وبه مقابل المدخل صناديق صغيرة جدا متكئة على جدار الضريح، مفتوحة من الأمام، ويحدها من الجوانب ألواح قائمة مغطاة بلوح آخر أفقي. فالصناديق تكون كوات يأتون لها ليضعوا بها هداياهم. فالشكل البسيط جدا لهذه الكوات يفسره ما أحدثت له.

أما في الصحراء فقد أقيمت شوشات في صميم القرن الميلادي التاسع عشر، وأضفوا عليها حلة إسلامية بأن وضعوا فيها فوق الجثة المتمددة عند الرجلين والرأس الحجرتَيْن المنتصبتين، أي (الشاهدين) اللذين يقيمهما المسلمون على قبورهم. وحتى اليوم فإن كوما من الحجارة محددة وغير محددة بسور صغير، غالبا ما تغطي مدافن ليس بالصحراء فحسب، بل في بلاد البربر. وهي في الحقيقة أصغر حجما من جل التلات العتيقة، بيضوية دائما، تبعا للشكل المستطيل للحفير الذي يتمدد فيه الميت. وفي أمكنة أخرى، فوق الحفير نجد ما يطلق عليه علماء ما قبل التاريخ اسم كْرومْلِك صغير، وهو عبارة عن حظار إهليلجي Enceinte يتكون إما من أحجار مسطحة منضدة كأسس، وإما من أحجار مركوزة في التراب. وتتخذ الشواهد مواقعها بالمحور في داخل الدائرة، أو على السور الصغير.

11

إن الطقوس تعبر عن معتقدات تعيش بعدها هذه الطقوس في الأغلب، ويصيب النسيان معناها. والمعتقدات الجديدة، تتولد عنها طقوس جديدة لا تلغي القديمة. والذين يعملون بهذه وتلك لا تهمهم المخالفات التي يحدثها سلوكهم، بل هم عادة لا يفكرون فيها. وهذا هو ما يجب تذكره عند البحث لفهم العادات الجنائزية لدى الأفارقة القدماء.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

لقد كانوا بالتأكيد يهتمون بالموتى. وكانوا ينجزون لهم مدافن يفرض الكثير منها القيام بخدمات أطول وأشد من إنشاء أكواخ ومنازل كالتي كانوا يقيمون بها في حياتهم. فما أشد الجهود التي تطلبتها تلك الكهوف المحفورة في الصدوع الوعرة للجبال، وما أشد الجهود التي فرضتها إقامة الدلمينات ذات الموائد الضخمة. إن الموتى كانوا بهذا مصونين عن التغيرات السيئة لأحوال الطقس، وعن الحيوانات المفترسة التي كانت آنذاك كثيرة بإفريقيا، وعن الرجال الذين يضمرون الشر. فمواقع استراحتهم كانت على ما يبدو مثلما كانت المدافن عند المصريين والفينيقيين : (مسكناً أبدياً).

ولم تكن هذه المدافن تختلط بمنازل الأحياء، لكنها عادة ما كانت قريبة من الأمكنة التي يعمرها هؤلاء بصفة دائمة أو يزورونها باستمرار. وكانت ذات وقار، وكثيرا ما تكون مدينة صامتة بجانب الأخرى التي تضطرب فيها الأجيال المتتابعة. في هذه المدافن كانت الحواجز تحد الأقسام التي ربما كان يجتمع بها الرجال الذين عاشوا مجتمعين. والكثير من المقابر قد أنجزت بطريقة تساعد على إعادة فتحها لتتقبل أعضاء إحدى الأسر واحدا بعد الآخر، كما أن بعض الأحجار قد نصبت لتكون على ما يحتمل علامات، وتكون تبعا لذلك شهادات على العلاقات التي لا تزال تربط الأحياء والأموات. وسنرى، حسب ما أورده هيرودُت، أن النَصمونيين كانوا في بعض الأحوال الخطيرة يذهبون إلى بعض المدافن التي يعرفون أشد المعرفة المدفونين بها من أجداد عائلتهم أو الشخصيات التي خلفت اسما مرموقا.

لكن عندما نبحث كيفية تكوين هذه القبور، هذه الكتل السميكة من الأحجار، هذه الصناديق القوية الصنع، هذه الغرف المحفورة في

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
الصخر، حينما نبحثها يبدو إذن أنها تحدث شعورا مغايرا جدا. إنها سجون حقيقية، غالبا ما لا توجد بها أي فتحة للخارج. جرمها وجدرانها قوية إلى حد يمنع نازليها من الإفلات منها، ومن الاختلاط بالأحياء وإزعاجهم بمختلف الطرق، ومن مطالبتهم بالخيرات التي كانوا يملكونها بأنفسهم. فالخوف من الأشباح كان الأصل أو على الأقل أحد الأصول فيما نسميه عبادة الموتى. وخلافا للصواب فإن هذا الخوف قد تواءم من بعد مع الاهتمام العطوف بالموتى.

ونعتقد أن نفس المخاوف غالبا ما ألهمت الطقس الجنائزي لدى البربر القدماء. وهو الطقس الذي نجده أيضا لدى العديد من الشعوب القديمة. وفي أيامنا نجده بأمريكا وأقيانوسة وفي إفريقيا الجنوبية. وقد اختلفت الآراء في ثني الموتى، فالبعض يفسره بوجود اهتمام بتصغير حجم القبور، والغير يرى فيه وضعا للنوم، أو وضع استراحة، استراحة بجلوس على الطريقة الشرقية، تزدان بوجبة طعام إذا اقتضى الحال. وغيرهم جميعا يرى أنه ذو رمز عميق : فالميت يكون قد وُورِيَ في بطن أمه الأرض، بإعطائه وضع الجنين في بطن الأم، مع الأمل الجازم بأنه يبقى منتظرا على نفس الحال وقت ولادته من جديد[83]. إني لن أكرر هنا الرفض السابق لهذه الأفكار، لأن التفسير المحتمل جدا حسب رأينا هو وضع الموتى بحيث يستحيل عليهم الإتيان بأي حركة. فلابد من منعهم من أن يغادروا سجنهم بنيات سيئة إذا وجدوا سبيلا. فالأبدان المثنية الملفوفة كالرزمة لابد من تقييدها في الأزمنة والأمكنة التي يذكر الناس فيها معنى ذلك الطقس. ذلك ما ذكره أگاثَرْخيد [84] Agatharchide حينما تحدث عن الهمجيين أهل بلاد النوبة بين النيل والبحر الأحمر. فقد كانوا يثنون الموتى ويربطون أعناقهم إلى أرجلهم بأغصان لينة ثم يغطونهم بالأحجار.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
ولكي يحفظوا أنفسهم من الأشباح العائدة، ربما يبدو أن الأسلم هو تحطيم الأبدان. ولعل هذا هو سبب الطقس الذي يخلط ويبعثر العظام بعد تجريد الهياكل من لحومها وجلودها. أما الإحراق – وهو عادة مستجلبة من الخارج – فكان أكثر نجاعة. وهذه البقايا الهزيلة من العظام والرماد كان من غير المستحسن مع ذلك بعثرتها دون تبصر. فما أشد قدرتها إذا تركت على حالها دون أي مراقبة. وما دام في الوجود قسم من الميت، فإنه يخشى أن يتكون من جديد ويسيء التصرف بالحرية التي تركت له. وسواء حوفظ على الجسم أو جرى تحطيمه فلابد من إيداعه في مكان يكون وجوده فيه مضمونا ضمانا يؤكد عدم قدرته على الإساءة.

إننا نجهل جهلا تاما الأفكار التي لاشك أنها كانت مختلفة والتي كانت لدى الأفارقة القدماء عن تكون الكائن الإنساني. فالكثير منهم استطاعوا الاعتقاد بوجود الروح التي لا تنتهي بعد الموت إلا بفناء الجسم الذي هو سندها. فالروح تحيى وعادة ما كان يحلو لها أن تعيش مع الجسم، حتى إذا فارقته، وعند بحثها عن غلافها المادي الضائع أو المبعثر، فإنها تشعر بالتعاسة وتصير شريرة. فلابد إذن من الإبقاء على الجسم أو بقايا الجسم في السجن الجنائزي، لحفظ الروح بنفس المكان.

وربما أن للغير تصورات مختلفة جدا. فالروح – أو إحدى الأرواح التي ربما سكنت جميعا في الإنسان – تعيش أبديا بعد الجسم. إنها تنفصل عنه ساعة الموت، ولكنها قد تود الاتحاد به من جديد. وفي هذه الحالة لابد من منعها وتحريرها للذهاب إما لجسم آخر لتحل به، وإما للمقر الذي تعيش به الأرواح مجتمعة. ولهذا فالجسم يجب أن يحبس

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
بصفة لا تمكننا من الاتصال به، بل يجب أن يتم تحطيمه إلى حد أن لا تستطيع الوقوع منه على مأوى يحملها. وربما أن هذه تطبيقات لمعتقدات جديدة، أي تطبيقات متولدة عن معتقدات أخرى. لكن الموضوعات الغارقة في الظلام الدامس يكون من العبث تكديس التخمينات فيها.

كان الأحمر لونا جنائزيا عند كثير من الشعوب، ومن بينها القرطاجيون. لأنه حسب رأي مقبول لونُ الدم والحياة. فبنشر مادة على ما يحتمل سائلة وحمراء على الموتى، يحدث التوهم بإطالة حياتهم في القبر سواء كان مأوى أو سجنا.

أما وضع الآثاث، الذي هو عادة عرفتها أوربا منذ العصر الرابع، فيفسر بنفس الطريقة. فالموتى في حياتهم الجديدة بحاجة لحُلاهم التي كانت في الأصل - وعلى الأخص - تمائم صيانة. ويحتاجون إلى الطعام، فتترك لهم الأطعمة في أوعية أو بدون أوعية، وصارت الأوعية من بعد فارغة بل أحيانا، وعلى ما يحتمل كان الأكل يطبخ بنفس المكان. ورجال الحرب لم يكن يحرم بعضهم من صحبة فرس المعارك. فحسن حال الموتى بأعماق قبورهم يقلل حبهم للخروج منها. وبالطبع حين يتم تقريبا تحطيم الجسم تماما، يمكن القول بأنهم لا حاجة لهم بحُلاهم والطعام. ولكن كثيرا من الطقوس يستمر في الوجود حتى عندما يصبح عبثا. وربما ليس فحسب لتأمين حياتهم المادية يحبس معهم بعض أدوات الزينة والعمل. فهذه الأدوات كانت وتبقى ملكا لهم، إنها القسم المتنازل لهم عنه مما يملكون، وذلك لكي يتوقفوا عن المطالبة بالباقي. ومن المحتمل أن تكون الأدوات قد كسرت أحيانا عن عمد، إذ لا يحسن بالغير أن يستعملها، ولو استعملها لكان في الأمر خطر عليه،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

لأن ما يملكه الميت يمكن بنوع من العدوى أن يصبح مرعبا كالميت نفسه عندما يتحول إلى حالة الشبح.

إننا حتى الآن لم نلاقي أي طقس جنائزي تفسره معتقدات دينية حقيقية، أي يفسره الإيمان بكائنات عالية جدا عن الناس، بحيث يعتقدون أنهم خاضعون لها ويعملون لإرضائها.

لكن يصعب عدم الاعتراف بإجلال للشمس وبوسيلة لجعل الموتى تحت رعايتها في تلك العادة المنتشرة جدا التي تدير نحو المشرق مدخل الخانة la case ورؤوس المحبوسين فيها. غير أن هذا الاهتمام بالتوجيه نحو المشرق ليس خاصا ببلاد البربر، إذ توجد في دلمينات أوربا كما في مدافن المصريين.

وقريبا جدا من عدة تلات بموسطة الجزائر وفي الجنوب التونسي توجد بقايا نيران من فحم ورماد. فلربما أن نارا عظيمة قد أشعلت بعد إنهاء القبر فَحَسْب، لغاية هي التطهير لإبعاد العفاريت الضارة. ومع ذلك فمن المحتمل جدا أن يكون ذلك بقايا لطعام جنائزي، لم تختف عادته حتى اليوم عند الأهالي. وبالقرب من الحدود الجزائرية المغربية اكتشف بين الحِظار enceintes والخانة في أحد الدلمينات موقد نار به قطع من الفحم وعظام محروقة لبعض الحيوانات، وشقوف فخارية، والكل تحت عدة أحجار موضوعة ببعض التنظيم. فلاشك أنه قد احتفل هنا بإطعام أو قربان يشمل إطعاما. فهل كان هذا القربان موجها للميت نفسه بكيفية تتكون بها عن طريق الضحية رابطة بينه وبين المشاركين في الحفل ؟ هل كان يتجه إلى أحد الأرباب يرجى لصالح الميت؟ ماذا يمكننا أن نعرف عن هذا ؟

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

من العسير ذكر المدلول الحقيقي للثقب والحفر التي أحدثت في الوجه الأعلى لموائد بعض الدلمينات. ولكن ربما لن نخطئ إذا فرضنا أن بعض الهبات offrandes من السوائل كالدم والحليب وغيرهما قد جرت عليها فيما مضى. وكانت بعض التلات في الصحراء تعلوها أوعية، لابد أيضا أنها، ولو في الأوائل، كانت تحتوي الهبات، كما أن المسطحات المحاطة بالحواجز التي أقيمت في أعلى بعض البازينات بالجزائر وتونس لابد أنها استخدمت لبعض الشعائر الدينية. وكذلك الشأن بالنسبة للتعزيزات التي لها شكل كوات Niches، والتي تحفر أحيانا في الجدار المحيط.

يقول هيرودُت[85] : «إن النصَمونيين يحلفون بالرجال الذين يعتبرون لديهم أكثر خيرة وفضلا، وذلك بأن يلامسوا أضرحتهم». ولقد سبق لي ذكر بقية الخبر الذي يروي هيرودُت فيه أن هؤلاء النصمونيين عندما يريدون معرفة المستقبل، فإنهم ينامون على قبور أجدادهم، بعد أن يؤدوا الصلاة، ثم يفعلون ما رأوا في أحلامهم. إذن فهؤلاء الموتى ليسوا مخلوقات يُخاف منها ويجب العمل لمنعها من الإساءة. الموتى بمستطاعهم أن يعرفوا المستقبل ويخبروا به، وأن يعاقبوا على يمين الزور. فهل حصلوا على هذا العلم وهذه القدرة من أرباب استخدمت هؤلاء الموتى كوسطاء ؟ أو إنهم أنفسهم كائنات إلهية ؟ وذلك الأمر لم يذكره هيرودُت.

أياً ما كان الأمر، فجميع الموتى لا يبدون بالتساوي أهلا للاحترام، ولا قادرين على فعل الخير. وكل امرئ يطلب من أجداده هو بيان المستقبل. ولربما أن موهبة التنبؤ هي بالنسبة للموتى مقصورة على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

شؤون ذريتهم. فطلب الحماية يكون متجها إلى (من هم أحسن) وإلى الأشد قوة لاشك، أي إلى من قد يتجه إليهم في حياتهم. وتلك بداية العبادة التي إذا لم تعتمد على تضامن الأسرة، فإنها قد تشبه تلك التي تؤدى لشخصيات موسومة بسمة القداسة كالأولياء Marabouts في حياتهم وبعدها. أما الملوك المتوفون فكانوا يُعْبَدون وكأنهم حقيقة آلهة. وذلك أثناء القرون التي سبقت أو تلت العهد المسيحي.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الكتــاب الثاني

الحياة الفكرية والروحية

الفصل الرابع

مدافنُ شاهدة بتأثيرات خارجية

1

بينما المدافن الأهلية التي درسناها في الفصل السابق، هي أبنية بالحجر الجافّ، قائمة بالعراء، فإن المقابر من نوع فينيقي تبقى غير مرئية. فهي كهوف تحت الأرض، وعلى العموم ليست مبنية بمواد حملت إليها، ولكنها حفرت في الصخر أو في أرض تربتها مصمتة إلى حدما.

أما المدن البحرية بمنطقة السدرتَيْن، ونوميديا وموريطانيا، التي صارت خاضعة للملوك الأفارقة، فإنها لم تغير عاداتها الجنائزية ولا باقي حضارتها الفينيقية. لكن بها اقتباسات من السكان الأهالي الذين اختلطوا بالمستوطنين منذ عهد بعيد. ودراسة المدافن لا تكشف عن أي جديد قد يتفق مع تغيير النظام. ففي شولو Chullu (أي كولو Collo التي هي القالة بشمال قسنطينة) وفي گونوگو Gunugu (بالقرب من گورايا Gouraya بغرب شَرْشال) على الخصوص وقع العثور على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
مدافن يرجع تاريخها لنهاية العهد القرطاجي ولعهد الملوك بين القرنين الرابع والأول.

إن جل القبور هي كما في قرطاجة قاعات في باطن الأرض. وفي گورايا المدافن مسبوقة بجُبّ Puits رباعي مستطيل Rectangulaire قليل العمق يفضي أحيانا إلى قاعتين. وتوجد كذلك سراديب بالجب - وللبعض منها درج للوصول - في جيجْلي Djidjeli، ونجهل لأي تاريخ ترجع لأن أثاثها اختفى. أما في كولو Collo فقد عوض عن البئر بممر مائل عارٍ للفضاء، وهو وضع يفسر بالانحدار البالغ للجبل الذي في جنباته جعل المدفن. وإذا كان هناك قاعتان فالثانية منهما تأتي بعد الأولى. ونعثر في جيجْلي وفيليبْفيل Philippeville على قاعات للدفن في جانب صخرة عمودية، غير مسبوقة لا بممر ولا بجُبّ. فكما سبق لي ذكره ربما هي تقليد للغرفات الصغيرة الإفريقية للحوانيت Haouanet. وللكهوف شكل رباعي مستطيل تماما أو تقريبا، غالبا ما تكون بها - كما في قرطاجة - مصطبات مليئة أو محفورة بأحواض، كما بها كوى محفورة بالجوانب. والعادة أن يكون بكل قاعة عدد من الموتى.

وهناك مثال فينيقي آخر للدفن، هو الحفير Fosse المحفور في الصخر ليدفن فيه ميّت واحد. ففي عدة أمكنة بالساحل جرى حفر هذا النوع حتى في صميم العهد المسيحي. شكله رباعي مستطيل أو مستدير من جهة الرأس، وأحيانا كما في جيجْلي يتخذ شكل البدن الإنساني ويذكّر بالنواويس الفينيقية المعروفة بأنها شبيهة بالإنسان Anthropoïdes.

إن الطقوس الجنائزية على الخصوص هي التي تشهد بالتأثيرات الأهلية. فبعض الكهوف تضم أبدانا ممتدة على طولها بكامله حسب

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
العادة الفينيقية، إذ لا يمكن وضعها على غير ذلك في الحفائر، ولكن في إحدى قاعات گورايا ثُنِيَتْ سيقان أحد الموتى. وكثيرا جدا ما وضعت عظام مختلطة ومبعثرة، وليس بها أثر للنار، فهي غالبا بقايا غير كاملة من عدة أفراد. وقد قلت الأسباب التي تجعلنا نقبل كون الموتى قبل إدخالهم قبورهم كانوا يجردون من لحومهم وجلودهم. وكثيرا ما تكون العظام التي جُمعت بطريقة واحدة تشهد بطبخ غير شديد، وهي طريقة أخذت لاشك عن القرطاجيين للإسراع بالتجريد من اللحوم. وتكون أحيانا هذه العظام مخزونة في صناديق حجرية صغيرة، شبيهة بالتي لقرطاجة، أو هي مخزونة في صناديق من الرصاص، ويعثر عليها بالساحل الشرقي للقطر التونسي.

أما الأثاث فبونيقي، مع بعض الأدوات المستجلبة مما وراء البحر، خصوصا من إيطاليا الجنوبية، ولكن يختلط الكل هنا وهناك بخزف ثخين جدا، من صنع أهلي لاشك.

وفي الداخل توجد مدافن تتضح عليها التأثيرات الفينيقية، في عدة أمكنة بالمملكة النوميدية، إما بالمناطق التي كانت قسما من الأراضي القرطاجية واستولى عليها مسِينيسّا Massinissa، وإما أبعد منها إلى الغرب، حيث السيطرة البونيقية لم تمتد إليها أبدا. وقد بدأت هذه التأثيرات قبل سقوط قرطاجة، واستمرت بعدها.

في فاگا (باجة) وقع التنقيب في جَبّانة ترجع قبورها للقرن الثاني، منها ما هو سابق على سيطرة مسِينيسّا للمدينة (أي 150ق.م) ومنها ما هو متأخر عنها. في هذه الجَبانة جِباب Puits رباعية مستطيلة قليلة العمق، تتقدم كهوفا مربعة الشكل تسد فتحتها أكداس من الحجارة. وبها الموتى (واحد، وفي الأقل اثنان أو ثلاثة) كما في قرطاجة متمددون

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

على الظهر وأرجلهم تتجه نحو المدخل، كما بها بقايا محترقة مخزونة في جرات من طين أو في صناديق صغيرة من حجر. ويتكون الأثاث من أدوات بونيقية أو مسيحية.

وفي طبُرْسُقْ Teboursouk ناووُس hypogée محفور في تربة القفة الهشة tuf وعلى مسطح نصف دائري، وبدون شك كان يسبقه جب. وقد جرت تقوية المدخل بإطار من الحجر الضخم، وبعمود للتدعيم في وسط القاعة. وهذا القبر الذي يمكن التأريخ له تقريبا من 60-50 ق.م كان يضم جسدين دُفِنا على الوضع المثني، كما يضم خليطا من الفخاريات البونيقية والأهلية. وعلى يمين فتحة الدخول نصبت مسلّة Stèle صغيرة تمثل شخصا يُصلي، وهي شبيهة بالمئات التي استخرجت من المدافن القرطاجية.

في بولاريجْيا Bulla Regia وفي سيكا Sicca عثر على رُموس من القرن الثاني والقرن الأول، وبها نفس الخليط من الفخاريات البونيقية أو المستجلبة وكذلك من الفخاريات الأهلية. وأحد هذه الرموس في بولا ريجْيا، كان كهفا من الطراز الفينيقي، وكان تحت الأرض، ولكن لضمان متانته فقد كسي بالجدران كل من الجباب والقاعة. في هذا الموقع فإن بقايا الموتى المحبوسة في قبور ذات مظهر بونيقي، تبدو عادة وكأنها قد أحرقت، وقد كانت توضع على الأرض، أو تجعل في جرات من الطين المشوي، بصناديق صغيرة من الحجارة.

أما قالمة Guelma فبها كهوف بأجباب محفورة في الصخر، ولا يمكن التأريخ لها، لأنها كانت فارغة من أي أثاث، وحتى لو كانت ترجع للعهد الروماني، فهي بدون شك تبرهن على التأثيرات الفينقية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
إن كثرة الكتابات البونيقية التي جمعت في سِرتا Cirta توضح مدى انتشــار حضارة قرطاجة في عاصمة سيفَكْس Syphax ومسِنيسّا Masinissa وحلفائهما. فيحسن إذن الاعتقاد بأن العادات الجنائزية القرطاجية قد جرى هناك العمل بها عن سعة. ومع ذلك فلم تعرف في قسنطينة قاعات من الطراز الفينيقي حفرت في الصخر، إما لأنها تهدمت منذ أمد بعيد، وإما لأنها لم يقع العثور عليها بعد. ولا شيء يشهد على أن الكهوف المجردة عن الأجباب بالمنصورة (بالجنوب الشرقي للمدينة) ترجع لما قبل القرون المسيحية الأولى. ولكن بالنظر للأثاث الذي تشتمل عليه، يمكن أن نرجع للعهد الملكي رسوما أكثر تواضعا ليست من الطراز الأهلي. أما الحفائر التي في الصخر وبها موتى متمددون، والثقب التي حفرت في الصخر كذلك لتوضع بها جرار المحروقات، وناووس الرصاص الذي يضم مصباحا إغريقيا من القرن الثاني أو الأول. (هذه الصناديق الرصاصية المنعدمة في قرطاجة توجد في مواقع أخرى بالقبور الفينيقية). ولنفس العهد يمكن كذلك إرجاع الصناديق الحجرية الصغيرة التي هي أوعية عظام محترقة، وأمفورة يصحبها مصباح إغريقي كانت تابوتا لأحد الأطفال، وتلك كانت طريقة معتادة في الدفن بقرطاجة في القرن الثاني.

لقد سبق أن ذكرتُ أن الرسوم المحفورة بالصخر، الموجودة بكثرة في نوميديا وبموريطانيا، والتي تؤرخ على العموم بعهد السيطرة الرومانية هي على أشد الاحتمالات عُرف فينيقي. ومثل ذلك لاشك هذه الصناديق النصف أسطوانية المعروفة عند اللاتانيين باسم كوبولاي Cupulae التي تعلو الآلاف من القبور الراجعة للعهد الإمبراطوري. فيمكننا إذن أن نتتبع بزمن طويل في العهد المسيحي التأثيرات

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

البونيقية التي بدأت في عهد الملوك النوميديين تغير العادات الجنائزية عند الأهالي.

2

يبدو أن الأضرحة الضخمة Mausolées يرجع أصلها للهرم المصري، الذي هو أحد الأشكال المنتظمة التي اتخذتها كُوَمُ الأحجار المغطية للميت. وفي مصر نفسها قد بنيت على مكعب dé، ثم جرى إعلاء المكعب إلى حد أن اتخذ مظهر بناية حقيقية لم يعد الهرم سوى قمة لها. هذا التشكيل سبق أن اتخذ في آسيا، ولا ندري هل استعاره الفينيقيون من مصر مباشرة، أو كانوا في هذا المجال كما في الكثير غيره مدينين للفن الإغريقي الذي أقام أضرحة ضخمة منذ القرن الرابع. ولا نستطيع إثبات أن القرطاجيين أقاموها في مدينتهم. غير أن المتأكد هو أن الفن البونيقي أقام منها لبعض الأهالي، الذين أحبوا أن يتخلوا عن المدافن الثخينة التي لسلالتهم، فلا يخفون في باطن الأرض «مأواهم الأبدي».

إن مدفن دُقَّة Dougga الشهير الذي يقع على نحو 300 متر بجنوب موقع المدينة النوميدية. وهذا الأثر بقي طابقه الثاني قائما حتى حوالي منتصف القرن التاسع عشر وقد انهار. ولكن رسوما أخذت له في عهد سابق وكذلك الدراسة الدقيقة للحطام المكدس حول الخربة، كل ذلك قد مكن من إعادته تماما للوجود منذ بضع سنين.

يقوم طابقه الأسفل على خمس درجات تقع على قاعدة مربعة، تزدان أركانها الأربعة بعمادات جانبية تنتهي في أعلاها بدائرتين حلزونيتين كرأس العصا، (واحدة على كل وجه). وذلك هو ما يسمى بالعمود ذي التاج الأيولي Eolique. وبالقسم الأعلى من هذا الطابق، على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
كل واحد من الجوانب الأربعة، توجد نافذة صورية صغيرة قد أغلقت ببلاطة مثبتة في الشقوق Feuillures.

ويعلو الطابق الثاني أيضا على ثلاث درجات، كل وجه يزينه عمودان مندمجان Engagés، وبكل زاوية عمود آخر، بحيث يصبح العدد اثني عشر عمودا. أما جذوع الأعمدة، فهي مخددة وتحمل تيجانا من الطراز الأيوني ordre ionique الذي تنعطف فيه القناة الرابطة بين الدائرتين إلى الأسفل. وبهذا الطابق يبدو بالوجهين الشمالي والشرقي باب صغير، مغلق بنفس الطريقة التي أغلقت بها نوافذ الطابق الأسفل. وبالقمة يمتد إفريز له شكل العنق المصرية Gorge égyptienne.

من فوقه تأتي ثلاث درجات، بزواياها قواعد تحمل تماثيل فرسان مبتورة كجميع ما عداها من تماثيل الضريح. وعلى هذه الدرجات يقوم الطابق الثالث. وهو شديد الضيق، ومزخرف بنحوت نافرة Bas-reliefs بادية على القسم الأسفل من وجوهه، وتمثل دبابات تجرها أربعة خيول يمتطيها شخصان، وبالزوايا أعمدة بتيجان أيولية Eolique وفي الأعلى عنق مصرية.

أما القمة العليا للضريح – ويبلغ علوه إلى 21 مترا – فتتكون من هرم بجوانب غير مزخرفة، وتقوم عليه أربعة تماثيل لنساء لهن جوانح، باليد اليسرى لكل واحدة منهن كرة، وجعل من فوق الكل أسد جاثم عثر عليه بأسفل الحطامة. وكان العديد من شعوب العهود القديمة يفضلون جعل قبورهم في حراسة هذا الحيوان.

البناء أقيم من حجر مقصوب Pierre de taille حسن، أتقن توضيعه. وهو يكون مجموعتين متعاقبتين من القواعد الأساسية، بعضها أقل علوا

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

من البعض والأقسام المزخرفة كالأعمدة والعمادات والنواتئ قد جود فيها العمل عن سعة ورصانة. والتماثيل على النقيض من ذلك، فهي رديئة الصنع ثقيلة، ولها مظهر قديم. أما التناسبات في البناية كلها فلا يبدو أنها موفقة، لأن الطابق الثالث الذي يعلوه الهرم هو عال جدا وهزيل جدا بالمقارنة مع الطابقين الآخرين. فهناك تناقض مزعج.

كان من المنتظر العثور على كهف الدفن تحت البناية، مثلما عثر عليه في ضريح الخْروب khroub الذي سنتحدث عنه فيما بعد، ولكن التنقيبات التي أجريت في الأسافل حتى التربة الطبيعية، مكنت من «ملاحظة أنه لم تكن توجد – على الأقل في نطاق الضريح – أية قاعة تحت الأرض». إذن فإذا كنا لا نريد أن نفترض وجود كهف بجانب الضريح لاتحته، فلابد من قبول أن القاعات الجنائزية كانت في الطابق الأول، ولربما حتى في الثاني. وهو افتراض لا يقبله مطلقا المظهر الداخلي لهذين الطابقين. أما الزخارف الجدارية فهي خشنة، والمجال الفاصل تقطعه فواصل من حجارة تتكون منها حجيرات قليلة الانتظام، وتتراكب في مجموعتين بكل طابق. فلم يكن هناك على ما يبدو سوى فراغات إخلاء لتخفيف الضريح.

وعُثر في الحطامة على حَجَرين لهما نفس العلو، يحمل أحدهما النص الليبي والآخر النص البونيقي لإهداء بناية جنائزية. وإليك ترجمة هذا الإهداء(86) : «ضريح أتبِان Ateban ابن يبْمتَاثْ Iepmatath، بن پَلُو Palou، بُناة الأحجار: أباريش Abarish، بن عَبْد عَشْتَارْت Abdashtart، زومار Zoumar ابن أتِبانْ، بن يبْمَتاثْ بن پَلُو، ومَنْگي Mangai بن فَرْسَكان Varsacan. ومساعدوهم (؟) : زيزاي Zizaï، وتَمانْ Taman وفَرْسَكان، والعاملون في الخشب : مَسْدَال Masdal بن نَنْفَسان Nanfasan،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
وأَنْكانْ Anakan بن أَشايْ Ashaï. ومذوبو الحديد : شَفوتْ Shafot بن بِلَلْ Bilel وبِفايْ Paphaï بن باباي Babaï». ويمكن التعجب من كون اسم الميت وأبيه وجده لم يشفع بأي وصف، فلابد أنها أسماء لشخصيات بارزة في مدينة ثوكا Tugga.

هذان الحجران كان القنصل الإنكليزي «ريدْ» Read قد اقتلعهما في سنة 1842، ولا يزالان حتى اليوم في المتحف البريطاني. والذين شاهدوهما من قبل أعطوا عن الموقع الذي كانا به معلومات متناقضة. ولكن من شهاداتهم يحق الاستنتاج بأنهما كانا مثبتين الواحد بجانب الآخر بأحد الجدران الفاصلة بناحيته السفلى، لأن نزع «ريدْ» للحجرين هو الذي كان سببا على ما قيل في انهيار الطابق الثاني. وعلى كل فالكتابة المزدوجة لابد أنها وضعت حيث تبقى غير مقروءة. والمرمِّم لم يستطع أن يجد لها مكانا، لا بالطابق الأول ولا الثاني. وقال : «لا يبدو مطلقا أن بالإمكان جعلها في غير واحدة من القواعد الأساسية الكبرى (في الثالثة أو الخامسة) من الطابق الأخير»، أي في مكان عال جدا، بحيث لا يمكن قراءتها من أسفل البناية. ومن جهة أخرى، حسب تأويل لا يمكن اعتراضه، فإن الكتابة تذكر بعد بُناة الأحجار، (عمّالاً في الخشب ومُذَوّبي الحديد). لكننا لا نرى ما يبرر الشرف المخول لهؤلاء الصناع، إذ الخشب ماكان ليستعمل إلا في تلبيسات داخلية، في الفراغات المهيأة في الطابقين الأول والثاني. أما الحديد فلا يعثر عليه إلا على شكل لسَيْنات tenons كأنها ذيل طائر تضمن تناسق الكتل. وكل هذا فيه شكوك مزعجة جدا. ومع ذلك فيصعب إنكار أن هذا الإهداء ينتمي للضريح الذي أسنده إليه بصفة قطعية جميع الذين شاهدوه في دُقّة Dougga.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
بالنظر لشكل الحروف، فالكتابة قد تكون معاصرة للكتابة الأخرى الليبية البونيقية التي بنفس الموقع، وهي الإهداء الذي بهيكل Temple مسِنيسّا، إنها تؤرخ بسنة 139ق.م. ولقد أراد البعض أن يعود بالضريح لزمَان أقدم، استنادا إلى شكل التيجان الأيونية Ioniques التي بالطابق الثاني. إذ في بلاد الإغريق يمكن التأريخ لها بالقرن الخامس. غير أن تيجانا شبيهة بها، ولها نفس التقويس في القناة الرابطة بين الدائرتين، قد صنعت في قرطاجة حتى الأيام الأخيرة للمدينة العظيمة، أي حتى أواسط القرن الثاني.

ولكن ضريح دُقّة Dougga هو بناية من الفن البونيقي، بحيث نجد فيه الخليط من الوسمات الزخرفية Motifs الشرقية كالعنق المصرية والوسمات الإغريقية العتيقة كالتيجان الأيونية والأيولية التي تميز هذا الفن. أما المهندس فقد سبق أن قلنا إنه على ما يظهر أباريش Abarish بن عَبْد أشْتارت Abdashtant الذي هو أول من ذُكر اسمه بين «بُناة الأحجار»، والذي هو لابد قرطاجي. والفن البونيقي في التماثيل كما في الهندسة أوضح أنه فن محافظ روتيني. والطراز العتيق في التماثيل وفي النحت النافر Bas-relief الذي يزخرف أعلى الضريح لا يتنافى إذن لا هو ولا شكل التيجان مع تاريخ حديث نسبيا، أي حول 150 ق.م.

ولاشك أنه يحسن كذلك أن نعزو للمهندس البونيقي الأضرحة[87] الشبيهة، التي أقسامها السفلى لاتزال موجودة بتونس، أو التي عثر على حطام منها - خصوصا التيجان الأيولية لبعض العمادات - هنا وهناك في نوميديا القديمة[88]. فعلى غرار ضريح دُقّة، أضرحة إفريقية من العهد الروماني يمكن أن نفترض أنها كان يعلوها هرم شاهد على أصلها المصري البعيد. لكن في غير هذا المكان، فإن هذا الأصل قد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
تُنوسِيَ إلى حد أن الجبهات Frontons أو الحنايا نصف الأسطوانية قد حلت محل القمة الهرمية. ونجد من ذلك مثلا في البناية المعروفة باسم «الصُّمْعة» (الصومعة) في الخْروب.

والبناء كان مقاما على جبل صخري، على 14 كيلومترا من قسنطينة، أي سيرتا Cirta القديمة التي كان يرى منها. وإلى بداية القرن العشرين كانت قاعدته Socle باقية، وكذلك الطابق الذي يعلو هذه القاعدة، ومن حولها بالأرض، كان حطام الأقسام العليا التي انهارت ربما بسبب زلزال أرضي. وفي سنة 1915-1916 قامت مصلحة الآثار التاريخية بالجزائر بالتحطيم الكلي لهذه الأطلال، وأثناء العمل عثر على الكهف الجنائزي. ولقد شرع في التجديد وإعادة القطع إلى محالها، لكن توقف ذلك عند المستوى السفلي للطابق.

والبناء متقن كما هو في ضريح دُقّة، فالحجارة الضخمة مسواة بطريقة محكمة، وبعض الأحجار يتجاوز المِتْرَيْن طولاً بنتوؤات زخرفية ثابتة ودقيقة.

فهناك أُسٌّ Soubassement مربع يحمل درجتين تعتمدهما قاعدة Socle سفلية، يقوم من فوقها أربع كتل Massifs، على الجوانب لمربع يبلغ كل جانب منها خمسة أمتار و55 سنتمترا، وهي مزخرفة على كل واحد من وجهيها الخارجيين بِترْس مستديرة بارزة. ولم يكن ذلك عضادات Pieds-droits لأربعة أقواس لأننا لا نجد أي فقرة في الحطام، ولكنها كانت تأطر أربعة ألواح Panneaux كبيرة، هي أبواب بقي منها بعض الكُسارات. ولاشك أن المجال الذي تحدد هكذا إنما كان فراغا للتخفيف.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

إن التخمين وحده به يستعاد أعلى الضريح. ففوق الطابق ذي التروس، أعمدة عددها ثمانية أو اثنا عشر، بجذوع ملساء وتيجان دورية Doriques لابد أنها كانت بجانب شيء كأنه غرفة Loggia ربما كان بها تمثال من البرونز، ويعلوها سقف به تجويفات Caissons. وهناك قطع من إفريز زاحف كانت جزءا من الجبهات Frontons. وفي القمة صنع مسطح كان يحمل إما مجموعة منحوتات أو زخرفا تجميليا كبيرا. ولا شك لم يكن هناك هَرَمٌ.

أما الكهف الجنائزي فقد تم إنجازه في التربة الطبيعية. ودفن فيه ساكنه قبل بناء الضريح الذي يغطيه، بحيث لا يمكن من أي اتصال مع الخارج. والكهف عبارة عن مستودع طوله متران، وعرضه متر واحد، وعلوه تسعون سنتمترا (0.90)، جنباته من الحجر الضخم، والأرضية تغطيها جزئيا بلاطة قد وضعت عليها جفنة واسعة من الفضة، بها رماد الميت وعظامه المحروقة. وقد أحيط الميت بأثاث كثير، هو : خوذة، وزَرَد Cotte de maille وسيف وأسلحة أخرى، وأوان من فضة. والقسم غير المغطى بالبلاطة نصبت به سبع جِرار Amphores بإحداها عظام محروقة لاشك أنها بقايا الضحايا، بينما الجِرار الأخرى فهي فارغة، وكانت تحتوي ربما على مادة سائلة.

وكان الكهف مغلقا من أعلاه عند الصخرة الأولى المكونة للقاعدة الأساسية بصف من البلاطات التي في ملتقياتها جعلت أسِنّة القنا والرماح. ومن فوق السقف قد بني للتخفيف عليه عقد بالحجارة يغطيه محور القاعدة. وبين العقد والبلاطات جرتان أغرقتا في التراب المكدس الذي كان يملأ هذا المجال المقوس. ويبدو أنهما كانتا تحتويان على رماد.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
بالأثاث الجنائزي، وعلى الخصوص منه الجرار التي يبين على إحداها ختم رودِسي لازال منه جانب مقروء، يمكن أن نؤرخ بالتقريب لهذا الضريح الجميل الذي يكون قد بُني حول موسطة القرن الثاني ق.م. فقد أقيم أمام سيرتا Cirta، ووضعت به على ما يحتمل جثة شخصية كبيرة من هذه المدينة. ويمكننا أن نتذكر أن مسِنيسّا مات في 148 بسِرْتا عاصمته. فهل الجفنة الفضية التي عثر عليها في الصومعة كانت تضم رماد هذا الملك الكبير؟

يتضح من جهاز الميت وكذلك من عادة الإحراق تأثيرات أجنبية قوية، ومن هندسة الضريح كذلك. إلا أن الفن البونيقي، هذا الفن الإغريقي – المشرقي الذي يرتديه ضريح دُقّة، لم يتدخل هنا. إن الزخارف إغريقية لا غير، وتيجان الأعمدة دورية doriques (ونحن نعلم أن القرطاجيين لم يستعملوا هذه التيجان مطلقا) وكذلك الجبهات Frontons (التي تأخرت جدا قرطاجة في استعارتها من الفن الإغريقي)، ونواتئ التزيين في رأس العمود والإفريزات وغير ذلك. أما الغرفة Loggia التي تحدها الأعمدة فهي نسق لعله اتخذ في ضريح هَلِيكَرْناس Halicarnasse الشهير الذي بُني في أواسط القرن الرابع. ونفس النسق يوجد في بنايات جنائزية أخرى من الفن الإغريقي كضريح ميلاسا Mylasa بكاريا Carie وضريح الجوليين des Jules بسان ريمي في بروفَنْصا (Le Tombeau des Jules à St Rémy, en Provence).

غير أن مهندس الصومعة (la çoumâ) لم يلتزم بالسير الدقيق حسب القواعد الكلاسيكية، بحيث إن أعمدته الدورية ليست مخددة cannelées، بل ويبدو أن ما تحمله لم يكن رتبا Entablement دوريا. ولابد أن نضيف أن تيجان الأعمدة هي من طراز يبدو موافقا للقرن الخامس لا للقرن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الثاني. فيحق لنا أن نعجب من هذه المخالفة للتاريخ من لدن أحد الفنانين الإغريق. ولعل هذا المهندس إذن هو قرطاجي، وأنه خضع، أكثر من مهندس ضريح دُقّة، للتأثيرات الهلينية. ولكنه على غرار زملائه الأفارقة قد يكون التزم بإنتاج طرازات قديمة. ومع ذلك فيجوز افتراض أنه حقيقة إغريقي، أصله من صقلية، المنطقة التي يسود فيها الطراز الدوري. إن الفن الإغريقي لم يتطور بشكل موحد، فبعض مدارسه، خصوصا عند أقاصي المجال الهيليني الشاسع، قد بقيت متمسكة بالزخرف وبالأشكال التي تم التخلي عنها في مواقع أخرى. وهذا الفن – حتى في المجال الذي كانت له فيه السيادة – قد قبل بعض المخالفات في قواعده، وقبل بعض الأنساق الهجينة. وهكذا فإن ضريحا شبيها بضريح الصومعة çoumâ، أي المعروف بضريح ثيرون Théron في أگْريجَنْتي Agrigente يقدم خليطا من النسقين الأيوني والدوري.

3

ليس ضريح دُقّة وضريح الْخروب بنايتين أهليتين، فالواحد منهما بونيقي والآخر إغريقي. ويبقى علينا أن ندرس أثرين مهمين جدا، هما المدْغاسِن Médracen وقبر النصرانية Tombeau de la Chrétienne إذ لهما طابع مختلط، ويشبهان – ولكن بحجم أكبر – هذه الآلاف من التلات الجنائزية التي يغص بها شمال إفريقيا. فباستثناء الفواصل بالممرات وفي السراديب التي أنجزت بالداخل فالضريحان قد بنيا بنفس الطريقة، أي بقطع من الدبش الثخين ومواد على خشونتها تقريبا مكدسة بغير انتظام. لكن هذه الكتلة مغطاة بغلاف من الحجارة المقصوبة الكبيرة الجميلة التي تم توضيعها بطريقة Pierre de taille

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
حسنة وتجمع بينها جوامع من الرصاص. فالغلاف يلوح للعين في مظهر متناسق لأسطوانة يعلوها مخروط ذو دَرَج، يزينه زخرف من الهندسة الإغريقية المشرقية أو الإغريقية. وهذان الضريحان بنايتان أهليتان يغطيهما رداء من أصل أجنبي.

يقع المدْغاسِن على بعد قليل من باطْنة، بالشمال الغربي للأَوْراس، على ظهر أرض تساعد على رؤيته من بعيد. وهو يقوم بموسطة إحدى الجبانات المحاطة بسياج. ففي التلات الجنائزية التي هي إفريقية محضة والتي تحيط به، قد دفن لاشك أشخاص تربطهم بساكني الضريح روابط القرابة العائلية أو التبعية. أما «قبر النصرانية» فهو يقوم في عزلة موحشة، ويكون بروزا واضحا جدا على ذروة ضيقة تشرف بغرب مدينة الجزائر على البحر من جهة، وعلى سهل «المتيجَة» Mitidja من جهة أخرى.

ولا مجال للشك في أنها مدافن لملوك عظام. فبومْبُنْيُوس مِيلاَ Pomponius Méla الذي كتب حول وسط القرن الميلادي الأول، وصف هذا القبر بأنه (Monumentum commune regiae gentis) أي (البناية المشتركة للعائلة الملكية). وهذا الضريح كما سنرى هو نسخة من المدْغاسِن، الذي يجاور بحيرة كانت في العصور العتيقة تحمل اسم البحيرة الملكية (Lacus Régius) واسم مَدْراسن - ويحسن كتابته مدْغاسن - استعمل منذ زمن طويل، وهو جمع لـمَدْغيسْ. فمَدْغِس أو مَدْغيس يبدو لنا في سلسلات نَسَب أسطوري، وكأنه جد لواحدة من المجموعتين الكبيرتين اللتين يتوزع البربر بينهما، وهي التي يكون أهل الأوراس جزءا منها. إذن فمدغاسن معناها المنحدرون من مدغيس، أي الأمراء الذين نالوا من جدّهم الوهمي Mythique ميراث السلطة المطلقة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

على البلاد. إنها رواية عارية عن القيمة التاريخية، ولكن نستطيع أن نرى فيها ذكرى غامضة لأمر حقيقي، وهو أن أحد الملوك قد أقام هذا الضريح الضخم لنفسه ولذويه.

للمدغاسن مقياس يبلغ قطره 59 مترا تقريبا. والأسطوانة منخفضة نسبيا لا تتعدى أربعة أمتار ونصف المتر (4.50)، وهي محلاة بستين عمودا مندمجا engagées، من الطرار الدوري، جذوعها غير مخددة، تحمل عارضة ملساء وإفريزا يبدي شكل عنق مصرية. وبالمخروط الأعلى أربع وعشرون درجة واسعة وعالية. والعلو الكلي يفوت بقليل 18 مترا. ويمتد في الذروة سطح عريض، ربما كان قاعدة لعمل هندسي ما، أو لتمثال. هذا إذا لم يكن قد اتخذ مجالا للقيام ببعض الشعائر الدينية.

داخلُ الضريح وقع استكشافه في القرن الأخير، ويوجد المدخل بجهة الشرق عند أسفل المخروط. وهذا المدخل فتحة صغيرة، تخفيها تماما أحجار الدرجتين الثالثة والرابعة. وكانت مكونة من بلاطة تنزلق على طول حَزّيْن للانزلاق. وحين تزاح هذه المترسة، يدخل المرأ في ممر طويل ضيق، بناؤه بالحجر المقصوب قرب بابه، وفي البعيد بأحجار جافة صغيرة تغطيها بلاطات. ثم ينزل في الممر أولاً بسلّم أدراج ثم بمنحدر، فَيَصِل لقاعة عمقها يكون وسط المبنى. هذه القاعة ضيقة جدا، طولها ثلاثة أمتار وثلاثون سنتمترا (3.30) وعرضها متر ونصف (1.50) جدرانها الجانبية بالحجر المقصوب وسقفها ببلاطات. وتمتد على الجانبين الطويلين مصطبة عرضها عشرون سنتمترا (0.20) وعلوّها ثلاثون سنتمترا أيضا (0.30). وعلى أرضية الممر والقاعة والمصطبتين أثر من طلاء أحمر، لون الجنازة.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
هذه القاعة عبارة عن الخانة الوسطى التي تأوي في المدافن الأهلية واحدا أو عديدا من الموتى. ولا داعي، حسب رأينا للبحث عن كهف في غير هذا المكان، لأن ضيق المصطبتين يمنع من الاعتقاد بوضع الجثث. فأبدان الموتى - مثل الميت المدفون في تلة مجاورة - كانت قد أحرقت لاشك، وجعلت بقاياهم في أوعية من الطين المشْوي بل ربما في أوعية معدنية. ولكن هذه الجرار والأثاث الذي لابد أنه كان معها لم يعثر فيها على شيء مطلقا، لأن علماء الآثار سبقهم السارقون.

ولا يقدم التشكيل الداخلي للمدْغاسِن تجديدا كبيرا. فمن تحت تلاّت تحتوي أحد الدلمينات، وقعنا على هذا الممر الذي به يمكن الوصول للقاعة. وهذا التهيئ كان ضروريا في ضريح هيأه من قبل لاشك الأمير الذي سيدفن فيه. وهو مخصص لاشك ليستقبل كذلك أعضاء أسرته من بعده. وكذلك فإن الممر والمدخل يتجهان دائما للشرق، للوجهة التي سبق أن رأيناها. والمدخل خفي وكذلك الأمر في التلات التي لها ممر. ولم يكن ذلك حبا في بقائه مجهولا. فهو في المدغاسن كما في غيره وقع توجيه المدخل بدقة، بحيث يسهل العثور عليه حتى على من لا يعرفون بوضوح المستوى الذي أنجز فيه. وهو هنا في تلة هي عبارة عن كدس من أحجار تغطى الموتى، فلا يحسن أن ينفتح على الخارج كمساكن الأحياء.

ونلاحظ مع ذلك أحد التغييرات بين المدغاسن وبين التلات العادية. فالممر في هذه التلات كان مملوءا كلية وكان لابد من إفراغه عند كل عملية للدفن.أما في المدغاسن فعلى العكس من ذلك، كما يشهد بذلك الإغلاق بالمترسة، قد ترك الممر فارغا. وحيث إن ذلك لم يكن على ما يبدو لمنع المشاق عن تنظيفه بين فترات طويلة عند دفن ميت جديد

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

بالكهف، فيجوز لنا افتراض أن المدخل كان يعاد فتحه كثيرا بمناسبة حفلات كانت تقام تكريما للموتى، الأمر الذي إنما يستدعي تحويل بعض الأحجار. وبالخارج قبل المدخل تشاهد أطلال لبناية متسعة ذات شكل رباعي ببلاطات مغطاة بطبقة حمراء. فلربما كان هناك معبد، أو على الأقل مجال مقدس شبيه إلى حدٍّ ما بالهيكل الذي كان يقام شرقي كل هَرَم ملكي بمصر. فهي علامة على عبادة حقيقية للدفين. ونحن، ألا نعلم من شهادات لبعض الكتاب وبعض الكتابات المنقوشة أن الملوك الأهالي كانوا يُعبدون بعد موتهم ؟

أما قبر النصرانية Tombeau de la Chrétienne فإنه لم يُحفظ خارجه بصفة جيدة كما حفظ المدْغاسِن : فالمنقبون على الكنوز الذين استخدموا في عملهم حتى المدفع، وأهل جوار الضريح وهم أكثر تواضعا، اكتفوا بتجريد الكتل الصخرية من جوامع الرصاص التي تجمعها والاستيلاء على تلك الجوامع، وأحدثوا تشويهات سيئة بالضريح الملكي العتيق، الذي وقع ترميم وتجديد قسم من جانبه الشرقي على يد مصلحة الآثار التاريخية.

إن الأسطوانة – وقطرها 64 مترا– تقوم على مسطح مربع، وهي أشد علوا من أسطوانة المدغاسن، وكذلك المخروط ذو الدرج. ويبلغ اليوم العلو الكلي 33 مترا، ولربما أن البناية كانت تصل إلى 40 مترا. ونجد هنا أيضا ستّين عمودا مندمجا engagées، غير مخددcannellées تحيط بالبناية للتزيين، وللأعمدة قواعد من أسفل وتيجان chapiteaux من الطراز الأيوني Ionique، أما القناة الرابطة بين الدائرتين Volutes فتنعطف للأسفل، وتحيط بقسمها الأدنى طوق من الزخارف بشكل وردات Rosaces وتحمل برزة entablement كمجرد عصابة من فوقها

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
إفريز. وفي كل واحدة من نقط الجهات الأربع يقوم باب وهمي بشكل مربع منحرف، بُروزاتُه Moulures الناتئة وُضعت وكأنها صليب كبير في إطار، من هنا جاء اسم «قبر الرومية» أو قبر النصرانية الذي عرف به الضريح. وعلى المربع المنحرف إفريز به وسمات Motifs إغريقية : من صفوف زخارف بيضية الشكل، ولآلئ، ومسننات.

وأمام الباب الوهمي الشرقي كان على ما يحتمل بناء شبيه بالذي لا تزال بقاياه بالمدغاسن، كما أنه يشبه المسطحات التي تسبق بعض المدافن التي هي أحدث عهدا – ترجع لما بين القرن الرابع والسابع – أقامها بعض الأمراء الأهالي وتشبه الضريحين (المدغاسن وقبر النصرانية)[89]. غير أننا هنا لا نرى إلا الحطام البئيس للبلاطات التي ترجع لعدة حقب.

والمدخل عبارة عن فتحة ضيقة وغير عالية، تقع في القاعدة Soubassement، تماما فوق هذا الباب الوهمي الشرقي وكما في المدغاسن كانت لا تُرى، وكانت مغلقة بحجرين مقصوبين متراكبين ويصطفان مع الأحجار المجاورة على اليمين واليسار. ومن الخلف فإن ممرا صغيرا ومنخفضا يؤدي إلى قاعة واسعة، فهي بهوة، على جداره الأيمن، قد نقشت نقشا خشنا صورة أسد ولبوة متواجهين من فوق ممر جديد منخفض كالسابق. وكان هذان الحيوانان يحميان مدخل الممر الذي به يتجه نحو الموتى. والممر الثاني قصير جدا يفضي إلى رواق galerie عريض يصعد إليه بدرجات، ويتحرك فيه المرء بحرية تامة، إذ يبلغ مترا واحدا وستين سنتمترا (1.60) ومترين اثنين عرضا (2.00) وعلوه متران ونصف (2.50)، وكانت إنارته ممكنة بمصابيح توضع في كُوَى صغيرة سوّدها الدخان. هذا الرواق طويل يصل تقريبا لمائة

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وخمسين مترا (150)، ويكاد يحيط بالبناية كلها. لكن حينما يصل لمحاذاة نقطة الانطلاق، فإنه ينعطف فجأة وبقوة ويتجه للوسط، وينتهي عند ممر ثالث منخفض. من بعد ذلك يدخل إلى كهف caveau غير كبير، قطره ينزل عموديا على الممر، فهو لا يمكن أن يكون إلا بهوا. وينبعث منه ممر آخر منخفض لينتهي إلى قاعة هي بالتدقيق في وسط الضريح، مقياسها أربعة (4) أمتار على ثلاثة (3)، جعلت بجدرانها كوى على اليمين واليسار وفي العمق.

إن الممرات والرواق والكهوف قد حفظت جميعا حفظا حسنا، وكذلك السناد الخارجي Revêtement فكلها بالحجر المقصوب الحسن، والممرات لها سقوف بالبلاطات، والرواق والقاعات لها تقويس بأحجار منجورة. وكانت الممرات مسدودة بمتارس Herses شبيهة بالتي نجدها في الأهرام المصرية التي هي أشد قدما. هذه المتاريس تمسكها حزوز من أعلى ومن الجوانب، ويمكن جذبها برافعة إلى الأعلى وإخفاؤها في الحَزّ العلوي.

في سنة 1866، عندما قام كل من بيرْبروجير Berbrugger وماكْ كَرْثي Mac-Carthy بالتنقيب استجابة لأمر نابليون الثالث ووصلا لداخل الضريح، وجدا جميع المتاريس مكسورة والقاعة الوسطى فارغة، أي إن قبر النصرانية كان على غرار المدغاسن قد أخلي من محتواه. إذ ليس من الراجح أن الكهف الجنائزي يبقى مختفيا في مكان لا يزال مجهولاً، ويراد اكتشافه طبعا. ذلك أن هذه القاعة الوسطى التي يوصل لها بممر يحرسه الأسدان اللذان يسهران على الموتى، والتي ينتهي إليها الرواق الكبير، والتي يتقدمها مباشرة بهو وممران اثنان مزودان بالمتاريس، هي تشبه كما في كهف المدغاسن الخانة التي أنجزت في وسط

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
التلـة tumulus. وقد كانت مهيأة لاقتبال، لا ميت واحد، بل لاقتبال الذين بمحتداهم أو بمصاهرتهم، كان لهم الحق بأن يقع قبولهم في هذا الضريح المشترك للأسرة المالكة.

ولا يمكن الاعتقاد بأنه قد جرى وضع نواويس - أو فكر في وضعها - بهذا المجال الذي إنما يتسع لثلاثة منها، إذ يصعب عبور الممرات التي في بعض جهاتها لا يتعدى علوها مترا وخمسة وعشرين سنتمترا (1.25) وسعتها ثلاثة وثمانين سنتمترا(0.83)، فلاشك أن جرارا من معدن ثمين هي التي كانت تضم البقايا المحروقة للموتى، وكانت هذه الجرار منصوبة إما في الكوى الثلاث، وإما على محامل من خشب أو معدن.

لاشك أن قبر النصرانية هو تقليد عن المدغاسن، الذي استعيرت منه التنظيمات العامة للغطاء بالحجر المقصوب وتنسيق السّتين من الأعمدة المندمجة المحيطة به. ولكنهم أرادوا أن يفعلوا أحسن من المثال الذي قلدوه. فإن نِسَب الأبعاد في المدغاسن لا ترضي كثيرا، وهو أشد انخفاضا بالنظر لقطره، بينما قبر النصرانية الذي له قطر مماثل تقريبا يفوته بعشرين مترا علوا. بحيث لم ترتفع الأسطوانة والمخروط فحسب، بل أقيمت الأسطوانة على مسطح، غير أن النتيجة لم تأت وفق الرجاء، لأن القسم المخروطي يضغط على أسفل البناية. لكن الزخرفة الخارجية أقل جفاء وأكثر رشاقة، بأعمدتها الأيونية وبألواحها ذات البروزات Moulures، كما أن حب التلطيف من رتابة المحيط الشاسع قد أنسى أن أبوابا حقيقية أو وهمية أمر غير مناسب في إحدى التلات. والمدخل هنا كما هناك، هو تماما بالجهة الشرقية، ويبقى مخفيا لا يرى. لكن في قبر النصرانية لم يكن بالمستطا ع ترك هذا المدخل في المخروط

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

ذي الدرج، لأنه بعيد جدا عن الأرض بسبب ارتفاع الأسطوانة. لذلك وقع إذن نقله إلى القاعدة، ولزم بسبب ذلك إحداث درج في الداخل للصعود إلى القاعة الجنائزية. أما في المدغاسن فقد أحدثت الدرج للنزول إلى نفس القاعة، وفي قبر النصرانية جعلت التقويسات في أعلى الرواق والقاعات، بينما المدغاسن ليس به إلا سقوف ببلاطات. أما المنشآت الداخلية فقد نالت عناية كبيرة، بحيث إن الرواق الكبير المحيط، وبَهْوَ الأسَدين، وكذلك البهو الذي يتقدم القاعة الجنائزية، كل ذلك جديد، يعزى على ما يحتمل لتوسع في عبادة الأموات. ويمكننا إذن أن نفرض أن الرواق ذا الفخامة والتناسق، الذي تنيره المصابيح بشعاع خافت، قد أحدث لمرور المواكب الطويلة أثناء الجنازات، وكذلك لاشك أثناء حفلات الذكر السنوي.

لأيّ تاريخ يرجع هذان الضريحان ؟ إن التيجان الدورية بالمدْغاسن لها أشكال تجعلها في بلدان إغريقية راجعة للقرن الخامس ق.م. ولكن نظرا لكونها كثيرة الشبه بتيجان البناية التي أقيمت في «الْخروب» حول أواسط القرن الثاني، فلا لزوم للصعود إلى بعيد. وكما في الصومعة çoumâ، فإن الأعمدة التي عليها هذه التيجان هي، خلافا للقاعدة الكلاسيكية، مجردة عن الأخاديد cannelures. ولابد أن البنايتين لا يفصل بينهما زمان طويل. وبدون تأكيد من جانبي أفضّل أن أرجع المدغاسن للقرن الثالث(90) .لكن بينما في الْخروب كل شيء في الزخرفة هو إغريقي، نجد بالمدغاسن وفي ضريح دُقّة العنق المصرية التي كانت كثيرة الاستعمال في الفن البونيقي. والمتأكد أنها لم تكن مجهولة كل الجهل في الفن الإغريقي. فالملك الذي شاء أن تُكسى تلّته بطراز أجنبي، استطاع إذن أن يلجأ إلى مهندس هيليني. لكن الأكثر احتمالا – على ما

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

أرى – هو أنه لجأ لأحد القرطاجيين الذي مزج بين الفنين كما فعل باني ضريح دُقّة.

ومن العبث ادّعاء معرفة الملك الذي خلف برهانا ساطعا على قوته. فلربما أنه بحظه السعيد أو بسعادة آبائه قد صار سيّداً على منطقة شاسعة، فشاء أن يقام ضريحه حيث كان مهد أسرته.

إن الضريح الملكي المعروف باسم قبر النصرانية متأخر زمنا عن المدغاسن لأنه نسخة منه، كما أنه متقدم طبعا على سنة 40 للميلاد، أي تاريخ سيطرة الإمبراطورية الرومانية على موريطانيا. هذا العهد ذكره بومْبنْيوس مِيلاَ Pomponius Méla، الذي اعتمد في وصفه للساحل الإفريقي على نص يفترض أنه لڤارون Varron المتوفى سنة 27 ق.م. ولكن زيادة على أن ذلك ليس صحيحا، فإن بومْبنْيوس مِيلاَ قد زاد بعض الإضافات من بينها تماما يمكن أن تكون الفقرة المتعلقة بالقبر.

على حجارة القبر نُقشت علامات تشير إلى مختلف المحاجر التي اقتطعت فيها. والكثير من هذه العلامات يشبه حروفا من الأبجدية اللاتانية، من ذلك وقع استنتاجُ هو أن موريطانية كانت عند بناء الضريح مفتوحة بسعة للحضارة الرومانية، مع أن روما لم تكن آنذاك سيدة عليها، الأمر الذي يفضي بنا إلى مَولى أغُسْطس Auguste وهو يوبا الثاني Juba II الذي تولى الملك من 25 ق.م إلى سنة 23 للميلاد. وهذا تفكير منقود بشدة، لأنه إذا كان من بين هذه النقوش ما هو مماثل للحروف اللاتانية، فغيرها يشبه الحروف الليبية والحروف الإغريقية، كما أن غيرها لا يوجد بأي أبجدية. إنها ليست حروفا حقيقية، وإنما هي أشكال هندسية بدائية مجردة عن أية قيمة أبجدية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
ولكي يكون القبر ليوبا الثاني ذكرت حجة أخرى هي أحسن في مظهرها. وهي أن هذا الملك جعل عاصمته هي يول Iol (هي اليوم شَرْشال). فجعلها مدينة كبيرة تسمى قيْصرية Caesarea. غير أن الضريح ليس كثير البعد عن شرشال (البعد بينهما يبلغ نحو تسعة فراسخ lieues). ويمكن أن نفسر لماذا هو ليس أقرب منها، ذلك أن الموقع المختار تمكن رؤيته من بعيد جدا - ولو أنه لا يرى من شرشال نفسها - والأحجار الضرورية لهذا البناء الضخم توجد بنفس الموقع بكثرة كبيرة، وهي به من نوع جيد. وختاما، ألم يكن الأمير الذي كان يحكم في قيصرية يريد - كما فعل لويس الرابع عشر - أن يجنب نفسه النظر المزعج لقبره ؟ كما قيل أيضا إن يوبا الثاني كان يحب البذخ والفن، فَمَنْ غَيْرُه يستطيع أن يقيم صرحا بهذه العظمة ؟

غير أننا بالضبط نظرا لذوقه الفني على استعداد لإبعاده عن هذا النقاش. فالبنايات التي أمر ببنائها في عاصمته كانت من الطراز الإغريقي المحض، أي الطراز الذي كان يسود آنذاك بالعواصم الكبرى في عالم البحر الأبيض المتوسط : برومة والأسكندرية وأنطاكية. ذلك هو ما تشهد به الصور المرسومة على البعض من نقوده، وعلى الحطام الهندسي الذي استخرج في شرشال. ويحتمل جدا أن ذلك يرجع لعهده. وليس من المحتمل مطلقا أن يكون هذا العريف النابه، البالغ الحب للهيلينيّين، قد أحب أن مدفنه يكون كدسا من الحجارة الثخينة على غرار الطريقة الليبية، ويغطيه كساء هو تقليد لبناية ملك نوميدي قديم. ولكي يجدد الطراز يكون اختياره قد وقع على التيجان الأيونية المهجورة تماما، بما فيها هذا الانعطاف في القناة الذي تخلى عنه الفن الإغريقي الكلاسيكي منذ قرون. بل على النقيض، لابد أنه كان

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
حريصا على أن لا يترك لأحد الاعتقاد أنه لا تزال فيه شائبة من «باربارية» Barbarie الطبيعية[91].

إذن فقبر النصرانية ليس من آثاره. إنه أقيم بأمر من أمير متقدم زمنا على يوبا في حكم موريطانية. أمير بربري أراد بالتأكيد أن يعطي للخلف برهانا على عظمته، ولكنه لم يكن يهتم كثيرا بالوسائل الفنية اللازمة لتحقيق مراده، إذ كان زيادة على ذلك، وبدون شك، غير قادر على أن يكون له رأي في الموضوع. إننا نعلم أن التاج الأيوني ذا القناة المنعطفة كان مستعملا في قرطاجة إلى أن تخربت المدينة سنة146 ق.م. فلربما أن الملك الإفريقي الذي قد نستطيع أن نفترض أنه عاش إما قبل أو بعد هذا التاريخ قد استدعى أحد المهندسين الذين لهم ارتباط مباشر أو غير مباشر بإحدى المدارس القرطاجية. ولكن حيث إن زخرفة القبر لا يلوح عليها ما هو بونيقي حقا، فيمكننا أيضا أن نعزو هذه البناية إلى فنان من مدرسة إغريقية تفضل العمل بما هو عتيق. ونلاحظ استمرار وجود التيجان الأيونية ذات القناة المنعطفة في كَمْبانيا Campagnie حتى لما حول القرنين الثالث والثاني. ولربما أن ذلك استمر معمولا به لمدة أطول أيضا في بعض أوساط إغريق الغرب. وكذلك فبقية الزخارف في أسس الأعمدة، والإفريزات وبروزات الأبواب، إن كل ذلك إغريقي صرف ويمكن أن يؤرخ له بالقرن الثاني أو الأول.

قبل أن تخضع «يول» Iol ليوبا الثاني، فإنها كانت عاصمة لباكوس Boccus الذي كان ملكا على موريطانية الشرقية في عهد الحرب المدنية بين يوليوس قيصر والبومْبيّين Pompéiens، وضم لها من بعد سنة 38 موريطانية الغربية. وقد مات سنة 33 ق.م. فيمكن إذن – ولكن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

من غير تأكيد على هذا الافتراض - أن نتساءل عن «البناية المشتركة للعائلة الملكية»، هل لم يقمها هو نفسه، أو ملك غيره سبقه في حكم يُول. إن المنطقة التي كانت يول تقع فيها، ربما لم تعد جزءا من المملكة النوميدية منذ سنة 105 في نهاية حرب يوغرطة، لتصبح تحت سيادة الملك الموري باكوس الأسبق Bochus l'ancien. غير أننا نجهل هل صارت يول عاصمة قبل باكوس الأخير.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

شروح وإحالات

1) هذه الثمرة هي النَّبَق الذي هو فاكهة السدر، ولا يزال الناس عندنا يقبلون على هذه الثمرة ويستطيبون أكلها طرية أو جافة.

2) ولكن الروينة La rouina لفظ عربي، فيحسن الانتباه لذلك حتى لا يظن أنها من طعام الأعصر العتيقة المتقدمة على الإسلام مثلا، والحق أننا ليس لدينا أي وسيلة للتأريخ في هذا الموضوع.

3) يقول هيرودُت : ك 4، 186 إن الليبيين الرحّل أكلة للحوم وشرّابون للحليب. سالُسْت في يوغرطة ك 89، 9. سترابون : ك 17، 3، 15. تيتْ ليفْ : ك 29، 31، 9. بُمْبونْيوس ميلا : ك 1، 41.

4) اسم الجزيرة كناريا مشتق من Canis وهو اسم الكلب في اللاتانية، يقول بلين : ك 6، 205 «هذه الجزيرة سُمّيت كناريا Canaria بسبب ما كان يوجد بها من عدد كبير للكلاب ذوات الأجسام الكبيرة». وفي جنوب الأطلس المغربي كانت تعيش أقوام يُسمّون كناري Canarii. والفقرة التي ورد فيها ذكرهم عند پْلين : ك 5، 15 تقول إنهم كانوا يأكلون كما تأكل الكلاب، لأنهم يأكلون الكلاب. إذن فمن الخطأ استخدام هذا النص برهانا على أكل الأهالي للكلاب.

5) لم أعثر شخصيا على ما يفيد وصف النبي (ﷺ) للوشم بأنه كتابة الشيطان، ولكنْ نهيُ النبي عنه نهي صريح واردُ في السنة النبوية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.
فالحديث رقم 4168 الوارد في الجزء الرابع من سنن أبي داود، هو : حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد، قالا : حدثنا يحي، عن عبد الله، قال : حدثني نافع، عن عبد الله، قال : «لعن رسول الله (ﷺ) الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة». الواصلة هي التي تصل الشعر بشعر النساء، والمستوصلة المعمول بها، والواشمة هي التي تخط الوشم، والمستوشمة من يفعل بها ذلك.

6) لم يذكر المؤلف الشملة. كان الكبراء وأهل العلم ورجال الدولة لا يزالون يلبسونها لغاية عهد الحرب العالمية الثانية، ثم اختفت نهائيا. وهي التي يسميها الناس أيضا باسم الكْسا. وكانت تلبس فوق القفطان والفراجية، ومن فوقها السلهام. على أن الكسا، هو الكساء بالفصحى، كما أن الحايك إنما هو صيغة فاعل بمعنى مفعول أي الحايك = المحوك. فالألفاظ تلاثتها عربية : شملة، كساء، حايك. فهل يصح نظرا لأسمائها أن نقول إنها دخلت مع العرب، وأن البربر اقتبسوها منهم ؟ والملاحظ أن البربر لا يلبسونها مطلقا إلا إذا سكنوا المدن، وصاروا بها من ذوي الحيثيات الحضرية، أو علت مرتبتهم في الدولة. أما في المناطق العربية فهي معتادة.

7) الطريقتان معا، لا تزالان إلى اليوم مستعملتين في الأرياف والبوادي. والأولى منهما ذات القطعة المفردة تسمى طريقة ارتدائها – أو تسمى هي نفسها – باسم "التسَغْنيصة" (وهي غير تسَغْنيصة العروس في المدن). والثانية ذات القطعتين تسمى باسم "التخليلة العربية". ولا أحاول البحث عن الأصل الاشتقاقي لكلمة التسغنيصة لأني لا أدريه.

8) إذا كانت هذه القلنسوة المخروطية حمراء اللون، تكون هي الشاشية المخزنية الرسمية اليوم بالمغرب.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

9) هذه الحبائك مستعملة حتى اليوم. وتكون مزخرفة وملونة، وليس لها قدم، وإنما تبدأ من الكعبين وتنتهي عند الركبة. وتسمى التراويل.

10) أما هامي Hamy فلا يمانع أن تكون هذه الأدوات أسلحة جرمانية، بينما يرى كل من بوانصو Poinssot ولنتيي Lantier أنها مجرد محكات لغسل السفن الناقلة للخمر.

11) هكذا رأينا في الأخبار السينمائية وفي الصحف المصورة الجنود الگوم Goumes المغاربة أثناء الحرب العالمية الثانية يضعون على رؤوسهم الخوذات فوق عمائهم.

12) في كثير من الحروب، وليس في جميعها. لأن الملك سواء كان هو سيفَكْس، أو مسنيسّا أو يوغرطة أو يوبا الأول مثلا، كان إذا حشر جيوشه من رعاياه لخوض حرب منتظمة، فإن الرجال وحدهم، هم الذين كانوا يغادرون مساكنهم ويقدمون عليه. لأن السلطة الملكية كانت تضمن لهم – أو المفروض أن تضمن لهم – سلامة أسرهم وما يملكون.

13) ارجع في شأن هذه الأوعية للرضاعة للجزء الرابع من هذا الكتاب، ص 61 من الترقيم الفرنسي الأهالي.

14) Euripide, Alceste, 346-7; Hélène, 170-1; Troyennes, 544 ; Hercule furieux 684. Nonnos, Dionys, x, 230 ; XXIV, 38.

15) وكان اسمه عبد مِلْقارت ابن أدونيبَعْل.

16) أتلنطات، أطْلنطات Atlantes هي تماثيل حاملة على أكتافها ما يأتي فوقها من البناء، فهي إذن أعمدة على شكل تماثيل إنسانية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

17) ارجع للجزء الثاني ص 237 و283، وللجزء الثالث ص 198/197 190، 238 بالترقيم الفرنسي الأصلي... (ولكن الأمر هنا ليس واقعا تاريخيا).

18) اقترح فيديرب Faidherbe تسميتها باسم (النقوش النوميدية) ولكن لم يعمل أحد باقتراحه.

19) هَليفي، المجلة الأسيوية 1874، 1، ص 101، رقم 17 وكذلك فإن فْلَنْدرس بيتري قال بوجود نقشين ليبيين مكتشفين بمصر.

20) كان دصلسي هو الذي تعرف على أكثرية الحروف الليبية، حسب النقش ذي اللغتين الذي بضريح دُقّة. وقيمة بعض الحروف الأخرى تعرف عليها هَليڤي، ولُتورْنو، وشابوت.

21) إذ عثر عليها بالخصوص في أبيدوس وفي نجادة.

22) هذا افتراض ينحصر في بلاد البربر ولكنه شبيه بنظرية قال بها فلندرس بيتري في : (The Formation of the alphabet, londres, 1912) وفي تلخيصه له في Scientia العدد (XXIV) , 1918 24، ص 438 - 444. فحسب رأيه هذا، فإن مجموعة كتابية ليست تصويرية في الأصل، تكون قد تكونت في مصر بطريق مجموعة من العلامات المستعملة في هذا القطر. وفي الألف الثانية قبل الميلاد تكون انتشرت في بلدان مختلفة. وبعد عمليات للانتقاء والتغيير تكون قد تولدت عنها كتابات مختلفة مقطعية وألفبائية انتشرت من أسبانيا إلى جنوب البلاد العربية.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

23) فـي الـبـلاد العربيـة الجنوبيـة توجـد الألفبـاء المعنيـة السبئيـة Minéo-Sabéen (تعرف عادة بالحِمْيَرية). وفي شمال هذه البلاد العربية توجد الألفباء الثمودية، وكذلك الألفاء الصفوية Safaïtique.

24) هنا اثنتان في أسبانيا، أولاهما هي الألفباء الكِلْتِبْرية Celtibérien والثانية الألفباء التِرْدِتانية Turdétain. ويحسن أن يضاف لذلك الألفباء التي تظهر على الآجر المكتشف أخيرا بفرنسا في گلوزيل Glozel، ولكن إذا تأكد أنها تنتمي لعهود عتيقة جدا.

25) هذا طبعا في مجموعات النقوش الليبية التي نعرف قيم حروفها. ولكن لا يستحيل، أن يوجد في غير هذه حروف ليبية أخرى لها نفس الصوت ونفس الشكل اللذين لهما في الألفباءات الأجنبية.

26) ديصو Dussaud قال بالقرابة بينها وبين الإغريقية. أما بْلَاوْ وجوداس Blau وJudas فيقران بأن بينها وبين الكتابة السبئية العربية (أي الحميرية)، وبين الكتابة الأثيوبية المتولدة عن هذه الأخيرة. بينما ليتمان Littmann يقارب بينها وبين ألفباءين الفينيقية والليبية، غير أن هذه الأخيرة، أي الليبية تتصل بألفباء كنعانية (تكون) أقدم من الفينيقية، بل وتنحدر الفينيقية من هذه الكنعانية.

27) في الحالة الراهنة لمعلوماتنا، فإن أقدم هذه النقوش، هو شاهد قبر أحيرام ملك جبّيل. ويرجع تاريخها للقرن الثالث عشر قبل الميلاد.

28) هذه النظرية تتعارض مع نظرية روجي Rougé القائلة بأن الألفباء الفينيقية متحدرة من الكتابة العادية السريعة Cursive المصرية المعروفة باسم الهيراطيقية، التي هي تشويه للهيروغليفية، والتي كانت كتابة تصويرية. هذه النظرية وقع الدفاع عنها من جديد، ولكن

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مع القول بوجود كتابة أخرى توسطت بين السريعة المصرية والألفباء الفينيقية. هذه الكتابة الأخرى سامية عرفناها عن طريق نقوش عثر عليها في سيناء. فالفينيقيون قد يكونون قد كونوا الألفباء لهم من 22 حرفا مستخدمين لها على الخصوص علامات هذه الكتابة السامية، ومقتبسين ربما من إحدى الكتابات الإيجية. وهناك رأي آخر قديم يعود للظهور من جديد، ويعارض نظرية فْلَنْدِرس بيتري، ومؤداه أن الألفباء الفينيقية هي اختراع أصيل، ذو طابع صنعي بالكلية، وعنه تتحدر جميع الألفباءات.

29) في لبْدة Leptis magna، أويا Oea (طرابلس) سبْراتة Sabratha ثيناي Thaenae، تِنْجي Tingi (طنجة).

30) ويضاف لهذه النصوص كثرة ورود الأسماء البونيقية في النقوش اللاتانية التي يرجع تاريخ أكثرها للقرنين الثاني والثالث للميلاد.

31) كما تشهد بذلك الكتابات باللغتين الليبية–البونيقية، والبونيقية–اللاتانية. أما الكتابات الليبية المؤرخة بالعهد الإمبراطوري، فيكثر وجودها بالشمال الشرقي للقطر الجزائري، وهي المنطقة التي كان فيها الفلاحون في القرنين الرابع والخامس يتحدثون بالبونيقية بانطلاق، كما يخبرنا بذلك القديس أوغسطين.

32) ذلك ما لا نستطيع أن نبرهن عليه حقيقة، لأن الإعارات البونيقية التي لم تنحها الأعارات العربية من بعد، أصبحت اليوم مختلطة مع هذه الإعارات العربية. ولا يمكن التمييز بين هاته وتلك نظرا لعلاقات القرابة المتينة الموجودة بين البونيقية والعربية، ونظرا كذلك لجهلنا الذي يكاد يكون تاما بالخاصيات البونيقية التي كان من الممكن أن تساعدنا على التمييز.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

33) نعرف أن الذين خلفوا مسِنيسّا على الملك قد احتفظوا بصورته على نقودهم. ويبدو أن أحد هؤلاء، وهو آذربَعْل المتوفى المتوفى سنة 112 ق.م، قد ذكر اسمه عليها ممثلا بحرفين من حروف الكتابة البونيقية.

34) تاريخ تقريبي حسب الكتابة اللاتانية المصاحبة للكتابة الفينيقية.

35) انظر: Instructions pour la recherche des antiquités dans le Nord de l'Afique, P : 71-72.

36) حسب سويطون في ترجمته ليوليوس قيصر، الفصل 52، كانت زوجة بوگود ملك موريطانيا تسمى باسم أونوي Eunoe، وهو اسم إغريقي. ولكن هل هذا هو الاسم الذي كان يسميها به الموريون ؟

37) كانت متداولة بسرنيكا (برقة) في العهد الإمبراطوري، ويجوز الافتراض أنها ترسخت هناك قبل ذلك العهد.

38) بعض هذه الطقوس لم يولد في بلاد البربر. فنيران المباهج التي توقد في الانقلاب الشمسي بالصيف، إذا كانت الغاية منها هي مساعدة الطاقة الشمسية على البقاء، وإذا كان الاستحمام في نفس التاريخ غايته الحصول على المطر، فلا يمكن تبرير هذين العملين في شمال إفريقيا حيث الشمس في أشد حرارتها في نهاية يونيو والشهرين المواليين له، وحيث يكون المطر غير مطلوب في بداية الصيف، لأن المحاصيل تكون قد نضجت، وربما تكون قد حصدت. فطقوس النيران والاستحمام - بهذه المدلولات - تكون طارئة على شمال إفريقيا.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

39) نصوص ديون كاسْيوس والقدّيس أوغسطين، بالجزء الأول، ص242، بالتعليقين رقم 4، 5 وذلك بالترقيم الفرنسي الأصلي.

40) نصوص أرنوب، وهيرودُت، والقديس اوغسطين بنفس المرجع أعلاه، وبالتعاليق رقم 7-9 و10.

41) هو نيقولاس الدمشقي، ارجع للجزء الخامس، ص 32-33 بالترقيم الفرنسي الأصلي.

42) هَنْري لاوُسْت في كتابه (Mots et choses berbères) ص 214 و221 يقول إنه عثر على الفاظ لاتانية هي: (Mater، وterra water) في التضرعات الموجهة إلى غَنْجة (المغرفة) وذلك في بعض الجهات.

43) ارجع للجزء الأول، ص 246-247 بالترقيم الفرنسي الأصلي. وارجع إلى ص 220-225 من كتاب L'etat actuel du problème totémique، بقلم فان جنب. أما فْرازر فيرى أن الطوطية لم يعرفها أي شعب من الشعوب البيضاء.

44) يرى البعض أنها ترجع إلى عهد أبعد من ذلك بكثير، فمثلا يرى فان جنب أنها ترجع لما بين 10.000-12.000 سنة. لكن الفَرَس يظهر أحيانا بين هذه الرسوم، ولا اعتقد أنه عرف في بلاد البربر قبل أن يعرف في مصر أي قبل الألف الثانية قبل الميلاد.

45) القديس أثناز قال ؛ وبصفة عافة : فإن الليبيين يعتبرون الكبش وكأنه إله : (Contra gentes, 24).

46) الضريحان الملكيان المعروفان عموما باسم المدغاسِن وقبر النصرانية توجد بهما أمكنة وكأنها كانت معدة لإقامة الاحتفالات تمجيدا للملكين أو الملوك الذين دفنوا بهذين الأثرين.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

47) عرّبت Genio بكلمة جِني، والتعريب غلط، ولكنني عجزت عن التوصل لمعرفة المقابل العربي، على فرض وجوده، لهذه الكلمة. ذلك أن Genio هي من genius، وهو الإله الخصوصي لكل أحد، يسهر عليه ويرعاه منذ ولادته إلى وفاته ويغيب بانتهاء صاحبه، وهو أيضا يقاسم صاحبه حظه ومقاديره. وكان المرء يدعى باسم أو بدعوة إلهه المرافق له، وتقدم القرابين يوم العيد باسم الإله المصاحب، الذي يقاسم الرجل المصحوب أفراحه وأحزانه. (وبهذا أصبح هذا المصاحب مرادفا للمصحوب). إذن فالصحيح غير ما ذكره المؤلف، إذ نظرا لهذا الترادف يكون النقش المذكور - ولو أنه باسم هذا الإله المختفي المستجن - لبطلمي بين يوبا نفسه، ولا يكون هناك داع لوجود روماني مثلا يعبد الملك أو لايعبده.

48) Mansi, Conciliorum Collectio (Florence, 1759) III, P 782. Can 84.

49) Toutain في كتابه : (Les cultes païens dans l'Empire romain) القسم الأول من ج 3، ص 37 وما بعدها، جمع تقريبا جميع النصوص المنقوشة اللاتانية المتعلقة بهذه الآلهة.

50) ارجع لما سبق ذكره في ص 121 و123 بالترقيم الفرنسي من هذا الجزء.

51) إذ، في رأي الأهالي، العَذارى وحدهنَّ يمكن أن يشاركن من غير خوف عليهن في المعركة التي تجري بينهن في عيد أثينا. وذلك لأن الفتاة المعروفة بأنها عذراء هي التي تمثل الإلاهة في حفلة الطواف.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

52) مكان ولادة أثينا في إفريقيا يتغير بحسب الموقع الذي يحدد لنهر تْريتون ولبحيرة تريتونيس، إذ لم يتفق الباحثون في شأنهما على مكان واحد بعينه.

53) ويضيف قوله : «لأنني أؤكد أن الترس المستديرة والخوذة قد استجلبا إلى الإغريق من مصر». لكن هذا غير صحيح.

54) هيركَلْيس الليبيين هو ملْقارت، ارجع للجزء الرابع، ص 303 بالترقيم الفرنسي، أما هِرْكول الليبي فإنه حسب رواية سالُسْت في حرب يوغرطة فقرة 89، هو الذي أسس مدينة قَفْصة، غير أن بولس أوروز في مؤلفه Ado pagan أي نقد الوثنيين ك 5، 15، 8 يعزو تأسيسها إلى هركول الفينيقي. ارجع للجزء الرابع ص... 309 بينما صولان في ك 24، 2 يقول إن آفر Afer الذي أعطى اسمه للإفريقيا كان ابنا لهركول الليبي...

55) تشهد بذلك نقوده (ارجع إلى ص 131) ويذكر بلوتارك (في ترجمته لسرطوريوس، الفصل 9) قوله : يجعلون ليوبا الثاني جدا هو صوفكس Sophax الذي هو ابن هيركليس Heraclès وتنجي Tingé التي هي أرملة أنطي Antée، وقد ولد صوفكس ولدا هو ديودور Diodore. وهذا لاشك هو الرأي الذي كان يقول به يوبا نفسه، ولو أن بلوتارك لم يصرح به. على أن هاتين الشخصيتين الخرافيتين، قد وقع اختراعهما قبل يوبا، لأن المؤرخ اليهودي كليوديم Cléodème، الذي ذكره ألكسَندر بوليهسْتور A. Polyhistor، روى أن أحد أبناء إبراهيم، وهو أفرا Aphra قد رحل إلى ليبيا صحبة هيركليس. فولد لهيركليس من بنت أفرا ولداً ذكراً هو ديدور

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

Didore (ديـودور Diodore) وأن هـذا الأخيـر كان هـو أبا صوفون Sophon (أو صوفوناس Sophonas).

56) تظهر هذه الأشعرة أو الرموز Attributs في الغالب على نقود يوبا الثاني. كما أن تمثالا ضخما لهيركليس قد وقع اكتشافه في مدينة شرشال (يول) التي كانت عاصمة للملك يوبا الثاني، ويمكن التأريخ للتمثال بعهد الملك، وإن كان التمثال تقليدا لأصل بُرُنْزي يرجع للقرن الخامس قبل الميلاد.

57) Fragm. Hist. Graec. III, P 472, n°23 وهي قصة كثيرة الشبه بما رواه هِزْيانَكْس Hesianax عن المسيليين وإلههم كْرونوس Cronos.

58) وكذلك الأمر بالنسبة لمعبودة مُتَوَّجة أيضا بالسنابل، وتظهر على قطعة نقدية من تنجي Tingi، تؤرخ على وجه الاحتمال بالقرن الأول قبل الميلاد.

59) بلوتون Pluton هو في الأصل خصب الأرض متشخصا في رب يعبد ويحمي وفرة المحاصيل. هذه هي الخرافة، ولكنها تطورت من بعد. ذلك أن بلوتون يقيم في الظلام، في باطن الأرض، ولذلك صار اسمه لقبا لهاديس Hadès رب الجحيم، والهوة المرعبة المظلمة التي تبعد عن سطح الأرض، بعد الأرض عن السماء، وهي السجن المخيف الذي يقع فيه الآلهة المخطئون والجبابرة العتاة.

60) ليبير Liber معبود لاتاني عتيق اختلط من بعد بباخوس، ومن ناحية أخرى كانت كلمة الأب Pater تعني أبا الآلهة، إذ كانت على الخصوص عامة. فليبير الأب Liber Pater هنا يكون معناها إما ليبير أبا الآلهة، وإنما الإله، أو المعبود ليبير. ولكن يضاف لهذا

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

أيضا أن ليبير معناها الخمر، ولذلك فلربما يكون الإله ليبير (بمعنى الخمر) حصل في شأنه اختلاط مع ديونيسوس إله الخمر أو مع باخوس كذلك.

61) أجعل هنا لفظ مُستَجن مقابلا لكلمة Genius، التي لها معنى الإله أو المعبود الخفي الساهر الخاص على كل إنسان وكل مكان وكل دولة وكل شيء. والمهم عندي أداء معنى التستر والخفاء وعدم الظهور في كلمة مستجن العربية قبالة Genius اللاتانية.

62) ارجع لصفحة رقم 126 بالترقيم الفرنسي الأصلي، في هذا الجزء.

63) هيرودُت : ك 4، 172.

64) پْروكوب Procope في حرب الوَنْدال .Bell. Vand، ك 2، 8، 13.

65) ارجع للجزء الرابع، ص 422 بالترقيم الفرنسي الأصلي في شأن النساء اللواتي كن يتنبأن بقرطاجة في معبد كيلستيس Caelistis في العهد الروماني، ولربما أن هذا كان تقليدا لعادة بونيقية.

66) مثلما كان يفعل الأسبانيون الذين برروا في الأخير عملهم بأنهم كانوا يتركون للعقبان وغيرها من الطيور المفترسة أمر حمل الأعضاء الشريفة التي يجب أن تبقى حية، فتحملها هذه الطيور إلى السماء.

67) سيليوس إيطاليكوس : ك 13، 1-480. وبالنسبة لهيرودُت ارجع لما يأتي في ص 209-210 بالترقيم الفرنسي الأصلي.

68) لفظ الحوانيت يطلق عليها في تونس. أما في المغرب فاللفظ يطلق بالخصوص على الدكاكين، لاغير. وهذا النوع من المدافن القديمة،

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

وخصوصا منه تلك التي في الأجراف المواجهة للبحر، والتي يجتمع فيها صيادو السمك غالبا، فاسمها في المغرب هو الغريفات تصغيرا لاسم الغرفة، التي هي في الاستعمال المغربي تخص الحجرة في دور أعلى.

69) ويعثر أيضا على هذا الشكل الرباعي - وبصفة أقل من الشكل الدائري - في جزيرة إقْريطشْ، حيث يؤرخ له بالألف الثالث قبل الميلاد.

70) في رأس شبَرْتل Cap Spartel بالقرب من طنجة، وقع العثور في صدع بالجرف على هيكل إنساني، مدفون بالوضع المنثني Position pliée، وكانت ركبتاه ويداه راجعة إلى الأمام تحت الذقن.

71) هذا هو التأويل الذي أعطي للأخاديد الدائرية الشكل التي تحيط بعض المدافن بفرنسا، والمؤلف ينقل نفس التأويل لهذه الآثار هنا.

71مكرر) الملاحظ هو أن المؤلف اقتصر على ذكر البازينات التي بالقطر الجزائري ولم يذكر مثيلاتها التي بالمغرب ومنها : البازينا الموجودة في الگور Bazina du Gour بين مدينتي فاس ومكناس.

72) ارجع للجزء الخامس، ص 225 بالترقيم الفرنسي.

73) بالمغرب يجب بالخصوص لفت النظر إلى أثر قيم من هذه البزينات وهي الموجودة بسوق أحد الگور بإقليم مكناس.

74) السِّنامات هنا جمع سِنام Senam واللفظ عربي لاشك فيه، لأن السنام هو حدبة الجمل. والبناء المسنم هو الذي يكون أعلاه ذا جانبين ينزلان مائلين من أعلى إلى أسفل على شكل حدبة الجمل. لكن هذا يقصد مجرد بناء أقيم من ثلاث قطع هما القائمتان اللتان على

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الجانبين وفوقهما قطعة مسطحة (لامسنمة) كأنها المائدة. إذن فمن سبق بإطلاق لفظ السنامات أو الأسنام عليها، المؤلف أو أهل البلد؟

75) هذا الشكل كثير الوجود بالمريس بناحية طنجة بالمغرب.

76) تختلف الأبعاد بحسب الإمكانات الشخصية والأعراف المحلية وكذلك بحسب نوعية الصخور والأحجار. فالدلمينات في المريس مثلا صغيرة في بونوارة والركْنية وهي كبيرة في بني مَسّوس والشاواش وانفيدة. أما في سكوس وهَنْشير ميداد فيوجد بهما ما يصل طوله لثلاثة أمتار. وفي مكتار دلمين يبلغ طوله ستة أمتار.

77) لفظ شوشة في الأصل ليس عربيا، وإطلاقه على الطربوش إطلاق تونسي أو جزائري ربما، أما في المغرب فلفظ شوشة يطلق بالخصوص على مجموعة الخيوط الحريرية المفتولة المدلاة من الطربوش على القفا.

78) لم أستطع الحصول على الأصل العربي للتيجاني، ولذلك فإني أترجم للعربية ما ذكره عنه گسيل واعتذر عن ذلك. والكتاب فترجمته الفرنسية، هو :

Voyage dans la Régence de Tunis, trad. Rousseau, dans Journ. Asiat. 1853, t, 1, P 111-2.

79) انظر هذا بصفحة 239 من الأصل الفرنسي وبصفحة 160 من ترجمتنا العربية هذه.

80) هيرودُت ك 4، 100.

81) ديودور الصقلي ك 3، 55.

82) Carton : Découv. P 355. 396.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

83) هذا التفسيرذكره بعض الزنوج الهوتنتوت Hottentots وبعض أهل البيرو Péruviens، ولكن ليس مؤكدا أنهم هم الذين اكتشفوا هذا التفسير.

84) De Mari Erythraeo, 63 (dans Geogr. Graeci min. de Muller, 1, P.154). Conf. Diodore de sicile, III, 33 ; Strabon, XVI, 4, 17.

85) هيرودُت : ك 4، 172.

86) أورد المؤلف اكْصيل ترجمة نص الإهداء نقلا عن الترجمة اللاتانية التي قام بها الأب شابوت Chabot في Punica ص 8-207.

87) ضريح قصر شنان، قصر روحاحة، هَنْشير الدوْرات، وهذه المواقع كانت في الولاية الرومانية.

88) ليس متأكدا أن البنايات التي يرجع لها هذا الحطام قد كان جميعها أضرحة. فلربما أن بعض الهياكل قد زخرفت بنفس الطريقة.

89) كضريح بلاد القيطون، والمدافن الهرمية الشكل المعرفة باسم الجدار Djedar.

90) إذا صح أن الموتى الموضوعين في المدغاسن قد وقع إحراقهم، فتلك حجة لعدم الصعود إلى أبعد من القرن الثالث.

91) أحبُّ وأحرص في العربية كما في الفرنسية على التمييز بين باربار Barbare ومنه باربارية Barbarie، واللفظان يدلاّن على معنى الهمجية والوحشية، وبين بَرْبَري Berbère المجرّد عن كل معنى تنقيصي. وقد حُلّ اليوم هذا الإشكال باستعمال كلمة «الأمازيغ» أي الأحرار مكان كلمة «البرْبر». ومنه الأمازيغي للتعبير عن النسبة. واستعملتُ كلمة «برْبر» في المتْن المترجم لأبقى وفياً للأصل الفرنسي لاغير.

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

الفهرس

الجـزء السادس

الكتاب الأول : الحياة المادية 7

- الفصل الأول : الطعام – العناية بالأبدان والملابس 7
- الفصل الثاني : الأسلحة والأثاث 37
- الفصل الثالث : الحياة في البوادي والمدن 53

الكتاب الثاني : الحياة الفكرية والروحية 83

- الفصل الأول : اللغات والكتابات 83
- الفصل الثاني : الديانات 107
- الفصل الثالث : الأعراف الجنائزية 149
- الفصل الرابع : مدافن شاهدة بتأثيرات خارجية 213

– شـروح وإحالات 239

This document is created with trial version of TIFF2PDF Pilot 2.5.82.

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط -